العقيدة والقوة معا

محمد عبد الله السمان

العقيدة والقوة معاً

« وَإن يُرِيدُوا أن يَخْدعُوك .. فإن حَسْبُكَ الله هُوَ الذي أيّدك بنَصْرِهِ وبالمؤمنين . » صدق الله العظيم

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
المحرم ١٣٩٤ هـ
مارس ١٩٧٤ م

من كتاب الله :

● يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم .. واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ..

● واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .. واعلموا ان الله شديد العقاب ..

● واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآويكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ..

● يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا آمنتكم وأنتم تعلمون ..

● واعلموا أنما أموالكم وأولدكم فتنة .. وان الله عنده أجر عظيم .

● يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا .. ويكفر عنكم سيئاتكم .. ويغفر لكم .. والله ذو الفضل العظيم ..

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

• نحن في معركة ما في ذلك أدنى ريب ، وليست الأمة العربية وحدها ، وانما الأمة الاسلامية جمعاء ، وما الأمة العربية الا جزء لا يتجزأ من الأمة الاسلامية ، وهذا من المسلمات التي لا تحتمل نقاشا ولا جدالا ..

ومهما حاول ذوو الأهواء ان يقيموا من الاوهام والترهات حواجز بين الأمة العربية والأمة الاسلامية ، فان الحقيقة التي بقيت وستبقى ما بقيت السماء والأرض ، هي أن شمس الاسلام أول ما أشرقت ، فانما أشرقت على أرض عربية خالصة لتكون مركز انطلاق الى الآفاق الواسعة ، وأن الدعوة الاسلامية أول ما استقرت فانما استقرت في قلوب عربية خالصة أيضا ، لتحمل هذه القلوب العربية الدعوة الاسلامية – عقيدة وايمانا ومبادىء – الى الناس كافة ، وأن أول دماء بذلت من أجل الدفاع عن العقيدة ، فانما كانت دماء عربية خالصة ، بمثابة معالم على الطريق.. طريق النضال من أجل المبادىء ..

وازاء هذه الحقيقة الخالدة .. تتلاشى تلك الحواجز التي صنعتها

الأهواء من الأوهام والمغالطات ، وتتحول الى خيوط هي أوهى من خيوط العنكبوت ، قد يبقى لتلك الحواجز بين الاسلام والعروبة رصيد في بعض الأدمغة أو في بعض الكتب . لكن هذا الرصيد سيتحـول الى أوراق « بنكنوت » ملغى يوما ما ، وذلك حين يفهم العرب حقيقة الاسلام ، وحين يفهم المسلمون حقيقة العروبة ، وحين يدرك الاثنان معا ، أن العروبة لا غنى لها عن الاسلام ، لأن الاسلام هو الذي منحها وجودا يليق بالمجد ، ويليق المجد به ، وأن الاسلام لا غنى له عن العروبة ، لأنها الجزء من العالم الذي بزغت فيه شمسه ، ولأن فوق أرضها تستقر الأماكن المقدسة له ، ولأن لغتها هي وعاء تراثه الفكري والحضاري ..

وهذه كلمات سريعة لها ما بعدها .. /

فانه يحلو للبعض ان تكون المعركة في معزل عن العقيدة ، وأن تكون العقيدة بمعزل عن المعركة ، أحيانا يتظاهر ـــ هذا البعض ـــ بالاشفاق على المعركة ، حتى بعد أن صكت آذانه كلمات مدوية تعلن قيـام الدولة على العلم والايمان ..

والأسلوب المكشوف لهذا البعض أسلوب ممتزج بالخبث ، وهو نفس الأسلوب الذي يسلكه حيث يطيب له أن يفصل الدين عن الدولة ، وتفصل الدولة عن الدين ، متظاهرا أيضا بالاشفاق على الدين أن يزج به في شؤون السياسة والحكم ..

اننا ـــ نحن المسلمين ـــ لدينا تاريخنا ، منذ أشرقت شمس الاسلام على الوجود ، ولا يمكن أن تتنكر لتاريخنا وهو جزء لا يتجزأ من وجودنا : ماضيا وحاضرا ومستقبلا ..

فالقلة المستضعفة العزلاء في مكة استطاعت بعقيدتها أن تصمـد

ثلاثة عشر عاما ، في مواجهة طغيان كالطوفان ، يسلط على أجسادها سياط الوحشية والهمجية ، ويسلط على أعصابها أخس أساليب الارهاب ، وكان أن خرجت هذه الفئة ـ التي حملت لواء العقيدة من أول لحظة ـ خرجت من هذه المحنة الطاحنة ظافرة ...

وفي أول مواجهة مسلحة ، بين الفئة المؤمنة وجحافل البغي ، كانت العقيدة هي السند في النصر مع الفارق الشاسع في العدد والعدة ، حيث لم تكن الفئة المؤمنة تملك منهما الا قدرا ضئيلا ..

وببضعة آلاف مؤمنة مسلحة بالعقيدة الى جانب القوة ، استولت الدعوة الاسلامية على المنطقة العربية بأسرها ، وصفت معاقل الشرك والوثنية ، وتطلعت الى أكبر قوتين تسيطران على معظم بقاع الأرض : هما دولة الروم ودولة الفرس ..

واستطاعت الدعوة الاسلامية بالعقيدة والقوة معا بعد ذلك ، أن تفتح مشارق الأرض ومغاربها ، وما تخلى النصر عنها أحيانا الا بسبب اهتزاز في العقيدة ، واضطراب في الايمان ، اذن فالعقيدة هي العامل الأساسي في كل نصر أحرزته الدعوة الاسلامية ، وفي كل هزيمة ألمت بها ، فلما كانت العقيدة قوية نابضة بالايمان القوي ، والثقة المطلقة في الله عز وجل ... كلما كان النصر المؤزر مؤكدا .. والا كانت الهزيمة ..

ولم يحدث في تاريخ الدعوة الاسلامية في نضالها ، مرة واحدة ، اعتمدت فيها على القوة المادية وحدها ، وكتب لها النصر ، منذ معركة بدر حتى معارك حطين وعين جالوت ، بل كانت العقيدة هي السند الأول .

في معركة أحد ـ كما ذكر المقريزي في « امتاع الأسماع » لفت

نظر الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ كتيبة خشناء لها زجل ــ أي صوت وجلبة ــ فسأل :

ما هذه ؟

فقالوا : هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي سلول من يهود !

فقال ــ صلوات الله وسلامه عليه :

« لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك •• »

أجل ، لقد رفض ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ هذا السند من القوة المادية ، لأنه مجرد من العقيدة التي يجب أن تكون أول ما يعول عليها ••

رحم الله الدكتور محمد حسين هيكل ، قال في كتابه « الامبراطورية الاسلامية » كلمات ، يجب علينا أن لا نعيها ــ وحسب ــ بل أن نتدبرها ، وأن تكون نصب أعيننا وملء أفئدتنا :

•• ان الايمان هو الذي أقام الامبراطورية الاسلامية ، وهو الذي أبقاها ما بقيت من القرون •• فلما اضمحل هذا الايمان •• بدا الانحلال يدب في أرجاء الامبراطورية •• يمزقها وينتهي بها الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية البيزنطية •• والامبراطورية الفارسية ••• !

كلمات لا تحتاج الى تعقيب ••• وحسبنا الله وحده ؟

محمد عبدالله السمان

القاهرة : ص.ب ١٦٢١

تمهيد

لا جدال في أن العقيدة والقوة معا ، شيئان متلازمـان ، وثيقـا الارتباط ، لا غنى لكليهما عن الآخر ، فلا غنى للعقيدة عن القوة ، لأنهـا بمثابة درع لها ، ولا غنى للقوة عن العقيدة ، لأنها بمثابة طاقة دفع لها .

وأية محاولة لاقصاء العقيدة عن القوة ، فانما هي محاولة لتجريد القوة من طاقة الدفع لها ، وتحويل هذه القوة الى آلة صماء معطلة ..

كما ان أية محاولة لاقصاء القوة عن العقيدة ، فانما هي محاولـة لحرمان العقيدة من طاقة المناعة لها ، وتحويل هذه العقيدة الى غرس بلا ثمر ..

يجب أن نذكر هذا جيدا في معركتنا الضارية بيننا وبين عدو شرس ، تتمثل فيه العدوانية الحاقدة في أحط صورها ، وأخس ألوانها ، وتجري هذه العدوانية الحاقدة في دمائه . وتسيطر على وجدانه ومشاعره ، وأصبح لا يحس بوجوده الا في ظلها ، ولا يلتمس كيانه الا في رحابها .

هذه العدوانية الحاقدة التي تنفث سمومها بين أرجـاء العروبـة اليوم ، قد رافقت مسار الدعوة الاسلامية في مطلع حياتها ، ولم تتخل عن مهمتها قط ، فلم تكد الدعوة يستقر بها القرار في يثرب ، حيث كان لهذه العدوانية الحاقدة جالية كبيرة لا يستهان بها ، حتى اخذت تعبىء نفسها

للكيد لها ، والتآمر عليها ، وقد اتخذت من الظلام ستارا لها ، تنسج خيوط المؤامرات أصابعها ، وتدبر خطط الكيد والدسائس أذهانها ...

وعلى الرغم من أن الدعوة الاسلامية قد بدأت مع هذه العدوانية الحاقدة صفحة مشرقة ، فقد وقع قائد الدعوة — صلوات الله وسلامه عليه — مع اليهود معاهدة ود ، أمنهم فيها على حريتهم العقيدية والسياسية والمالية ، الا أن هذه الطغمة الفاسدة ، لم يكن من طبيعتها أن ترعى عهدا ، أو تصون ودا ، أو تحترم ذمة ...

وحسبنا أن يكون من نصوص هذه المعاهدة السياسية : أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. وأن لبقية طوائف اليهود ... ما ليهود بني عوف ... لندرك كم كان الاسلام كريما مع هذه الطغمة الفاسدة الشريرة ، التي قابلت الكرم بالجحود ، والاحسان بالاساءة ، والعهد بالنكوص !!

واذا استقرأت التاريخ واستوعبت دقائق أحداثه ، لم تجد ملمة واحدة ألمت بالدعوة الاسلامية والمسلمين ، الا وهذه العدوانية الحاقدة لها أصابع فيها ، منذ عهد الفتنة التي كان ضحيتها الخليفة الثالث — عثمان بن عفان — ووحدة المسلمين ، حتى نهاية الخلافة الاسلامية في أوائل هذا القرن .. .

كان لأصابع العدوانية الحاقدة دورها الأساسي في اضمحلال الدولة الاسلامية ثم زوالها ، فهي التي حركت الصليبية حتى أجلت الاسلام على الأندلس ، وهي التي ساقت الحروب الصليبية لغزو الديار الاسلامية في المشرق ، وهي التي أشعلت المذابح الوحشية الهندوكية ضد المسلمين في شبه القارة الهندية ، وهي التي أثارت الطائفية المتعصبة لتجري المذابح البشرية في المسلمين — منذ شهور — بالفلبين .

وحتى التراث الفكري الاسلامي،لم يسلم من أصابع هذه العدوانية الحاقدة ، فاستغلت سماحة الدولة العباسية ، حيث فتحت الابواب على مصاريعها لشتى الثقافات من شتى الاجناس ، وأخذت هذه الأصابع تدس الكثير على الأحاديث النبوية ، وتدس الكثير من الآراء على تفاسير القرآن ...

لقد بذل علماء الاسلام جهودا كبرى لتنقية التراث الاسلامي من الشوائب التي أضافتها اليه اصابع العدوانية الحاقدة ، لكن بقي لحساب التاريخ أحط جريمة ارتكبتها ، وهي جريمة ما يزال لها امتدادها على أيدي أحفاد هذه العدوانية الحاقدة من المستشرقين الذين أشربوا لبنها ، حتى أضلهم الله على علم ...

* *

ان الاسلام في بداية لقائه مع اليهود في يثرب ، كان كريما وسمحا الى ذروة الكرم والسماحة . لكن الكرم والسماحة كان فرصة سانحة لهم للكيد للاسلام ودعوته وأتباعه ، ولو أن الاسلام ، الذي يعرف الكثير من طباعهم على ضوء القرآن ــ قد عاملهم منذ أول لحظة بعنف وقسوة ، لكان أدى ذلك الى خنوعهم وخضوعهم ، واخماد جذوة الشر فيهم ... لكن الاسلام الذي جاء يحمل الى البشرية دعوة ومبادىء آثر لأتباعه أن يتحملوا أي أذى في سبيل أن لا يخلوا بمبدأ العدل ، وقد تحمل المسلمون في يثرب الكثير من أذى أولئك الأشرار ، فلما استشرى أذاهم كان من حقهم أن ينتصفوا منهم لأنفسهم .

وكان أن طهرت المنطقة العربية من اليهود ، لكن أحفادهم على مسار الزمن ظلوا يكيدون للاسلام والمسلمين بشتى الوسائل السياسية عن طريق الدس والوقيعة ، وبشتى أساليب الحيلة والخداع ، لأنهم لم يكونوا قوة

يعتد بها ، بل ولم يكن ما فطروا عليه من جبن وشح يؤهلهم لأن يخوضوا مع المسلمين معركة سافرة ، لا سيما وان المسلمين يومئذ كانوا بخير ، يملكون العقيدة والقوة معا ••

وبعد زهاء أربعة عشر قرنا من الزمان •• تتنمر الفئران ، وتتذأب القطاط ، وتستأسد الكلاب ، وتتنسر الصراصير والخفافيش ، وتدخل مع العرب والمسلمين في معركة مواجهة لأول مرة في التاريخ ، وتستطيع ان تنتزع من قلب العروبة والاسلام أرضا ، لتقيم عليها — ولأول مرة أيضا في التاريخ — وطنا قوميا ، وذلك بعد أن أيقنت أن العروبة في معزل عن الاسلام ، وان الاسلام في معزل عن الحياة ، وأن العقيدة في معزل عن القوة ، وأن القوة في معزل عن العقيدة ••

لم يحدث في تاريخ معارك الاسلام التي أحرز فيها نصرا ساحقا ان كانت قوة المسلمين المادية متكافئة مع قوة العدو ، بل كانت قوة المسلمين عددا وعدة تصل أحيانا الى خمس قوة العدو ، وهذا مما يجعل للنصر عظمته وتقديره ، فالمسلمون أساسا كانوا يعتمدون — الى جانب القوة المادية — على قوة معنوية ، هي العقيدة •

هذه القوة المعنوية — قوة العقيدة — هي التي جعلت حمزة — سيد الشهداء — يقود أول سرية في الاسلام من ثلاثين راكبا مسلما ، لملاقاة ثلثمائة راكب من قريش على ساحل البحر الاحمر ، ولم تخرج السرية المسلمة لمجرد استعراض العضلات ، بل كانت جادة لملاقاة العدو الذي تبلغ قواته عشرة اضعاف قواتها • وفعلا اصطفت القوتان للقتال ، لولا أن مشى بين الفريقين « مجدي بن عمر الجهني » حتى انصرفا دون قتال •

وقوة العقيدة هي التي دفعت عبيدة بن الحارث أن يقود سرية من

ستين مجاهدا مسلما ، لملاقاة العدد الذي كان في مئتين من قريش في بطن رابغ ، وكان سعد بن أبي وقاص في هذه الملاقاة أول من رمى في الاسلام بسهم ، نثر كنانته ، وكان فيها عشرون سهما ، ما منها سهم الا ويجرح انسانا أو دابة ، ولم يكن بين الفريقين الا هذا ، لم يسلوا سيفا ، ثم انصرف كل منهما ..

وقوة العقيدة هي التي جعلت عبدالله بن محسن يقود سرية من ثمانية نفر لملاقاة عير لقريش يتجه الى العراق ، كان مع النفر الثمانية أربعة أبعر ، كل اثنين منهم يتعاقبان بعيرا ، فلما أبصرهم القرشيون هابوهم ، وما أن ترامى الفريقان حتى فر اصحاب العير ، وتمكن المجاهدون الثمانية من الاستيلاء على العير وأسروا منهم اثنين : عثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وحكم بن كيسان ... ولم يطلق سراحهما الا بعد ان افتدت قريش كليهما بأربعين أوقية ..

وبالعقيدة ــ الى جانب القوة المتواضعة ــ استولى المسلمون بآلاف معدودة على ممتلكات أكبر دولتين في العالم : الروم والفرس ...

وهزموا جيوش اوروبا الصليبية التي زحفت على الشرق للقضاء على الاسلام ..

وهزموا جحافل التتار التي زحفت من الشرق الاقصى الى الشرق الادنى لتدمر وتنهب ، وتقضي على التراث الحضاري ...

والذي يتدبر كلمات قائد التتار ... « هولاكو » الى قطز ، تأخذه الدهشة :

« ... وقد عرفتم اننا خربنا البلاد ... وقتلنا العباد .. فلكم منا الهرب ... ولنا خلفكم الطلب ... فما لكم من سيوفنا خلاص ...

وخيولنا سوابق ••• وسيوفنا قواطع •• وقلوبنا كالجبال •• وعددنا كالرمال •• » •

أجل : لقد استطاع التتار بقيادة هولاكو — في زمن يسير — أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الاسلامي ، وأن يسقطوا بغداد في أيديهم ، ويقتلوا الخليفة العباسي « المعتصم » ويقتلوا معه في ساعات عشرات الألوف من المسلمين ، وأن يبعثوا الرعب في بقية الاقاليم الاسلامية، التي لم تمتد أيديهم اليها بعد ، وفي مقدمتها مصر • •

وحين شاور قطز الامراء لمس من البعض تكاسلا وتثاقلا ، فصرخ فيهم :

« يا أمراء المسلمين :

لكم زمان تأكلون أموال بيت مال المسلمين •• وأنتم للغزاة كارهون •••

اني متوجه ••• فمن اختار منكم الجهاد يصحبني •• ومن لم يختر ذلك فليرجع الى بيته •• فان الله مطلع عليه •• وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتقاعدين •• !

وكان لكلمات قطز القوية الممتزجة بالايمان دويها في نفوس الأمراء ، فامتلأت بالحمية الاسلامية ، واستعدوا لنزال التتار خارج مصر في الشام ، وكان أول ما بدأ به قطز أن قتل رسل هولاكو وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، ليؤكد العزيمة على قتال التتار •• ومثل هولاكو لا يجدي معهم غير هذا الأسلوب •••

والتقى الفريقان في عين جالوت بفلسطين •• وكان النصر حليف

المسلمين الذين كانوا قلة عددا وعدة بالنسبة لجحافل التتار •• وكان أن قتل المسلمون أكثر من نصف جيش هولاكو ، وهربت البقية الى رؤوس الجبال •• فتبعها جيش المسلمين وأبادها ، وقد وقع « كتبغا » قائد معركة التتار أسيرا حيث قتل صبرا ، واجتزت رأسه ••• وطيف به في البلاد ••• !

ان الموقف الشجاع الذي وقفه قطز كان الدافع اليه العقيدة الراسخة والايمان العميق ، ثم الثقة المطلقة في الله عز وجل ، ولم تسفر موقعة عين جالوت عن مجرد نصر ساحق لجيش المسلمين برغم الفارق الشاسع بينه وبين جحافل التتار ، وكذلك لم تسفر — وحسب — عن تحرير ما كان في قبضة التتار من البلاد الاسلامية ولا سيما الشام ، بل قضت هذه المعركة على الاسطورة التي كانت عالقة بأذهان الناس بالنسبة الى حروب التتار التي لا تعرف الهزيمة •••

لقد كان مجرد ذكر اسم التتار يثير الرعب في النفوس ، ويغرس الفزع في القلوب ، حتى أشار بعض الأمراء على قطز أن يجيب عن رسالة هولاكو اليه ، برسالة رقيقة يخطبون بها وده ويتقون شره ، وليس هناك ما يمنع من الاتفاق معه على جزية يؤدونها اليه كل سنة حتى لا يهجم على بلادهم ، فيهلك الحرث والنسل ، ويدمر ما لديهم من حضارة ، فلا جدوى من التصدي للتتار ، واللين معهم انفع من الشدة •••

لكن عقيدة قطز وايمانه وثقته في الله ، جعلته يرفض مثل هذا التخاذل بعنف ، يرفض أن تنعكس الآية ، ويصبح المسلمون هم الذين يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، ثم نهض الى من قاد من الأمراء حملة التشكيك والتخاذل ، فاختطف منه سيفه وكسره على ركبته ، ثم ألقاه في وجه صاحبه وهو يصيح فيه :

ان السيف الذي يجبن حامله عن القتال به لخليق بأن يكسر هكذا ، ويلقى في وجه صاحبه » •

لقد لحق قطز بربه •• وبقي اسمه في التاريخ •• ولقد بكاه الشيخ المعز بن عبد السلام ، وكان مما قاله فيه :

« رحم الله شباب قطز •• لو عاش طويلا •• لجدد شباب الاسلام•• وما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز من يعدله صلاحا وعدلا •• !!

في رحاب العقيدة

من ثمرات العقيدة

ان العقيدة هي الأساس ما في ذلك شك ، وأي بناء دينيا كان أم سياسيا أم اجتماعيا ... يقوم على غير أساس ، يعتبر بقاؤه أمرا مشكوكا فيه .. مهما طال به الزمن .. وشواهد التاريخ أكثر من أن تحصى ... لذلك حرص الاسلام أول ما حرص على أن يقوم بناء دعوته على عقيدة ، ليس هذا وحسب ، بل ان تنفرد العقيدة بجزء من الزمن يكفي لارسائها ، وصقلها في قلوب أتباعها بالتجارب المريرة . وصهرها في نفوسهم في طاقات كبرى من الاحتمال والتضحية والفداء ..

وهكذا لبثت الدعوة الاسلامية ثلاثة عشر عاما في مكة في وضع الأساس لبنائها ، وتربية جيل من الناس ، يحمل العقيدة في صدوره ، مطمئنة بها قلوبه ، مقتنعة بها عقوله ، محتملة أعصابه أقسى ألوان الارهاب ، مستعذبة أبدانه أعنف ألوان الأذى ، مستعدة نفوسه لبذل الحياة بأسرها من اجل ان تظل العقيدة نابضة بالحياة تؤدي رسالتها الانسانية الكبرى ..

كانت تجربة مريرة استمرت ثلاثة عشر عاما من الارهاب والبطش

والتنكيل ، لم يتخللها حتى فترات موجزة من الهدوء ، أو حتى لحظات قصار من الأمن أو من الأمل في الأمن ، لكن الرعيل الاول منحملة العقيدة استطاع أن يجتاز التجربة المريرة بنجاح ، ليس كأي نجاح ، لأنه من طراز لا مثيل له في تاريخ الدعوات والمبادىء ••

حفنة من المستضعفين العزل من أي سلاح مادي • لا جاه لها على الاطلاق • ومن كان منها ذا جاه فقد تخلى عنه جاهه ، وتخلى هو عن جاهه ، هذه الحفنة من الناس تظل ثلاثة عشر عاما تتحدى سادة البلاد وكبراءها ، هؤلاء الذين يملكون القوة والجاه ويملكون مع القوةوالجاه ، البطش دون ان يحاسبوا ، والتنكيل دون ان يناقشوا •

ومثل هذا التحدي الفريد من نوعه ، أصاب الطغاة الصناديد بلون من « الهستيريا » جعلتهم يتفننون في الأذى ، ويبالغون في البطش، بل ويتجردون احيانا كثيرة عن قيم الرجولة والشهامة والمروءة التي عرفت عن العرب ••• بل أكثر من هذا أن هذه « الهستريا » جعلتهم يهبطون الى مستوى الخسة والنذالة والجبن الذي عرف عن العرب انهم اكثر الناس ترفعا عنه ••

لقد ابتلى المؤمنون واصحاب دعوات الحق قبل الاسلام ، وقد قص القرآن علينا شيئا من ذلك ، سحرة فرعون ، وأصحاب الأخدود وغيرهم ، لكن ما حدث لسحرة فرعون من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، والصلب في جذوع النخل ، وما حدث لأصحاب الأخدود ، من القائهم أحياء في نيران متأججة كانوا يرونها رأي العين أمامهم ، هذا وذاك مما يهون ازاء موقف أبي جهل من سمية أم عمار ، فأبو جهل تأخذه العزة بالاثم لأن امرأة مخلوقا ضعيفا ترفض باباء ان تنزل على ارادته فتتنازل عن

عقيدتها ، وتتخلى عن مبدأها ، برغم تهديده ووعيده ، وبرغم تعذيبه لها المتواصل ، وكان كلما حاول تلقينها كلمة الكفر بمحمد ، ردت عليه بشجاعة : « اخسأ يا عدو الله » فلم يسعه الا ان يطعنها بحربة في يده لتكون أول شهيد في الاسلام ..

وموضع الخسة هنا ليس ــ وحسب ــ اقدام رجل من سادة القوم على تعذيب امرأة مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة حتى الموت ، ومع ذلك فهذا السلوك وحده يكفي لأن يضع على عاتق أبي جهل جبالا من الخسة والنذالة والجبن والعار ، لكن حين يوجه رجل ــ ولو كان من قطاع الطرق ــ حربته الى موضع العفة من جسد المرأة ، ولا ينزعها حتى تلفظ أنفاسها الاخيرة ، فهذا السلوك مما تعجز الألفاظ عن أن تؤدي المدلولات لصفات تليق به، فصفات النذالة والخسة والجبن ، تتواضع أمام سلوك كان أحرى بصاحبه ان يبحث عن رجولته ويطمئن الى وجود بقية منها ..

وليست سمية وحدها ، فهناك كثيرات لم يهتم بهن التاريخ ، ربما كان مرجع اهتمام التاريخ بسمية لأنها أولا في أسرة عذبت بأكملها في الاسلام ، وثانيا لأنها اول شهيد في الاسلام ، وثالثا لأن الطريقة التي قتلت بها لم يشهد التاريخ لها مثيلا ..

ان أبا بكر رضي الله عنه أعتق وحده عددا من الاماء ، ليرحمهن من ألوان التعذيب التي كانت تسلط عليهن من سادة القوم منهن :

« حمامة أم بلال وأم عبيس وزنيرة والنهدية ، وابنتها ، وجارية لبني عدي » والأخيرة كان عمر يعذبها قبل اسلامه ..

* *

كانت المرحلة المكية للدعوة الاسلامية ، على مسار ثلاثة عشر عاما ، مرحلة ارساء للعقيدة في الاذهان والقلوب والوجدان ، ومن ناحية اخرى معركة من أشد المعارك لأنها بين الحق والباطل ، الحق أعزل لا يملك الا سلاح الايمان وهو سلاح معنوي ، والباطل المسلح بكل انواع الاسلحة المادية ، ومن ناحية ثالثة ، كانت هذه المرحلة مرحلة صهر للعقيدة وصقل لها في قلوب أتباعها الذين اجتازوا هذه المرحلة الشاقة المضنية بعد أن ضربوا أروع الأمثلة في البطولة النادرة التي ظلت وستظل تحتل صفحات مشرقة من صفحات التاريخ لا يزاحمها فيها سواها ..

وأعجب ما في هذه البطولة ، أن اليأس لم يستطع أن يحتل مكانا بين جنبات هذا الرعيل الاول من حملة الدعوة الاسلامية ،ولك ان تتصور ان عمر بن الخطاب مثلا كان اسلامه على رأس اربعين سبقوه الى الاسلام، ولم يسلم الا بعد خمسة أعوام ، ومع ذلك فلم يكن لليأس مكان بين جنبات الاربعين وهم يحتملون الاذى أعواما خمسة طوالا ..

وهذا راجع الى أن العقيدة التي قد استقرت في وجدان الرعيل الأول ، أخذت بمجامع قلوبهم ، حتى أصبحت لديهم أعز من وجودهم ، فوجودهم بدونها عدم ، لذلك وضعوا نصب أعينهم استعدادهم للتضحية بكل شيء الا العقيدة .

ان هذا الرعيل الأول أدرك تماما ، ان المحن ضرورة تقتضيها العقيدة ، والعقيدة التي لم تصهر في بوتقة المحنة ، انما هي عقيدة عاجزة عن أن تؤدي دورها كما ينبغي ، وأن أصحاب مثل هذه العقيدة المستكنة ليس من حقهم أن يدعوا الايمان الحق وهم لم يتعرضوا للمحن ، وهذا القرآن الذي هو المنبع الأصيل للعقيدة يصرح بذلك في وضوح لا لبس فيه :

« .. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟

ولقد فتنا الذين من قبلهم... فليعلمن الله الذين صدقوا...وليعلمن الكاذبين .. » .

وهذا قائد الدعوة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يترك فرصة يحس فيها بطلائع اليأس تدنو من نفوس أتباعه ، حتى يؤكد لهم أن المحنة هي الطاقة التي تحفظ على العقيدة جوهرها ، ولك ان تتصور موقفه من آل ياسر ..

كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يمر بآل ياسر وهم يعذبون ، ولم يكن هناك أدنى ريب في أن نفسه الشريفة كانت تنفطر أسى وهو يصغي الى أنينهم ، بل ان أناتهم لتمتزج بأحاسيسه فتحيلها الى نبضات من الألم ، لكنه حين كان يهمس اليهم ، لم يهمس اليهم بكلمات توحي بالأمل في النجاة والنصر ، وانما بكلمات توحي بالثبات على العقيدة حتى الموت :

« صبرا آل ياسر ... فان موعدكم الجنة » .

ولك أن تتأمل طويلا موقفا آخر لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه :

ان أصحابه حين بلغ بهم الأذى مبلغا تجاوز طاقات احتمالهم كبشر ، ذهبوا اليه ، وكان يومئذ جالسا في ظل الكعبة وهو متوسد ببردة ، وتركوا خباب بن الأرث أن يتقدم عنهم اليه التماسا لا شيء فيه ، قال :

« يا رسول الله : ألا تدعو الله لنا ؟ »

هذا رجاء من حقهم ، انهم يعذبون في الله ، وبدافع من الثقة في الله عز وجل ، التمسوا من الرسول ــ أقربهم الى الله ــ أن يدعوه سبحانه لهم ، لكن الرسول ــ صلوات الله عليه ــ أحس من هذا الالتماس بادرة يأس أو بادرة ضعف ، لذلك فزع ، واعتدل قاعدا . وهو محمر وجهه ، وملامح الغضب تحتل أسارير محياه ، ثم قال :

« لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ••• ويوضع المنشار على مفرق رأسه باثنتين ••• ما يصرفه ذلك عن دينه •• وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ••• ما يخاف الا الله ، والذئب على غنمه ••• ولكنكم تستعجلون » •• !!

* *

ان الذين هاجروا الى الحبشة الهجرة الاولى في السنة الخامسة ، لم يكن الدافع الى هذه الهجرة ضعفا أو يأسا ، أو حتى الفرار من التعذيب وألوان الوحشية التي سلطت على أبدانهم ونفوسهم وأعصابهم معا ، بل ان الدافع الأساسي كان الفرار بالعقيدة نفسها الى مكان آمن ، حتى اذا قدر للفئة الصابرة المحتبسة في مكة أن يقضى عليها ، كان للعقيدة متنفس آخر بعيدا عن مكة •• وهذا الذي جعل الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يقول لهم :

« لو خرجتم الى أرض الحبشة • فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد •• وهي أرض صدق •• حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه •••

ولست أدري كيف فات كثير من المؤرخين القدامى هذا المعنى • مع

أن أوائل المهاجرين الى الحبشة ، تلك الهجرة الاولى ، كانوا من أقل المسلمين تعرضا لأذى قريش ، فمنهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو مسلمة ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وعثمان بن مظعون ..

بل ان أبا بكر الذي استطاع أن يشتري المعذبين من الرقيق ويعتقهم لوجه الله ، فكر في الهجرة الى الحبشة ، وعزم على ذلك ، بعد أن أذن الرسول له ، وسار من مكة يوما أو يومين ، لولا أنه لقيه ابن الدغنة أخو بن الحارث ــ وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فحمله على الرجوع في جواره ، وكان مما قاله في دهشة ، مستنكرا :

« والله ، انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم .. » . اذن فالهجرة الى الحبشة كان الدافع الأساسي اليها ، هو الفرار بالعقيدة خشية أن تتعرض للفتنة ، وليس فرارا بالجسد خشية أن يتعرض للابتلاء . والا كان أحق بهذه الهجرة أمثال سلمان ، وصهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب ، وأمثالهم ..

والهجرة الى الحبشة مع ذلك خطة اقتضتها ظروف العقيدة أيضا ، فاذا كان العذاب الذي وقع على أتباع الدعوة خلال السنوات الخمس التي سبقت الهجرة الى الحبشة . تجربة لطاقات أحتمالهم ، فلماذا لا تكون هناك تجربة أخرى من لون جديد ؟ تجربة ليست لاختبار طاقات احتمال أجسادهم لصنوف الأذى ، وانما لاختبار طاقات احتمال مشاعرهم وأحاسيسهم للبعد عن الوطن أو بمعنى أدق لابعادهم عن الوطن ..

قد يسهل على النفس أن يفارق الانسان وطنه عن طواعية واختيار ، لكن ما أشق على النفس أن يكره الانسان على فراق وطنه وهو أحب شيء

لديه ، ولم يكن من الضروري أن يسر كل أتباع الدعوة بهذه التجربة النفسية المريرة ، بل كان يكفي أن يقوم به البعض ليقدم نموذجا مثاليا من التضحية ، يحتذيه الباقون اذا دعت الحاجة ...

ومضت أعوام ثمانية بعد الهجرة الى الحبشة ، واقتضت ظروف العقيدة أن تكون هناك هجرة جماعية شاملة ، واذاكانت الهجرة الى الحبشة بمثابة فرض الكفاية ، فان الهجرة الى يثرب كانت بمثابة الفرض العيني ، انها تجربة جديدة للمشاعر والأحاسيس كان لا بد منها لصقل العقيدة وصهرها ، حتى تستطيع أن تقوم بدورها خير قيام بعد ذلك في مرحلة الانطلاق التي ستبدأ من يثرب ...

واستجاب الجميع لهذه التجربة ، محتذين بالنموذج الذي سبق ، عندما هاجر اخوان لهم من قبل الى أرض الحبشة ، وأصبحت الهجرة في تاريخ الدعوة الاسلامية جزءا لا يتجزأ من العقيدة ، ورمزا على الايمان الذي توجع باليقين ، بل أصبحت الهجرة جزءا يكمل به ايمان المسلم بالنسبة للذين عاصروا الهجرة ، ولنا أن تتأمل هذه الآية :

« ان الذين آمنوا .. وهاجروا .. وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ...

والذين آووا ونصروا ... أولئك بعضهم أولياء بعض ..

والذين آمنوا ولم يهاجروا ... ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ... » .

اذن فالعقيدة المستوفاة هي : ايمان وهجرة وجهاد ..

هذا بالنسبة لأتباع الدعوة بمكة ، أما اتباعها بيثرب ، فالعقيدة المستوفاة بالنسبة لهم : ايواء للمهاجرين ثم نصر للدعوة بالجهاد ..

وهذان الصنفان من المؤمنين أهل للولاية فيما بينهم ، لكن الذين لم يتجاوزوا بايمانهم حدود مكة ، وآثروا البقاء بها لارتباطات أسرية أو اقتصادية ، فليسوا أهلا للولاية كالذين استوفى ايمانهم كل عناصر العقيدة الصحيحة ، ولم يشفع لهم سبقهم الى الاسلام ، ولا تحملهم كل ألوان الابتلاء والأذى في الله عز وجل ..

* *

وكان لهذه العقيدة ثمرات :

- ايمان قائم على اليقين .. وله تبعات ..
- مبادىء مع تطبيقات ..
- نماذج بشرية ضربت أروع الأمثلة في البطولات .

أجل :

ايمان قائم على اليقين لأن اليقين مبعث الثقة في الله عز وجل ،والثقة في الله تجعل المؤمن يتحمل تبعات الايمان ويستعذب في سبيله ما لا طاقة للجبال والرواسخ باحتماله ، فالمؤمن الذي يريد ايمانا بلا تبعات ، فانه لا يحمل الا ايمانا كايمان العجائز .. والذين صقلت المحن والفتن ايمانهم هم أقدر الناس على النصر في كل معركة .. سواء أكانت المعركة بينه وبين نفسه أم كانت بينه وبين عدوه .. والمبادىء التي هي من ثمار العقيدة السليمة القوية هي التي تسجل للعقيدة قيمتها النظرية ، ولا بد من التطبيق

ليكون للعقيدة فعاليتها وآثرها العملي ، ولا يخالج انسان آدنى ريب في أن الاسلام في عصره الذهبي قد يكون أخضع الرقاب بالسيف ، لكنه من المؤكد أنه قد فتح العقول بالعقيدة السليمة ، كما فتح القلوب بالمبادىء المثالية ..

والنماذج البشرية الاسلامية التي ضربت أروع الامثلة في البطولات، انما كانت تحمل في صدورها عقيدة سليمة قوية ، وتحمل في سلوكها أعظم القيم الانسانية ، وأرفع المبادىء الاخلاقية ...

أولا : ايمان قائم على اليقين ..

ان دعوات الرسل جميعا ، كانت تهدف الى غرس الايمان في اطار من اليقين ، لأن دعواتهم ــ صلوات الله عليهم ــ قد صحبتها حركات مقاومة من المتمردين على الايمان ، وكان لا بد لهذه الحركات من أن تواجه ــ على الأقل ــ بايمان قائم على اليقين ، اليقين الذي يؤكد للايمان الثقة في الله عز وجل .. والثقة في الله عز وجل هي التي تمنح النفس المؤمنة أكبر طاقة من الاحتمال والبذل والتضحية ..

وهدي الله ــ سبحانه ، لم يكن ــ ولن يكون ــ هادفا وحسب ، الى ايجاد مؤمنين ، يقف ايمانهم عند حدود التصديق ، وانما الى ايجاد مؤمنين يمتزج ايمانهم باليقين ، اليقين الذي يمنح الايمان طاقة كبرى من القوة ، فيصمد أمام الجبال الشوامخ ، ولا تزلزله أعنف المحن .

ان القرآن الكريم ــ في سورة السجدة ــ أن الله سبحانه ، عندما اختار أئمة هداة من بني اسرائيل ، اختارهم وقد توافر فيهم عنصران أساسيان : طاقة اليقين ، وطاقة الاحتمال :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ... وكانوا بآياتنا يوقنون ... »

فالهداية نفسها قد تجد القلوب التي تنفتح لها ، لكن ما ينتفع منها بهذه الهداية ، ويتجاوب معها •• هي القلوب التي امتزج ايمانها باليقين ، لذلك كانت الهداية في أساسها موجهة الى ذوي الايمان الممتزج باليقين ، ففي سورة الجاثية :

« هذا بصائر للناس •• وهدى •• ورحمة •• لقوم يوقنون » •

وابرهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ لم يكن هناك ادنى شك في ايمانه ، ولكن الله زوده بطاقة كبرى من اليقين ، لأن عصره كان عصر شك ، فهو حين يطلب من ربه أن يريه : كيف يحيي الموتى ، كان يريد اليقين الذي يمنحه طاقة كبرى من القدرة على مواجهة عصره ، لذلك استجاب له ربه ، مع علمه ان ايمان ابرهيم لم يكن مضطربا ، وانما أراد ان يستوعب ايمانه أكبر قسط من اليقين •

يقول ابن كثير في تفسيره :

« انه لما قال ابرهيم لنمرود : ربي الذي يحيي ويميت » • أحب أن يترقى من علم اليقين الى عين اليقين ••• »

معنى هذا أن عصر ابرهيم كان دافعا ابرهيم ـ عليه السلام ـ لأن يطلب منزلة أعلى من اليقين ، وهي منزلة « عين اليقين » وكأن هذا الترقي من مستلزمات مهمته ، ليواجه العقليات المتحجرة أو المتجبرة بيقين يجعله يخرج من كل جولاته معها ظافرا ••

وأما حديث البخاري :

« نحن أحق بالشك من ابرهيم اذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى •• »

فليس معناه اثبات الشك على الخليل ــ عليه السلام ــ وانما فيه نفي الشك عنه ، والمعنى : اذا أنا لم أشك في قدر الله ــ سبحانه ــ فأولى بذلك ــ أي بعدم الشك ــ ابرهيم الذي أراه الله ملكوت السموات والأرض •• وليكون من الموقنين » •

وموسى عليه السلام ، لم يكن كذلك قلق الايمان حين قال لربه : « أرني أنظر اليك » •

وانما أراد التزود بطاقة كبرى من اليقين ، ولم يستجب الله لظاهر طلبه ، لكنه ــ سبحانه ــ حقق له أمنية عن طريق غير مباشر ، وهذا واضح من آيتي سورة الأعراف :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا • وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك اني تبت اليك •• وأنا أول المؤمنين ••

قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي •• وبكلماتي •• فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين •• » •

ألم ير موسى ــ عليه السلام ــ الكثير من آيات ربه من قبل ، لكن مهمة الرسالة الشاقة التي تواجه جبارا في الأرض يزعم الالوهية لنفسه ، بل ويعلن تحديه للاله الذي أرسل موسى ، والتي تواجه أيضا شعبا ألقى القياد لهذا الجبار ، وأسلم له ارادته ، وتنازل عن وجوده ، مهمة رسالة شاقة كهذه ، جعلت موسى عليه السلام يطلب المزيد من اليقين ، وما أن لمس آية الله بنفسه في ذلك الجبل ، استقرت نفسه بما أمده الله من يقين ونطق :

« سبحانك اني تبت اليك ••• وأنا أول المؤمنين » •/

وعيسى عليه السلام كان ثابت الايمان ، ولكن بالرغم من الآيات الخارقة التي أيده الله بها ، الا أنه كان يحس بالحنين الى طاقة من اليقين، فعندما طلب منه الحواريون أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، عارض أول الأمر ، لكن ما لبث أن استسلم لرغبتهم ، بعد ان قال لهم مستنكرا : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، وربما كان الدافع الى الاستسلام لرغبة الحواريين ، قولهم : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين » •

صحيح أن عيسى ــ عليه السلام ــ بدت له رغبة في أن يمنح خاصة أتباعه طاقة من اليقين ، لكن أي مانع من أن يحس هو نفسه بالحاجة الى اليقين أو عين اليقين ، والأكل من المائدة لم يكن لاشباع البطون ، بل لاطمئنان القلوب ، وتلويح الحواريين بأنهم سيعلنون تصديقهم اياه بمجرد نزول المائدة • لا يفهم منه أنهم شاكون في صدقه ، بل ليكونوا متمتعين بطاقة من اليقين تمنحهم قوة المنطق لمواجهة الأعداء المنحرفين ••

واستجاب الله لدعوة عيسى ، ليكون نزول المائدة آخر فرصة لهم :

« اني منزلها عليكم •• فمن يكفر بعد منكم •• فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » •••

والرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ كانت معجزته الكبرى القرآن ، والقرآن الكريم سر اعجازه في أسلوبه ومنطقه ، وهو كاف لأن يزود الرسول بما هو في حاجة اليه من طاقات اليقين ، لذلك لم تكن الدعوة الاسلامية في حاجة ماسة الى الآيات الخوارق مع وجود القرآن ، وحتى

حين ألح المناهضون في تحدي الرسول بطلب الآيات الخوارق ، كان رده بتوجيه من القرآن ، في غاية الايجاز :

« قل سبحانك ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ »

وبأسلوب آخر :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ...

قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين ... »

أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك القرآن يتلى عليهم ؟

وعندما بدا على الرسول حنينه الى الآيات ليتزود هو وأتباعه بطاقة كبرى من اليقين ، رد الله عليه ردا حاسما ، فاليقين الأكمل يجب أن ينبع من أعماق المسلم ، من ايمانه وثقته في ربه ، والدعوة الاسلامية هي خاتمة الدعوات السماوية ، ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو خاتم الانبياء والمرسلين ، وسينقطع الوحي بموته ، فاذا تعلق أتباعه بالآيات الخوارق ـ والوحي ينزل ـ فماذا يكون موقف الأجيال التالية لهم ؟ ماذا يكون موقفهم اذا احتاجوا الى طاقة من اليقين في نضالهم عن طريق الآيات الخوارق ؟

اذن فالقرآن هو الخالد ، يمدهم في أي وقت شاءوا بما هم في حاجة اليه من اليقين ، والقرآن هو الذي تولى الرد الحاسم على رسول الله عندما أبدى حنينه الى الآيات الخوارق ، ليواجه بها تحدي المعارضين :

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا .. وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ... /

ولا مبدل لكلمات الله •• ولقد جاءك من نبأي المرسلين ••

وان كان كبر عليك اعراضهم •• فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض •• أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ••

ولو شاء الله لجمعهم على الهدى •• فلا تكونن من الجاهلين ••!

انما يستجيب الذين يسمعون •• والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه يرجعون ••

وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ••

قل : ان الله قادر على أن ينزل آية •• ولكن أكثرهم لا يعلمون ••»

ان الايمان بدون يقين هو ايمان سلبي ما في ذلك شك ، ولا قيمة بعد ذلك لايمان غير متجاوب مع يقين ، لأنه يفقد الحركة ••• والحركة أخص خصائص الايمان الصادق ••

والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حين قال في الحديث الذي رواه البيهقي عن ابن مسعود : « الايمان هو اليقين كله » انما أوضح في هذه العبارة الموجزة قيمة هذا الايمان الذي هو كل اليقين لا جزء ، ولا أجزاء منه •••

وحاجة الايمان الى اليقين كحاجة الجسد الى روح ، والايمان وحده بدون يقين كالمصباح بدون اضاءة ، أو الآلة بدون حركة ، فاليقين هو الطاقة التي تحرك الايمان ليتجاوب مع العمل ، ولقد عبر لقمان أصدق تعبير عن اليقين حين قال لابنه :

« يا بني لا يستطاع العمل الا باليقين ••
ولا يعمل المرء الا باليقين ••
ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه » •

وليس أمتع ولا أروع من أن يوهب للمؤمن العفو والعافية واليقين لذلك قال ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ في الحديث الذي رواه النسائي:

« سلوا الله العفو والعافية واليقين في الدنيا والآخرة »

وكان من دعائه ــ صلوات الله وسلامه عليه :

« واقسم لنا من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا •• »

ولم يكن يحيى بن معاذ السلفي الصالح المتوفى بنيسابور عام ٢٥٨ هـ ــ يقصد بنور التوحيد في كلامه ــ الا اليقين ، كما ذكر الامام الغزالي في الجزء الاول من الاحياء :

قال يحيى بن معاذ :

« أن للتوحيد نورا وللشرك نارا ••

وان نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين •• »

ولقد تحدث العلامة الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » حديثا ممتعا عن اليقين ، واعتبر : أن أصل المقامات والأحوال المتعلقة بالعقل ، هو اليقين ، ويتشعب من اليقين : التوحيد ، والاخلاص ، والهيبة ، والتوكل ، والشكر ، والأنس •

والأنس تعبير صوفي معناه : حسن الظن ••

اذن ، فاليقين ليس تعبيرا عن توكيد الايمان وحسب ، وانما هو أيضا طاقة محركة له ، متفاعلة معه ، يتوالد منها أصول المعرفة ، والمعرفة أرفع درجة يطمع فيها المؤمن ••

ولذلك حين سأل الرسول حارثة عن حقيقة ايمانه ، وقال :

« عزفت نفسي عن الدنيا •• فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري •• »
قال له الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه :
« عرفت •• فالزم »

* *

ما أحوج المؤمن الى الثقة في الله عز وجل، والمؤمن الموقن هو أقرب المؤمنين الى الله ، لان اليقين يمنح المعرفة ، والمعرفة هي التي تمنح المؤمن أكبر قدر من الثقة في الله •

ان الرعيل الأول من أتباع الدعـوة الاسلاميـة ، أولئـك الذين اجتازوا أقسى امتحان ، وعلى مسار ثلاثة عشر عاما ، كانوا يملكون مع الايمان اليقين ، ويملكون مع اليقين الثقة في الله عز وجل ، لذلك ظلـوا طليعة لها تقديرها في تاريخ الدعوات السماوية التي تعرض أتباعها للامتحان والبلاء •• لأن ايمانهم لم يتخل لحظة عن اليقين ، ويقينهم لم يتخل لحظة واحدة عن الثقة في الله •

والمحن لا تقاس بالكم ، وانما تقاس بطاقات الاحتمـال ، فبنـو اسرائيل مثـلا ظلوا في مصر عشرات السنين يتعرضون لألـوان الأذى ، ولكن لم يبد عليهم أنهم كانوا يملكون قدراً من طاقات الاحتمال الناتجة عن ايمان ممتزج يقين وثقة في الله ، وانما عن استسلام سلبي لم يكونوا يملكون سواه ، لكن بالنسبة لأتباع الدعـوة الاسلاميـة ، فقـد كان احتمالهم لونا من التحدي ، والتشبث بالمبدأ ••

هذا ••• وبالرغـم من أن بني اسرائيل رأوا أكثر من آيـة رأي العين ، حسبنا أن نشير الى الموقف الذي حشر له الناس ضحى بأمر من فرعون الذي جمع السحرة ليتحدى بهم موسى ، واستطاع موسى بآية

من آيات الله أن يكسب الموقف ، فيبوء متحديه بالخذلان ، ليس هــذا وحسب ، بل ان السحرة الذين جاء بهم فرعون لتحدي موسى ، أعلنــوا تخليهم عن سيدهم وانضمامهم الى موسى وايمانهم بربه ، وهم يعلمون ما ينتظرهم من عقاب صارم ••

ايمان في لحظات ••• لكنه ايمان امتزج باليقين ، ويقين امتزج بالثقة في الله ، يقابل هذا الايمان الصادق ايمان بني اسرائيل القلق ، فبالرغم من هذا الموقف ، وبالرغم من أن الله سبحانه شق البحر لموسى ، وجعــل له فيه طريقا يبسا ، وساروا أنفسهم في هذا الطريــق حتى عبــروا بسلام ، وبالرغم من أن بني اسرائيل رأوا أيضا رأي العين فرعون وملأه ينطبــق عليهم البحر ويغرقهم عن آخرهم •• الا أن ايمان بني اسرائيل ظل قلقا••

أبوا دخول الأرض المقدسة لأن فيهــا قوما جبــارين ، وأظهــروا استعدادهم لدخولها اذا ما خرج منها اولئك القــوم الجبارون ، ولما ألح عليهم موسى قالوا : فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنا قاعدون •••

ولسنا هنا في مجال المقارنة بين هؤلاء وبين أتباع الدعوة الاسلامية، الذين لم يروا آية خارقة رأي العين ، قضوا ثلاثة عشر عاما بمكة تحملوا خلالها من العذاب والآلام والارهاب ما تعجــز عن احتماله الجبال ، ولم يكد يستقر بهم القرار بيثرب بعد ثلاث عشرة سنة من الارهاق والانهاك حتى دعوا لخوض معركة مع العدو الذي يتفوق عليهم عددا وعدة ، ومع ذلك فقد كان لسان حال الجميع عندمــا استشارهم الرسول ــ صلوات الله عليه :

« يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنــا

قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ••• » •

وهذا لسان آخر :

« يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ••• فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله ••• » •

ولك أن تتأمل طويلا مثل هذه العبارات من رجل مؤمن يتحدث بلسان الأنصار الذين لم يمض على اسلامهم ألا زهاء ثلاث سنين ، لكنه الايمان الذي امتزج باليقين ، واليقين الذي استقر في الوجدان ، فأيقن الثقة في الله عز وجل •

* *

ان الذي يزعم أن ايمانه ممتزج باليقين ، دون أن يكون واثقا في الله ، زعمه باطل ووهم ، فالبرهان على الايمان واليقين معا ، هو ثقتك المطلقة في ربك ، وعلى هذه الثقة المطلقة معول كبير ••

والله سبحانه حين وجه رسله الى الانسانية منحهم بالطبع — ايمانا ويقينا ، ثم أجرى عليهم التجارب لينمي فيهم الثقة المطلقة فيه ، لكنهم صلوات الله عليهم ، لم يكونوا جميعا على درجة واحدة في الافادة من هذه التجارب ، لأن الثقة المطلقة في الله مرحلة لها وقتها وخطورتها • ومن هنا كان التفاوت في درجات الانبياء •

ومن هنا أيضا كان لأولي العزم من الرسل الدرجة المثلى ، وهؤلاء

استوعبوا من التجارب أكثر من غيرهم ، وبذلوا من الصبر والاحتمال قدرا لا حدود له ، لذلك خاطب الله نبيه محمدا ـ صلوات الله عليه ـ بقوله :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ...

قد يبدو على بعض الرسل ـ حتى أولي العزم منهم ـ ما ينزل بالثقة من درجتها المطلقة . لكن الله سبحانه كان يهيىء لهم من الظروف لاستعادة الثقة الى مكانها اللائق بهم ، أي الثقة المطلقة .

فقول يوسف لمن ظن انه ناج من الفتيين اللذين فسر لهما رؤييهما : اذكرني عند ربك .. أي عند سيدك الملك ، يوحي باهتزاز الثقة المطلقة ، لذلك لبث في السجن بضع سنين ، فترة كافية لتربية النفس . وقد أفاد منها يوسف عليه السلام ، فحين استدعاه الملك من السجن ليفسر له رؤياه ، لم يبد عليه التلهف للقاء الملك ، وهو الذي ـ قبل ذلك ـ التمس من خادم لدى الملك أن يذكره عنده ، مجرد الذكر ، لكن بعد مرحلة التربية ، قال لمن جاء يستدعيه للقاء الملك : أن عد الى الملك أولا ليحقق براءته من التهمة التي وجهت اليه من سيدة قصره ، وهو منها بريء ، ولم يغادر السجن الا بعد أن بلغه ما اعترفت به امرأة العزيز :

« الآن حصحص الحق .. أنا راودته عن نفسي .. وانه لمن الصادقين » .

ويونس عليه السلام . هذا الذي قد ذهب مغاضبا ، لأنه لبث طويلا في قومه ، ولم يستجب له الا القليل ، فأراد الله أن يمر بمرحلة للتربية النفسية ، وأن يكون مكان هذه المرحلة التربوية في بطن الحوت ، وهذا

جزاء وفاق ، فما دام هاربا من أرض الله الواسعة ، فليودع أضيق مكان ، ويرتبط بمصير مجهول في حالك الظلمات ، وأحس بالندم فنادى ربه في هذه الظلمات الحالكة :

« لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » !

فالاحساس بالندم جعله يرجع الى الله سبحانه ، الله الذي قبل توبته ، ولم يودعه بطن الحوت الا ليتوب ، ويستعيد لايمانه اليقين ، ويسترد ليقينه ثقته في الله : « فاستجبنا له •• ونجيناه من الغم •• وكذلك ننجي المؤمنين » •

وابراهيم عليه السلام ، تزف اليه الملائكة البشرى بغلام عليم ، لكنه دهش من هذه البشرى وقد مسه الكبر ، وامرأته عجوز عقيم فزعت نفسها لهذا النبأ المثير ، حتى قالت :

« يا ويلتي » ألد وأنا عجوز ، وهذا بعلي شيخا •• ؟! ان هذا لشيء عجيب !

أما ابراهيم عليه السلام فقال :

« أبشرتموني على ان مسني الكبر • فبم تبشرون ؟

ان ابراهيم من أولي العزم من الرسل • فكيف يتردد في الايمان بقدرة الله عز وجل ، وهو المؤمن الذي استوفى ايمانه اليقين كله ، بعد أن رأى من آيات ربه الكثير ؟

لكن ما أن قالت له الملائكة :

« بشرناك بالحق •• فلا تكن من القانطين •• » •

حتى استرد لايمانه يقينه ، واسترد ليقينه الثقة المطلقة في الله ، كانت

هذه اللحظة الخاطفة كفيلة بتربية رسول من أولي العزم من الرسل ، فقال :

« ومن يقنط من رحمة الله ... الا الضالون .. » .

ان ايمان الرسل — ولا سيما أولو العزم منهم — وما حدث مما يوحي باهتزاز الثقة احيانا : لم يكن موضع جدل في كماله ، لكن ما حدث ، كان للوصول الى أعلى درجات اليقين ، ولتأكيد الثقة المطلقة في الله عز وجل ..

والرسل بشر معرضون للاجتهاد الفكري ، والاجتهاد يؤدي الى السداد أو الى الخطأ في تقدير الأمور ، وما دام الله قد اصطفاهم لهداية البشر ، فلا بد أن يرعاهم . وأن يصقل ايمانهم بالابتلاء ، دون انيتخلى عنهم لحظة واحدة ..

والقرآن الكريم نفسه ، أشار الى ان الرسل قد مرت بهم فترة من اليأس ، لكن الله أدركهم برحمته ، وأمدهم بفيض جديد من اليقينوالثقة فيه .. سبحانه :

« حتى اذا استيأس الرسل ... وظنوا أنهم قد كذبوا .. جاءهم نصرنا .. » .

* *

واذا كان رسل الله المصطفون لهداية البشرية في حاجة الى تأكيد ثقتهم في الله ، الذي يشرف على تربية هذه الثقة وتنميتها حتى تبلغ الكمال ، فقد كان أتباعهم أكثر حاجة الى تنمية هذه الثقة ، فالرسل على اتصال بالوحي ، والأتباع هم القوة التي يعتد بها الرسل بعد الله ، وضعف هذه الثقة فيهم انما يعرقل سير الدعوات لبلوغ غاياتها . .

واذا كان اليقين هو الايمان كله ــ كما يقول صلوات الله وسلامه عليه ــ فان الثقة في الله عز وجل ، هي النتاج للايمان واليقين معا •• واذا كان الايمان واليقين مرتبطين ارتباطا وثيقا بالثقة في الله فان تأكيد هذه الثقة مرتبط ايضا بتجارب الابتلاء والاختبار •

ان الثقة في الله تربطك بالله وحده ، حتى يكون غايتك في كل أعمالك وأقوالك وحركاتك وسكناتك ، حتى خواطر ذهنك ، وهواجس نفسك ، وأن يكون الله لديك أكبر من كل شيء • وأنه لن يقرب أجلك ، أو ينقص رزقك الا هو ، وأنه لن يمسسك نفع أو ضر أو خير أو شر الا بأمره ، وهذه هي المعاني التي أراد رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أن يصبها في ذهن ابن عباس ، وهو بعد غلام ناشيء :

« احفظ الله يحفظك ••

احفظ الله تجده تجاهك ••

اذا سألت فاسأل الله ••

واذا استعنت فاستعن بالله ••

واعلم ان الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك •• وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله لك •• » •

والذي يتعرض للجهاد دون أن يوقن ايقانا كاملا بأن الله وحده يملك النصر كله ، فان عقيدته مضطربة ، وايمانه مهتز ، وثقته في الله واهية :

« من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة •• فليمدد بسبب الى السماء •• ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ » •

* *

ان الثقة في الله ــ عز وجل ــ درجة لا يطمع فيها الذين يملكون مظاهر الايمان ولا يملكون حقيقته ، لأن هذه الثقة تحتاج قبل كل شيء الى معرفة بالله ، والمعرفة تحتاج الى جهاد نفس شاق .

وجهاد النفس ليس أمرا سهلا ، فهو في حاجة الى عزيمة تستوعب كل طاقة من طاقات الصبر والاحتمال ، ان طبيعة النفس تدفعها الى الرغبة الملحة في كل مظاهر الحياة الدنيا ، وجهادها هو مقاومة رغبتها بعدها عن مظاهر الحياة التي قد تؤثر على الايمان نفسه .

والحرص على الحياة ومظاهرها هو رغبة النفس الأساسية ، ومتاع الحياة هي المادة سواء أكانت ثراء أم جاها ، ولا يمكن أن يتوافر في فرد مثل عليا ، أو مبادىء رفيعة ، اذا كانت نفسه حريصة على الحياة الدنيا ومتاعها . .

واذا حاولت التماس الفرق الشاسع بين المؤمن في الماضي البعيد ، والمؤمن في حاضرنا ، فعليك أولا أن تبحث عن مدى صلة كليهما بالحياة ..

مؤمن الماضي امتزج ايمانه باليقين ، فوثق بربه وهانت عليه ملاذ الدنيا ، ودعاه الحق فوقف بجانبه ، ودعاه الباطل أيضا فلم يوله ظهره ، بل لبى نداءه ليقاومه ، وكانت المحاولات المغرية تبذل لشراء ضميره ، أو خلخلة دينه ، ولكن كان مآل هذه المحاولات الفشل الذريع ..

أما مؤمن الحاضر ، فايمانه يتوكأ على عصا ، وثقته بربه أوهى من خيوط العنكبوت ، يتوارى من الحق حتى لا يكلف نفسه مشقة مؤازرته والوقوف الى جانبه .. ويتوارى من الباطل حتى لا يفكر في مقاومته ..

لا تبذل أدنى محاولة لشراء دينه أو المساومة على عقيدته ، أو الاستيلاء على ضميره ، فدينه وعقيدته وضميره ملك لمن يدفع أبخس الأثمان ،

ومنحة لمن يملك السلطة ومنح الجاه ، ولا فرق بين عالم أخذ الله عليه الميثاق ، وبين جاهل غارق الى أذنيه في جهله ..

فالتخلي عن المبادىء والقيم والمثل ليس وقفا على عالم ولا على جاهل ، الا أن مصيبة الدين في العالم أنكى ، حين لا تربطه بربه رابطة ، وحين يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق ، ويخشى سخط المخلوق قبل سخط الخالق ... والدنيا آفة كل شيء ..

وأنا لا أقصد هنا كل مؤمن ولا كل عالم ، وانما أقصد المؤمن والعالم اللذين تنطبق عليهما هذه الكلمات ، ومثلهما موجود في كل زمان ومكان، وبعد العصور الأولى للاسلام .. بالذات ..

واهتمامنا بالعلماء ، لأن العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ــ كما يقول الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ، وهم القدوة للمسلمين. ودنوهم ــ فضلا عن تزلفهم ــ الى أصحاب الجاه ، مما لا يليق بمكانتهم في الاسلام ..

لقد أصبح البعض من العلماء يجد أعز أمنية لديه هي الالتصاق بأبواب من بيدهم الأمر ، ولو أيقن هذا البعض أن الاحتراف بالدين نفسه ، وتسخيره لأهوائهم وشهواتهم ، مما يقربه لأبوابهم ، لتسابقوا ، ولا مانع لديه من أن يجعل الاسلام على ألسنته وأقلامه لينا سهلا يشكله حسب الحاجة بأي شكل ، يجعله يساند الباطل تارة باسم الحق ، ويقاوم الحق تارة أخرى باسم الحق أيضا ..

لكن هذا البعض من العلماء لم يعد يذكر قول الرسول الصادق ــ صلوات الله عليه :

« العلماء أمناء الرسل .. ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا ، فاذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل .. فاحذروهم ..!

هذا البعض من العلماء موجود في البلاد الاسلامية ، وقد أصبح كالشعراء في عصر الأمويين والعباسيين ، غير ان الفرق بين الاثنين ، هو أن شعراء الأمس كانوا يتنافسون في التزلف الى ابواب السلاطين بأشعارهم •• وهذا البعض من العلماء انما يتزلف بدينه ••

وشعراء الأمس كانوا يتكسبون بأشعارهم •• وهذا البعض من العلماء انما يطلب بدينه مجرد الرضا ••

وذوو الجاه فيما مضى كانوا يقدرون الشعراء ويحفلون بهم ولا يغمطون أقدارهم ، أما ذوو الجاه في أيامنا فيحتقرون كل متزلف لأنهم موقنون بأن النفاق حرفة هينة ، لا تخدعهم ، فان بذل لهم المنافقون اليوم ، فسيبذلون لغيرهم في الغد ••

رضي الله عن ابن مسعود ، كان يقول :

•• لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم ••

ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا •• لينالوا من دنياهم •• فهانوا على أهلها ••

سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم ــ يقول :

« من جعل الهموم هما واحدا ، هم آخرته ، كفاه الله هم دنياه •••

ومن تشعبت به هموم أحوال الدنيا •• لم يبال الله في أي أوديتها هلك •• !

ماذا كان عساه أن يقول ابن مسعود رضي الله عنه عن العلماء ، لو امتد به العمر الى ما بعد وفاته بقرن من الزمان ، ولا أقول حتى ايامنا هذه ؟

ليت هذا البعض من العلماء يستقرىء تاريخ سلفه من العلماء ، ليرى بنفسه : أين هو منهم ، وأين هم منه •

يقول النضر بن شميـــل عن استاذه الخليـــل بن أحمد امام النحاة في عصره :

« كان الخليل يقيم في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين •• وأصحابه يتكسبون بعلمه الأموال •• وكان يقول : اني لأغلق علي بابي ، فما يجاوزني همي •• !

ورحم الله الامام الشافعي :

عندما عزم على القدوم الى مصر ، قيل له :

« اذا أردت أن تقيم بمصر ، فلا بد لك من قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به » •

فقال ــ رضي الله عنه :

« من لم تعزه التقوى فلا عز له ، ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز ، وما عندنا قوت ليلة واحدة •• وما بتنا جياعا قط » •

ورحم الله ذلك الصحابي الجليل ، كان لا يغشى أبواب السلاطين ، بل يتعفف حتى عن مجرد السؤال عنهم فضلا عن لقائهم •••

قال له أولاده ذات يوم :

« يأتي هؤلاء ــ أي السلاطين ــ من ليس مثلك في الصحبة والقدم في الاسلام ، فلو أتيتهم ؟

فقال رضي الله عنه :

« يا بني : آتي جيفة قد أحاط بها قوم ؟

والله لئن استطعت •• لا أشاركهم فيها •• » •

قالوا : يا أبانا اذن نهلك هزالا ؟

قال : يا بني ، لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب الي من أن أموت منافقا سمينا !!

ان علماء الدين من السلف ، لم يكن سر عظمتهم في تعففهم عن الدنيا وحسب ــ بل تعففهم أيضا عن الالتصاق بمن بيدهم الأمر ، وابتعادهم عن أبواب السلاطين ، لأن التقرب اليهم يتنافى مع قدر العلم ، ويتنافى مع الثقة في الله عز وجل ، والعالم الذي يوقن بأن الله يملك الضر والنفع، والحياة والموت •• لا يفكر في غير الله سبحانه •

لم يكن في بيت حماد بن سلمة ــ مفتي البصرة الذي توفي عام ١٦٧ هـ ــ الا حصير يجلس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ منها ••

حماد هذا يستدعيه الوالي ، فيكتب اليه :

« انا ادركنا العلماء وهم لا يأتون أحدا ، فان وقعت لك مسألة فأتنا ، وسل ما بدا لك •• وان أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك •• ولا أنصح الا نفسي •• والسلام ؟

وان الانسان ليقف خاشعا اجلالا لعالم كعطاء بن أبي رباح فقيه مكة ، وأحد أجلاء التابعين ، والمتوفي عام ١١٤ هـ ••

هذا العبد الأسود يأتيهالخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وولداه ، وهو قائم يصلي ، فلما انتهى جلسوا اليه ، وأخذوا يسألون عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه اليهم ، ثم قال الخليفة لابنيه بعد انصرافهم :

« يا بني لا تنيا في طلب العلم •• فاني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود •• !

ونست أدري أي قدر من الاجلال يليق بعالم كالعز بن عبد السلام ، الذي كان يقول :

« اني لأقف امام السلطان فأنظر الى الله ثم أنظر الى السلطان فأراه أمامي كالفأرة الصغيرة •• » •

عندما توفي العز بن عبد السلام ، ذهب الظاهر بيبرس حاكم مصر ليشترك في تشييع جنازته ، ولم يكد يقف امام داره ، حتى أخذ يخبط بعصاه على الأرض وهو يقول :

« الآن استقر ملكي » !

عالم واحد يهدد ملك حاكم أسهم في قهر التتار •• !

* *

هذا طرف يسير من شأن علماء السلف ••

والقياس ••• مؤلم ، بل مستفز للأعصاب ••

فليس هناك أدنى ريب في أن ثمرة الايمان واليقين معا هي الثقة المطلقة في الله سبحانه ، والثقة في الله هي أن لا تخاف الا الله ، ولا تعمل الا لله ، وأن تكون الدنيا لديك أهون شيء عندك ، والايمان في حاجة الى هذه القيم ليبلغ الكمال ••

وصدق رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ حيث يقول في الحديث الذي رواه ابن عساكر عن أنس :

« ثلاثة من كن فيه يستكمل ايمانه :

رجل لا يخاف في الله لومة لائم ..

ولا يرائي بشيء من عمله ..

واذا عرض عليه أمران ، أحدهما للدنيا ، والآخر للآخرة ، اختار أمر الآخرة على الدنيا .. » .

ان الذين وقفوا مواقف الحق في ساحات الجور والطغيان ، كانوا على ثقة كبرى بالله عز وجل ، امتزج ايمانهم باليقين فاستعذبوا احتمال كل شيء في سبيل الله والحق ..

والذين يرون الحق يوطأ بنعال الباطل .. والجور يقام على أنقاض العدل ، فيغلقون أعينهم ، ويصمون آذانهم ، ويقول بعضهم لبعض :انج سعد .. فقد هلك سعيد .. هؤلاء ايمانهم من هباء ، ويقينهم ليس الا أضغاث أحلام ، وان صاموا ، وصلوا ، وزكوا ، وحجوا » .

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن .. فلا يخاف ظلما ... ولا هضما .. » .

* *

● تبعات الايمان

ان لفظ الايمان يستهوي كثيرا من البسطاء ، ويحسب كل منهم أن الحصول عليه ، لا يكلفه أكثر من ترداد لفظة بلسانه ، ليكون مؤمنا وكفى ، وما دام مؤمنا بوجود الله ، وباليوم الآخر ، وبالكتب المنزلة وبالرسل وبالملائكة ، وبالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، فقد بلغ كمال الايمان . .

والحق أن هذا وأمثاله ، لا يكادون يفقهون ان الايمان درجة لا

يبلغها كثير من المسلمين ، ولا أقصد الايمان العاجز ، بل الايمان الصحيح المستوفي لكل شرائط الايمان ••

ولنستمع الى حديث الرسول الذي رواه الطبراني :

« الايمان معرفة بالقلب • •

وقول باللسان ••

وعمل بالأركان ••

ليتأكد لدينا قيمة الايمان ••

فقد يستطيع الانسان ان يكون مسلما بلسانه وتأدية العبادات المفروضة ••

لكن المعرفة بالقلب مهمة شاقة مضنية ، فالقلب عليه المدار كله ، وان لم يكن مزودا بالمعرفة الكاملة ، كان قلبا مريضا لا فائدة منه ••

أجل : يسهل على كل انسان ان يكون مسلما ، وليس كذلك اذا أراد ان يكون مؤمنا ، ولذلك حين قالت الاعراب : « آمنا » صحح لهم مفهوم الايمان : قل لم تؤمنوا •• ولكن قولوا : « أسلمنا » ولما يدخل الايمان في قلوبكم •• » •

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ــ صلوات اللهوسلامه عليه ــ أعطى رجلا عطاء ، ولم يعط الآخر ، فقال له : يا رسول الله : تركت فلانا لم تعطه ، وهو مؤمن « فقال الرسول : أو مسلم » فأعاد الرجل عليه ، فأعاد الرسول ••

اذن فالاسلام سهل ميسر ، ولكن الايمان أخص خصائص الاسلام ، فحين سئل ــ صلوات اللـه وسلامه عليه ــ كما في حديث احمد والطبراني :

•• أي الأعمال أفضل ؟ فقال : الاسلام • •

فقيل : أي الاسلام أفضل ؟ فقال : الايمان ••

* *

ان للايمان الصحيح ــ غير العاجز ــ تبعات ثقالا ••

وحسبك أن تعلم أن رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ذكر أن الايمان بضع وسبعون درجة ، أفضلها : لا اله الا الله ••

وأدناها : اماطة الأذى عن الطريق ••

وتوحيد الله التوحيد الخالص ليس بالأمر الهين ، لأن التوحيد الخالص لله عز وجل ، انما يستلزم معرفة ويقينا ، ومراقبة وخشوعا ، ومجاهدة للنفس ، وصراعا مع الدنيا •••

أما اماطة الأذى عن الطريق ــ وان كانت أقل درجات الايمان ــ الا أنها عمل شاق على النفس أيضا ، قلما يلتفت اليه مسلم ، لكن الرسول ــ صلوات الله عليه ــ انما أراد أن يهذب النفس •• نفس المسلم ، ويروضها على الخشوع والتواضع ، ومقاومة شهوة الاستعلاء ، ثم التفاني في دفع الضرر عن الغير •

قد يكون الأذى في الطريق مما تتقزز منه الأنفس ، أو مما تتأذى منه الأعين ، أو مما يتسبب في وقوع الحوادث والكوارث ، وأنت حين تلمس الأذى في الطريق لأول مرة ، ربما استطعت أن تتجنب شره ، لكن قد لا يلمسه سواك فيقع فيه . أو يلحقه منه ضرر وكما أردت السلامة لنفسك، فأجدر بك ــ كمؤمن ــ أن تريدها لغيرك ، فمن أصول الايمان : أن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وأن تكره للناس ما تكره لنفسك ••

أجل : ان الايمان الصحيح تبعات ثقال ، وليس مجرد أماني يتشدق

بها اللسان ، وما أجمل ما صور الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ في هذا الحديث المشهور ــ وان كان للبعض فيه مقال ، الا ان مجمل معناه ، روعة وجمالا وسحرا أخاذا :

« ليس الايمان بالتمني ••

ولكن ما وقر في القلب •• وصدقه العمل ••

وان قوما غرتهم الأماني •• حتى خرجوا من الدنيا •• ولا حسنة لهم ••

وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ••

وكذبوا : لو أحسنوا الظن •• لاحسنوا العمل •• » •

ومرة أخرى نقف وقفة تأمل أمام حديث نبوي آخر رواه الطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك :

فقد سأل الرسول ــ صلوات الله عليه ــ حارثة :

« لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟

قال حارثة :

« عزفت نفسي عن الدنيا •• فأسهرت ليلي •• وأظمأت نهاري •••

وكأني أنظر الى عرش ربي بارزا • •

وكأني أنظر الى أهل الجنة كيف يتزاورون •• والى أهل النار كيف يتعاوون •• » •

فقال له الرسول ــ صلوات الله عليه :

« عرفت •• فالزم •• » •

* *

واذا أنت قد استعرضت كتاب الله وسنة رسوله ، رأيت تبعات الايمان لا يقدر على حملها الا من وهب الله له معرفة ويقينا ، وزوده بكل مقومات الايمان .

في أول سورة الانفال مثلا تقرأ :

« فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » .

.. المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم .. واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا .. وعلى ربهم يتوكلون ..

الذين يقيمون الصلاة .. ومما رزقناهم ينفقون ...

أولئك هم المؤمنون حقا ... » .

في الآية الاولى تجد شروطا ثلاثة ، هي من مستلزمات الايمان :

تقوى الله ، أي اخلاص القلب لله وحده ..

اصلاح ذات البين ، وهو عمل اجتماعي محض ..

طاعة الله ورسوله ، وهو عمل الجوارح . .

وفي الآيتين الثانية والثالثة ، عدد آخر من مستلزمات الايمان وتبعاته ، لا يصل الانسان الى درجة الايمان الحق بدونها :

● يقظة القلب وارتباطه دائما بالله ، فيكون على استعداد دائم للحركة بمجرد ذكر الله ، وهو مزود بطاقة من الوجل والخوف ، حسبه أن يذكر الله ، لتتفاعل هذه الطاقة ، وفرق بين مشاعر ميتة ، ومشاعر تهتز بمجرد ذكر الله خشية وخوفا .

● ثم قابلية الايمان للتنمية اذا تليت على المؤمن آيات الله . اذن فايمانه في ازدياد مطرد ، وليس كل مؤمن مستعدا لتنمية ايمانه كلما سمع آيات الله تتلى عليه ..

● ثم الثقة المطلقة في الله عز وجل .. لأنه لا يعتمد الا عليه ، فهو ــ أي المؤمن ــ على استعداد دائما للتضحية والفدائية والتفاني .

● ثم اقامة الصلاة التي جاءت هنا كشرط للايمان الحق ..
ولماذا ذكرت الصلاة هنا وحدها ؟ لماذا لم تذكر الزكاة والصيام مثلا ؟

الواقع ان الصلاة ذكرت وحدها هنا ، لأنها أساس الصلة بالله ، والمديم عليها في اليوم خمس مرات باتقان واخلاص ، وصفاء نفس ، وشفافية روح ، لا يقصر في غيرها من الاركان .

● ثم الثقة مرة اخرى في رزق الله ، الثقة الاولى مجملة ومطلقة ، والأخيرة فرعية تختص ــ الى جانب الايمان ــ بأن الله هو الرازق وحده ، لن يتخلى عن المنفق أبدا .

وهنا لمسة عظيمة ، فهذا المنفق بجانب ثقته في رزق الله وتعويضه ، معترف بفضل الله سبحانه عليه . ووفي ، حين يشكر المنعم ، على فضله عليه ..

والاخلاص مناط الأمر كله .. وهو أن لا تفعل ، وأن لا تقول ، وأن لا تتحرك ، وأن لا تسكن عن هوى ، بل تكون كل افعالك وأقوالك وحركاتك وسكناتك لا تبتغي بها غير وجه الله وحده ، وفي حديث ابي داود عن أبي امامة :

« ما أحب الله •• وأبغض لله ••
وأعطى لله •• ومنع لله •••
فقد استكمل الايمان ••

وهذه ثلاثة اخرى من مستلزمات الايمان ، بل بدونها يفقد الانسان أروع شيء في الايمان ـ حلاوته ـ قد اشار اليها حديث الشيخين عن أنس :

« ثلاثة من كن فيه •• وجد حلاوة الايمان :
أن يكون الله ورسوله أحب اليه ممن سواهما ••
وأن يحب المرء •• لا يحبه الا لله ••
وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار •• » •

ثانياً ــ مبادىء .. وتطبيقات

ان العقيدة التي أرست الدعوة الاسلامية قواعدهـا في النفوس ، أرست أيضا قواعد الاخلاق والمبادىء والمثل العليا ..

ولقد تولى القرآن الكريم والتوجيه المحمدي صياغة القواعد الاخلاقية صياغة سليمة ليرتبط بها الفرد المسلم والدولة المسلمة على السواء .

يرتبط بها المسلم في سلوكه نحو نفسه ونحو مجتمعه ونحو وطنه ، ونحو الغير بالطبع ، وترتبط الدولة المسلمة بها في السلم والحرب ، تجاه العدو والصديق .. لأنها مبادىء انسانية قبل كل شيء ..

وللانسان ان يقف مبهورا امام عظمة هذه المبادىء الاخلاقية ، التي لم يجد ولن يجود بها تاريخ الانسانية . ولنتدبر معا آية واحدة من كتاب الله عز وجل :

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ...

والذين آووا ونصروا ..

أولئك بعضهم أولياء بعض •••

والذين آمنوا •• ولم يهاجروا •• ما لكم من ولايتهم من شيء •• حتى يهاجروا ••

وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر ••• الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ••

والله بما تعملون بصير ••• » •

أرأيت كيف يرفع الاسلام مبدأ احترام العهود الى هذه الدرجة ؟

فالمؤمنون الذين لم يهاجروا هم مؤمنون ولا شك ، واخوان للمؤمنين المهاجرين ولا ريب كذلك ، ونصرة الجماعة الاسلامية للمؤمنين الذين لم يهاجروا واجبة ، لأنهم اخوان لهم ، لكن الوضع يتغير اذا كان الطرف الآخر بينه وبين الدولة الاسلامية معاهدة ، فان احترام العهد يسمو فوق رابطة الأخوة الدينية ••

ولنتدبر معا مرة ثانية آية من كتاب الله في كلمات معدودات :

••• واما تخافن من قوم خيانة ••• فانبذ اليهم على سواء •••

ان الله لا يحب الخائنين •• !

معنى هذا ان المسلمين اذا استشعروا الخيانة من قوم بينهم وبين المسلمين عهد ، فلا يحق للمسلمين أن يباغتوهم بالحرب قبل ان يعلنوهم بالغاء العهد القائم بينهما ، وبمدة كافية لنشر النبأ على صعيد الدولة الاخرى المعاهدة •

وهذه دقة لا في احترام العهد وحسب ، بل دقة ايضا في تحري العدل ، والوضع يختلف عما اذا كانت الدولة المعاهدة هي التي نقضت

العهد ، وحينئذ لا تكون في حاجة الى اعلان الحرب عليها لأن المفروض فيها أن تتوقعها ــ وهذا ما حدث في فتح مكة ، حيث فاجأهـم الرسول بالغزو باعتبار أن أهل مكة هم الذين نقضوا العهد •

يروي الامام أحمد ان معاوية كان يسير في أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ــ أي مدة عهد ــ فأراد ان يدنو منهم ، فاذا انقضى الأمد غزاهم ، فاذا شيخ على دابة يقول :

« الله أكبر •• الله أكبر •• وفاءا لا غدرا •• ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم قال :

« ومن كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلن عقدة ولا يشدها ، حتى ينقضي أمدها ، أو ينبذ اليهم على سواء » أي فأبلغهم على مهل •••

فبلغ ذلك معاوية ••• فرجع ••

ويروي الامام احمد أيضا :

ان سلمان الفارسي انتهى الى حصن ــ أو مدينة ــ فقال لأصحابه : دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدعوهم •• فقال :

« انما كنت رجلا منكم ، فهداني الله عز وجل للاسلام ••

فان اسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ••

وان أبيتم •• نابذناكم على سواء ••

ان الله لا يحب الخائنين •• » •

ولبث سلمان ، يفعل ذلك بهم ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع ، غدا الناس اليها ففتحوها بعون الله ••

ولا أظننا في حاجة الى التعقيب •••

* *

ان في القرآن الكريم آيات لا حصر لها هي بمثابة قواعد أخلاقية عالية ، في سلوك الدولة الاسلامية تجاه غيرها من الدول ، بل ان بعض هذه القواعد سطر في كلمات من آية ، ذلك أن تقرأ :

« ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا •• اعدلوا هو أقرب للتقوى •• » •

« فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ••

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها •• وتوكل على الله ••

« وان أحد من المشركين استجارك •• فأجره حتى يسمع كلام الله•• ثم أبلغه مأمنه ••

« فان اعتزلوكم •• فلم يقاتلوكم •• وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ••

ولو أننا تتبعنا تاريخ الدعوة الاسلامية في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، وفترات أخرى متباعدة على مسار تاريخ الاسلام ، لتأكد لدينا أن هذه القواعد الأخلاقية ظلت مبادىء لها احترامها في مجال التطبيق العملي •••

لم تكن مجرد ثرثرة على الألسنة يتشدق بها الخطباء والشعراء ، كما لم تكن حبرا على ورق ـ كما يقولون ـ بل لقد كان لها احترامها وقداستها ، ويهمنا في المقام الأول مبادىء السلوك تجاه الغير ، والتي بلغ

فيها الاسلام شأوا كبيرا قبل أن يظهر على الوجود ما يسمى بالقانـون الدولي أو الاعراف الدولية •• ،

والمبادىء الاخلاقية في الاسلام ليست قاصرة على السلوك نحـو الدول ، بل تشمل أيضا الغير ـ أي غير المسلم ـ جماعة كانت أم فردا ، ويعتبر الاسلام في هذا المجال فريدا ، متميزا على سائر الأديان ، وعلى سائر ألوان الفقه السياسي القديم والحديث على السواء •

ان المشركين في غزوة أحد مثلوا أبشع تمثيـل بجثة حمزة سيـد الشهداء ، وعم رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما حزن حزنا حزنه عليه ، حتى اقد قال وهو واقف عليه :

« ما وقفت موقفا أغيظ الي من هذا »

وقال : « لن أصاب بمثلك أبدا » •

والسبب في ذلك أن ما وقع على جسد حمزة من تمثيل تجاوز كـل حدود البشاعة ، ويكفي أن هندا بنت عتبة لم تكتنف بأنها أخرجت كبده فمضغتها ثم لفظتها ، بل حملت معها الى مكة أجزاء من جسده ••

رأى ـ رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ ذلك بنفسه ، ولم يتمالك أن قال :

« لئن أظفرني الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم » ••

لقد استشهد في أحد غير حمزة ، اذن فلماذا حمزة هو الذي أثـار ثائرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ؟

الأنه عمه مثلا ؟ ولا مانع ــ أن تكون للرسول عواطفه الجياشة كبشر ..

لكن الرسول ــ صلوات الله عليه ــ ربما استبد به الغيظ ــ لاول مرة ــ الى هذا الحد، حتى لقد توعد بالانتقام بما يتجاوز حدود العدل..

والواقع أن حمزة قتل كما قتل المسلمون بأحد، لما كان للرسول مثل هذا الموقف ، لكن الهمجية التي عومل بها الشهيد ــ بل سيد الشهداء ــ هي التي أثارت الرسول الى هذا الحد ، فالتمثيل بالانسان بعد أن يكون قد أسلم روحه الى بارئها ، وفقد أدنى قدرة على المقاومة ، عمل لا يليق الا بالجبناء الذين أسقطوا مروءاتهم من الحساب ، وأسقطوا رجولتهم من الضمير ..

فالمعركة الشريفة يجب أن يكون السلوك فيها شريفا يليق بها ، والمعركة هي المعركة ما دامت بين قوتين كل منهما تدافع عن مبدأ ، حتى وان كان احد المبدأين خاويا على عرشه لا يقره عقل ولا منطق .. وما حدث من قريش بالنسبة لحمزة سلبها كل مظاهر الرجولة والشرف ..

لكن مهما يكن ما حدث ، مما يخرج بالنفس عن حدودها ، فان مبدأ العدل المقرر في الاسلام ، يجب أن يحجم النفس عن أن تتجاوز حدوده ، لذلك تصدى القرآن لكلمات الرسول ــ صلوات الله عليه : لئن أظفرني الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم » ونزلت الآيات القرآنية ، ليست ــ وحسب ــ لاقرار مبدأ العدل ، بل للاشادة بمبدأ آخر مثالي ، هو الترفع عن مجاراة الغير في اخلاقياتهم وسلوكهم :

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... هذا هو العدل ..

ولئن صبرتم لهو خير للصابرين •• وهذا هـو المبدأ الاخلاقـي المثالي ••

ثم يعقب القرآن بآيتين تأكيدا لهذا المبدأ الأخلاقي المثالي :

« واصبر وما صبرك الا بالله •• ولا تحزن عليهم •• ولا تك في ضيق مما يمكرون ••• ان الله مع الذين اتقوا •• والذين هم محسنون» •

ولم يسع الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الا أن قـال : بل نصبر ونعفو ••

* *

وهـذا مبـدأ آخـر ، لا أعتقـد أن لـه مثيـلا في أية سياسة غير سياسة الاسلام ، هذا المبدأ يقرر ان الانسان يستطيع ان يعصم دماءه اذا نطق بعبارة : لا اله الا الله محمد رسول الله ••• لأنه بذلك يصبـح مسلما شأنه شأن سائر المسلمين ، حتى ولو قالها بلسانه ، لأن البحث عن النوايا والقلوب من شأن الله وحده ، حتى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن من شأنه تعقب النوايا والقلوب ، فله الظواهـر أما السرائر فلا يتولاها الا الله سبحانه • •

ويتفرع عن هذا المبدأ مبدأ آخر ، هو أن الاسلام يجب ما قبله ، فالمسلم بعد اعلان اسلامه لا يسأل عن أفعاله قبـل الاسلام • ولو بلغت من الشناعة قدرا لا يطاق ، لان الاسلام يعتبر حدا فاصلا بين مرحلتين ، ولا أثر للاولى على الاخرى ••

في صفر من السنة الثامنة الهجرية ، بعث رسول الله ـ صلـوات الله عليه ـ سرية الى بني مرة على رأسها غالب بن عبد الله ، ومعه أسامة بن زيد ، وكتب الله النصر للمسلمين في هذه السرية ، لكن أسامة مر في

اثر رجل من بني مرة يقال له نهيك بن مرداس ، حتى دنا منـــه ، فقـــال الرجل : لا اله الا الله •• فقتله أسامة ثم ندم ، وأقبل على جماعته فقال له غالب « قائد السرية » :

•• بئس ــ والله ــ ما فعلت ! تقتل امرءا يقول : لا اله الا الله !!
وبلغ رسول الله الخبر ، فقال لاسامة :
« قتلته يا اسامة ، وقد قال : لا اله الا الله ؟
فجعل اسامة يقول : انما قالها تعوذا من القتل •• » .
ولم يقبل الرسول دفاع اسامة ، فقال له :
•• أفلا شققت عن قلبه •• فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟؟

وسلك خالد بن الوليد مثل هذا السلوك عندمـــا بعثه الرســـول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ الى بني جذيمة ، في شوال ، بعد فتح مكة في السنة الثامنة الهجرية ، فقد أجرى فيهم القتل بالرغم من اظهار اسلامهم، باجتهاد منه ، فقد ظن خالد ان اظهار اسلامهم ليس الا تعوذا من القتل ، والعجيب ان بعض المسلمين المجاهدين توقف عن القتل غير مقتنع برأي خالد مع انه قائد الجيش ، حتى لقد قال له أبو أسيد الساعدي :

« اتق الله يا خالد ، ما كنا لنقتل قوما مسلمين » !!
قال له خالد : « وما يدريك ؟ »

فأجابه أبو اسيد : تسمع اقرارهم بالاسلام •• وهذه المســـاجد بساحتهم •• !

ولم يرض رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ عن سلـــوك خالد ، فانما بعثه داعيا الى الاسلام ، وما دام القوم قد اعلنوا اسلامهم ، فقد عصموا دماءهم •• ولقد غضب الرسول لقتل ثلاثين من بني جذيمة ، حتى لقد رؤي بياض ابطيه ، وهو رافع يديه ويقول :

اللهم اني أبرأ اليك •• مما صنع خالد •• !

كان يمكن ان تنتهي المسألة بعبارات ودية لاسترضاء بني جذيمة ، لكن المبدأ الذي أقره الاسلام وألح في الحفاظ عليه ، يقف حائلا دون أن تضيع دماء مسلمين هدرا ، لذلك بعث ــ صلوات الله عليه ــ عليا رضي الله عنه بمال الى بني جذيمة ، فودى لهم ما أصاب خالد ، ودفع اليهم ما لهم ، بل لقد ودى لهم عليا كل ما أصاب ، حتى انه ليدفع لهم تعويضا عن « ميلغة الكلب » أي الاناء الذي يلغ فيه الكلب ••

ليس هذا وحسب ، بل ان عليا بقي معه شيء من المال ، فقال لهم :

« هذه البقية من هذا المال لكم عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما اصاب خالد ، مما لا يعلمه •• ولا تعلمونه •• » •

وبلغ الرسول ما صنع علي ، فسر لذلك وقال :

« أصبت •• ما أمرت خالدا بالقتال •• انما أمرته بالدعاء » ••

* *

ان جبهة المنافقين استغلت هذا المبدأ أسوأ استغلال ، فما أيسر على المنافق ان يعلن اسلامه بكلمات معدودة ، ليكيد للاسلام كما يشاء ، تحت هذا الستار ، وكم لقيت الدعوة الاسلامية في المدينة في بداية الدولة الاسلامية الناشئة من هذه الجبهة التي كانت تمثل طابورا خامسا بين صفوف المسلمين •• مما كان يستثير مثل عمر وغيره الى درجة التهديد بل الاصرار على التخلص من كبير هذه الجبهة « عبدالله بن أبي بن أبي سلول » •

لكن المبدأ الاسلامي هو المبدأ ، ولا يجوز التضحية به من أجل شرذمة استغلته أسوأ استغلال ، لذلك كان الرسول ــ صلوات الله عليه ــ

يواجه ثورة الثائرين من اصحابه على سلوك المنافقين ، بشيء من الهدوء يتسم بالمنطق ، حفاظا على المبدأ ..

ان المنافقين بقيادة ابن أبي أظهروا من الشماتة ــ بعد أحد ــ ما يستثير غضبة الحليم ، جعلوا يخذلون عن رسول الله اصحابه . ويأمرونهم بالتفرق عنه .. والحقيقة ان سلوك المنافقين في موقف كان المسلمون فيه مشدودي الاعصاب ، منفعلي النفوس ، لما حدث في معركة أحد ، مثل هذا السلوك من اظهار الشماتة ، كان فرصة تجبر المسلمين على التخلص من هذه الشرذمة الحاقدة . ويكون لهم العذر كل العذر ..

لقد سمع عمر ــ رضي الله عنه ــ مقالات المنافقين في أماكن عدة ، فمشى الى رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من يهود والمنافقين ، لكن الرسول قال اه :

« يا عمر : ان الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ...

ولليهود ذمة .. فلا أقتلهم » ..

قال عمر : فهؤلاء المنافقون ؟

فأجابه ــ صلوات الله وسلامه عليه :

« أليس يظهرون شهادة ان لا أله الا الله ، واني رسول الله ؟

قال عمر : بلى ، يا رسول الله ، وانما يفعلون ذلك تعوذا من السيف ، فقد بان لنا أمرهم ، وابدى الله أضغانهم عند هذه النكبة ..!

لكن الرسول أجابه بما يحافظ على المبدأ الاسلامي العظيم :

« نهيت ... عن قتل من قال : لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله يا ابن الخطاب » .. !

ان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أهدر دماء البعض

من مشركي مكة اثناء فتح مكة ، وهؤلاء لقي الاسلام والمسلمون الكثير من أذاهم وشرهم ، لكن أيا منهم بادر باعلان اسلامه عصم دماءه ، وهو مطمئن كل الاطمئنان ..

حتى هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان ، وموقفها من الاسلام معروف في الاستعداء عليه ، والتحريض على اتباعه ، وحسبها ما فعلته بسيد الشهداء ، حمزة ، من التمثيل به التمثيل الهمجي النذل ..

هند هذه أسلمت ، وذهبت الى رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ في عشر نسوة من قريش لمبايعته ، ورآها عليه السلام وهي متنكرة لاجل صنيعها بحمزة ، فعرفها وقال :

« انك لهند » .

فقالت : أنا هند .. فاعف عما سلف .. !

فبايعهن الرسول وهند معهن ، واستغفر لهن ..

ان ما فعلته هند لا يمكن ان ينسى .. لكن الاسلام فوق الآلام والأحزان ..

ولم يكن رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ليفعل شيئا بالرغم مما حدث من هند ، فقد استطاعت ان تعصم دماءها بكلمات معدودات هي جواز المرور الى الاسلام ، وليس لأحد أن يحاسبها على ماضيها ، لان الاسلام يحجب ما قبله ..

ولم يكن تنكر هند ــ في الحقيقة ــ خوفا على نفسها ، وانما حياء من رسول الله ، ومما فعلته في عمه حمزة سيد الشهداء ...

وهذا وحشي بن حرب قاتل حمزة ..

قيل : ان وحشيا كان عبدا لابنة الحارث بن عامر بن نوفل ، فقالت له ابنة الحارث :

« ان أبي قتل يوم بدر ، فان انت قتلت أحد الثلاثة •• فأنت حر ، ان قتلت محمدا ، أو حمزة ، أو عليا ، فاني لا أرى في القوم كفؤا لأبي غيرهم » •

ولم يكتف وحشي بأن قتل حمزة ، بل شق بطنه وأخرج كبده فجاء بها الى هند بنت عتبة ، فقال لها :

« ماذا لي ان قتلت قاتل ابيك ؟ »

قالت : « سلبي » أي كل ما عليها من ثياب وحلى ••

وحشي هذا أسلم ، كان فر الى الطائف في فتح مكة ، ثم قدم في وفدهم فأسلم ، ولم يكد يراه الرسول حتى قال له : لو استطعت أن تغيب عني وجهك •• » •

ان مشاعر رسول الله لم تكن تطيق رؤية قاتل عمه حمزة ، وما سلكه مع وحشي ليس الا ترجمة عن مشاعره كبشر ، وليس فيه أي مساس بالمبدأ الاسلامي المقرر ، لم يسجل التاريخ ان وحشيا ـ برغم ما قاله له الرسول ـ قد عومل الا كواحد من جماعة المسلمين ••

وقد حدث لعمر بن الخطاب مثل هذا ، فلم يكد يرى قاتل اخيه زيد بن الخطاب ، حتى قال له :

« أغرب عني •• فوالله اني لا أحبك » !

فسأله الرجل :

« أو يمنعني ذلك حقا » ؟

فأجابه عمر : لا ••

فاطمأن الرجل ، وقال :

« اذن ، لا يأسو على الحب •• الا النساء » !!

أجل :

ان من حق عمر كبشر ان لا يحب قاتل أخيه ، لكن ليس من حقه كحاكم أن يكون لهذا الاحساس البشري ادنى تأثير على حقوق هذا المسلم ، والرجل نفسه انما تساءل ـ وهو مطمئن ـ ليزداد اطمئنانا ، الى أن حقه كمسلم لن يتأثر بحب امير المؤمنين ولا ببغضه ، لذلك أرسلها حكمة : اذن •• لا يأسو على الحب •• الا النساء •• !

* *

ان المبادىء التي حملتها الدعوة الاسلامية معها ، تصل احيانا الى حد المثالية الخيالية ، وهي مبادىء لم تؤد دورها وحسب من خلال سلوك المسلمين دولة وأفرادا تجاه غيرهم وحسب ، بل تجاه انفسهم ايضا ، وهو الأصل ••

فاذا لم تكن هذه المبادىء جزءا من عقيدة المسلم يستشعره في أعماقه أولا ، فانها ستكون قاصرة على أن تؤدي دورها تجاه الآخرين ••

فالقيادة مثلا قد تحولت في كل عصور التاريخ الى مجموعة من الامتيازات التي أدت الى ألوان من الحكم الاوتوقراطي ، هذا الحكم الذي أرهق الشعوب ارهاقا لا حدود له ، والتي أدت الى ألوان من الحكم الفردي الاستبدادي ، الذي كان سببا في اشعال حروب أرهقت البشرية ودوختها ••

وتاريخ الأباطرة والأكاسرة وملوك أوروبا حتى الثورة الفرنسية ،

وما بعدها أيضا ، هتلر وموسوليني وغيرهما ، وفي الشرقين الاقصى والادنى عديد من الملوك والزعماء ، تاريخ هؤلاء جميعا يعطينا صورة واضحة على ان القيادات لم تكن الا مجموعة من الامتيازات ، والى سنوات مضت كان الدستور في مصر ينص على : « أن الملك ذات مصونة لا تمس » معنى ذلك أن الملك فوق القانون ••• والى أن انتهت الخلافة الاسلامية ، كان السلطان « ظل الله في أرضه » معنى ذلك أنه فوق القانون •••

والذي يثير الدهشة ـ ونحن في الثلث الاخير من القرن العشرين ، أن قوانين كثير من الدول ، ما تزال تحرص على نظرية ـ اعمال السيادة ـ وهي لون من الامتياز لرئيس الدولة يجعل من بعض سلوكه •• فوق القانون•• فليس للمواطن المضرور من هذا السلوك حق اللجوء الى القانون للاحتماء به • •

أما القيادة في الاسلام ، فانما هي مجموعة من المسؤوليات الجسام والتبعات الثقال ، والحاكم الذي هو على رأس الدولة ، ليس الا فردا عاديا ، لا فرق بينه وبين أي مواطن عادي الا في تحمل العبء الأكبر من تلك المسؤوليات والتبعات ••

والآيات القرآنية العديدة التي كانت حريصة على ابراز الرسول ـ صلوات الله عليه ـ بشرا ، فانما لتؤكد هذا المعنى ، أما الآيات التي انفردت بتوجيه الخطاب اليه خاصة ، فانما لتؤكد تحمله للعبء الأكبر من المسؤوليات والتبعات ••

لنقرأ مثلا قوله تعالى :

« فذكر •• انما أنت مذكر •• لست عليهم بمسيطر ••• »

« وما أنت عليهم بجبار •• فذكر بالقرآن من يخاف وعيد •• » •

ولسنا في حاجة الى تعقيب ، فان شخصية الرسول هنا لا أثر فيها لأي لون من ألوان الديكتاتورية ، ومع أن القرآن ينزل عليه ، الا أن الشورى ظلت طوال فترة الوحي مبدأ مقررا في الاعمال العسكرية وفي كل الاعمال التي تتصل بشؤون المسلمين ، وفي غزوة أحد لم يكن الرسول يميل الى القتال ، لكنه خضع لارادة الاغلبية من أصحابه ..

أجل لم يكن الرسول ــ صلوات الله عليه ــ يرضى أن يتميز على أحد ، أو أن يكون فوق القانون . ففي معركة بدر ، كان يعتقب البعير الواحد ثلاثة رجال أو اربعة ، يركب الواحد ثم يترجل ليركب أخوه ، وكان البعير الخاص برسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يعتقب عليه معه ، مرشد بن أبي مرشد ، وعلي بن أبي طالب ، فقالا له :

« نحن نمشي عنك يا رسول الله » .

فقال ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ :

« ما أنتما بأقوى مني .. ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

وفي هذه المعركة ، وقف ــ صلوات الله عليه ــ يعدل صفوف أصحابه ، ومر بسواد بن غزية فرآه خارجا عن صفه ، فضربه على بطنه قائلا له : « استو » .

فقال سواد : « يا رسول الله أوجعتني .. وقد بعثك الله بالحق والعدل .. فأقدني من نفسك » !

فكشف الرسول عن بطنه وقال لسواد : « استقر » .

فاعتنق سواد رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وقبل بطنه ..

كان سواد ينوي أن يقاتل اليوم الى آخر قطرة من دمه ، وهو مشوق الى القتال في سبيل اعلاء كلمة الله ، فقال للرسول :

« أردت ان يكون هذا آخر العهد بك يا رسول الله » !

وفي معركة بدر أيضا ، قدم من مكة جبير بن مطعم في فداء أسرى قريش ، وكان من ضمن الأسرى ابو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول — صلوات الله عليه — فبعثت في فداء زوجها بقلادة لها كانت لخديجة رضي الله عنها ، مع اخيه عمرو بن الربيع ، فرق لها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ..

لكن لم يكن في استطاعته ان يفعل شيئا ، لأنه لا امتياز له على غيره من المسلمين ، والمساواة مبدأ مقرر في السلوك الاسلامي لا يمكن لأحد ان يمسه حتى ولو كان رسول الله وحاشاه أن يفعل ذلك ..

لقد بدأ التأثر على وجهه واضحا ، ولم يسعه الا أن يتقدم برجاء الى من لهم حق التصرف في فداء الأسرى ، وزينب — رضي الله عنها — وان كانت ابنة رسول الله — صلوات الله عليه — الا انها كانت تعلم أن ليس لأبيها الحق في أن يطلق سراح زوجها الا بفدية ، ولما لم تكن تملك سوى قلادة أمها ولها ذكريات عزيزة لدى أبيها ، فقد بعثت بها ..

وكان رجاء رسول الله يركز على أن ترد القلادة الى صاحبتها فقال :

« ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا اليها متاعها فعلتم ! » .

واستجاب المسلمون ..

وقد حفظ أبو العاص هذا الموقف لرسول الله والمسلمين ، فحين

طلب منه الرسول أن يخلي سبيل ابنته زينب وعده ذلك ••• ثم وفى بوعده ••

* *

لا مانع من أن نعيد الى الأذهان : أن الرئاسة السياسية في شتى العصور ليست الا مجموعة من الامتيازات ، خلقت هذه الامتيازات لونا من الديكتاتورية ، وما تزال تخلق هذا اللون البغيض ، بينما الرئاسة في الاسلام ليست الا مجموعة من المسؤوليات والتبعات ••

وان الانسان ليقف مبهورا أمام اول كلمات قالها أبو بكر الصديق عندما تولى الخلافة ، وهي كلمات لم تكن للتخدير ولا للاستهلاك المحلي، وانما كانت ارساء لمبادىء من صميم الاسلام ، وبمثابة مشاعل على الطريق :

« اني وليت عليكم ولست بخيركم » •••

أبو بكر هذا الخليفة الذي تولى أمور المسلمين ، هو نفسه الذي يصر على أن يودع جيش المسلمين بقيادة أسامة بن زيد ، وهو سائر على قدميه يقود فرس القائد ، وعندما يصر القائد على أن يركب الخليفة أو ينزل هو ، يقول في عظمة العظماء ، وهدوء الوقورين :

« والله لا تنزلن ولا أركبن ••• وماذا علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله » !

وماذا قال عمر رضي الله عنه حين ولي أمور المسلمين ؟

« ان الله ابتلاني بكم وابتلاكم بي » •••

« اذا كنت في منزلة تسعني ••• وتعجز عن الناس ، فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة الناس » •

« اني والله لست بملك فأستعبدكم •• ولكن عبدالله عرض علي الأمانة ، فان أنا أبيتها ورددتها عليكم وأتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا •• سعدت بكم ، وان أنا حملتها ، واستتبعتكم الى بيتي شقيت بكم » ••

عمر هذا ، هو الذي أقسم عام الرمادة : أن لا يذوق سمنا ، ولا لحما ، ولا عسلا ، ولالبنا ••• وعندما أراد بعض الناس صرفه عن قسمه ، رفض قائلا :

« كيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يمسني ما مسهم » ؟

بئس الوالي أنا •• اذا شبعت أنا وجاع الناس •• !!

وعمر هذا ، هو الذي سئل عندما قتل غيلة ، وبدا الخطر يحدق بحياته :

••• ماذا تفعل بقاتلك يا أمير المؤمنين ؟

وبم يجيب عمر ، وهو ليس الا فردا كسائر المسلمين ؟

أيمنح نفسه في اللحظات الاخيرة من حياته امتيازا في القصاص من قاتله ، حتى ولو لم يكن مسلما ؟ بل حتى وان كان اغتياله نتيجة مؤامرة اشترك فيها المجوس واليهود معا ؟

كلا ••• لقد قال في هدوء :

« ان عشت فالأمر لي •• وان مت فضربة بضربة ••• وان عفوتم أقرب للتقوى » !!

ان القلم ليمنحه مثل هذه المبادىء شيئا من الحياء ، فيتوقف عن التعقيب ، لأنها مبادىء جلت عن التعليق والتعقيب ، فقد يكون العدل

والمساواة شيئا ممكنا ، لكن تحري العدالة والمساواة حتى يصلا الى مثل هذه المثالية ، فهو طاقة لا يحتملها سوى العظماء من الرجال ، ويعجز القلم عن أن يوفيه حقه من التقدير ••

ولنقف لحظات مع عمرو بن العاص رضي الله عنه :

ان المجال لا يتسع هنا لتتبع سيرة قائد من أعظم قواد المسلمين الذين تمت على ايديهم أعظم الفتوحات الاسلامية ، وانما نعرض بعض اللقطات السريعة التي تؤكد ان الرئاسة في الاسلام ليست مجموعة من الامتيازات، وانما مجموعة من التبعات والمسؤوليات ، وان الرئيس في الدولة الاسلامية ليس له حق في أن يكون كسائر افراد الشعب عليه ما على الشعب ، وله ما للشعب ••

لقد نظر عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يمشي ، فقال :

« ما ينبغي لأبي عبدالله ان يمشي على الارض الا أميرا » ••

عمرو هذا الفاتح لمصر ، يركب بغلة قد شمط وجهها هرما ، يجتاز بها منازل امراء الصحابة وكبار القواد في الفسطاط ، ويراه أحدهم ، فيقول له :

•• أتركب هذه البغلة أيها الامير ••• وأنت من اقدر الناس على امتطاء أكرم فاخرة بمصر ؟

فيرد عليه عمرو :

•• لا ملل عندي لدابتي ما حملت رجلي •••

ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي ..

ولا لصديقي ما حفظ سري ..

فان الملل من كواذب الاخلاق ..

عمرو هذا الفاتح العظيم يموت بمصر ، فلا يقام له قبر ولا قبة ، وابنه عبدالله رضي الله عنه ، هو الذي يصر على ذلك .. فأبوه الذي رفض أي امتياز في حياته ، جدير به أن لا يكون له ادنى امتياز بعد مماته ...

ان العظماء لا تخلدهم الأبنية مهما شمخ بناؤها ، واستوعبت أرفع ألوان الفن المعماري وغيره ، وانما تخلدهم اعمالهم العظيمة التي ابتغوا بها وجه الله وحده ..

يروي الامام احمد عن عمرو بن العاص قوله :

.. بعث الي النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال :

« خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني »

فأتيته ، فقال :

« اني أريد ان أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك . .وأرغب لك من المال رغبة صالحة » .

فقلت : يا رسول الله : « ما أسلمت من أجل المال .. بل أسلمت رغبة في الاسلام » ..

فطيب الرسول خاطره : نعم المال الصالح للرجل الصالح ...

هل ينقص من قدر عمرو بن العاص أن يهمل مسجده في مصر ، وهو أول مؤسس لها في ظل العدل والرفاهية والحرية والأمن •• ؟

أو ، هل يستطيع التاريخ أن يطمس صفحات مشرقة لقائد عظيم كعمرو بن العاص ، ولحاكم عظيم ملأ أرض مصر عدلا وحرية وحضارة ، لأن مصر تهمل ذكراه ؟

كلا •• وألف كلا •••



ثالثاً ـــ نماذج رفيعة

ان العقيدة الاسلامية قد تخرج في مدرستها الاولى بمكة نماذج من طراز لا مثيل لها في تاريخ البشرية ..

لكن ظل لتعاليم هذه المدرسة الاولى أثرها في تخريج نماذج اخرى على مسار الزمن ، تأثرت بمنهجها ، وكان لها الفضل الأكبر في تكوين أجيال من الشباب ، حملوا لواء الدعوة الاسلامية ، حملوا في صدورهم عقيدتها ، واستوعب سلوكهم مبادئها ، واستقر في أذهانهم مثلها الرفيعة وأخلاقياتها العظيمة ..

ولا تتسع ملايين الصفحات لبعض هذه النماذج البشرية التي ضربت أروع الأمثلة في البطولة والفداء والسلوك ، فضلا عن أن تتسع للجميع..

بل ان مئات الصفحات لاتستوعب جزءا من مقومات نموذج واحد من هذه النماذج ، فضلا عن أن تستوعب كل مقوماتها ..

كم كتب الكاتبون عن مثل عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمر بن عبد العزيز ... وغيرهم ، لكن هل استطاع كل ما كتب عنهم أن يستوعب جميع الجوانب العظيمة فيهم ؟

كلا •• وليس في الاجابة بكلا شيء من المبالغة ••

وفي هذا المجال الضيق لا يمكننا الا التقاط بعض المواقف لعدد محدود من هذه النماذج ، لتكون بمثابة معالم على الطريق ، وليتأكد لنا معنى هو بمثابة الحقيقة الرياضية التي لا تقبل سوى التسليم والاذعان•

هذه الحقيقة ، هي ان الاسلام استطاع في عصره الذهبي الاول ، أيام النبوة والخلافة الراشدة ، وفترات متباعدة بعد ذلك ، أن يشق طريقه الى العالم ، وترسخ أقدامه في الارض ، ويستولي على القلوب والمشاعر والأذهان والوجدانات ، بالعقيدة الصحيحة السليمة ، وبالايمان القوي الصلد ، وبالمبادىء الرفيعة الراشدة ، وبالنماذج البشرية المخلصة ، التي حملت العقيدة والايمان والمبادىء •• •

ولم يصب الاسلام بعد ذلك بالركود والاضمحلال ، الا بعد أن تحللت العقيدة الى أمشاج ، وتحول الايمان ـ بعد ان فقد جوهره ـ الى قشور ، وعقمت الامهات أن يلدن النماذج البطولية • بعد أن أسرفن في أن يقذفن الى الحياة الملايين من الهياكل البشرية كالعرض بلا جوهر ، وكالشكل بلا حقيقة ، وكاللفظ بلا معنى ، وكالقشر بلا لب ، يحمل مظهرها اسم الاسلام ، ولا يحمل جوهرها شيئا من الايمان ، لأنها بلا جوهر على الاطلاق •• !

انها كلمات حزينة يكتبها القلم هنا بمداد من الأسى والألم ، النابعين من قلب يتفطر أذى من حاضر الاسلام والمسلمين ••• ولا يملك الا الأنين ••• وأحيانا لا يملك حتى الأنين ، فقد استطاع الاسلام في أمسه الذهب ببضعة آلاف أن يهزم أكبر دولتين كانتا تسيطران على العالم سيطرة تامة ، وتملكان جيوشا جرارة لا يعرف أولها من آخرها • ومعدات

حربية تنوء بحملها ألوف الجمال والخيل والبغال ، وأموالا يعجز عنهـا الحصر ••• لأنها تفوق الحصر ••

أما اليوم ••• وأقصد باليوم هذا العصر الأخير ، وقد بلغ عدد المسلمين في الأرض بضع مئات من الملايين من البشر ، ويملكون جيوشا لا أول لها ولا آخر ، وقوات ضاربة لا يستهان بها ، ومع ذلك فقد استطاع أقل من مليون من اليهود أن يغتصبوا فلسطين من قلب العروبة ، بجيش لم يكن يبلغ أكثر من آلاف معدودة ، في مواجهة جيوش بضع دول عربية موفرة ••

وقبل مضي عشرين عاما ، استطاع هؤلاء اليهود ان يحتلوا بقيـة فلسطين ، وأجزاءمن ثلاث دول عربية ، في حرب خاطفة ، أطلقوا عليهـا « حرب الايام الستة » وما زالوا مصرين على البقاء فيما احتلوه مـن ارض ••• وبالرغم من نكستهم الاخيرة في معركة العاشر من رمضان ••

أما جانب المرارة في هذه الحقيقة ، فينحصر في أن الالوف المعدودة من المسلمين الاولين كانوا يحملون مع قواتهم المادية قوات معنوية لها خطرها : العقيدة والايمان والمبادىء ، هذه القوات المعنوية التي تجرد منها المسلمون المتأخرون ، فخسروا كل شيء ، بينما تمسك بها المسلمون الأولون فربحوا كل شيء ، لم يربحوا أراض وشعوبا وحسب ، بل أيضا أروع الصفحات المشرقة في التاريخ ••

والطريق الآن واضح لا غموض فيه ••

لا بد من تصحيح أوضاعنا نحن المسلمين •• في كل مكان وزمان ••

وأعتقد أن السيد محمد انور السادات رئيس الجمهورية لم يكـن ليجهل هذا الطريق ، لذلك اعلن بصراحة وطلاقة تصحيح الاوضاع :

أن نبدأ المسيرة في الطريق القويم ..

أن تقوم الدولة على العلم .. والايمان ..

العلم الذي يمثل القوة المادية .. والايمان الـذي يمثل القـوة المعنوية ... ولا ينقصنا الا التطبيق ... الايمان بما نقول .. وما دمنا وضعنا أقدامنا على أول هذا الطريق الصحيح القويم بنية صادقة .. فلا بد من النصر ... النصر الذي نرجو ان يكون قريبـا .. ان شاء الله تعالى .. وقد بدت تباشيره أخيرا والحمد لله ..

* *

لا ريب في أن النماذج البشرية التي صاغتها العقيدةوصقلتها بالايمان واليقين والثقة في الله عز وجل ــ هذه النماذج ، لم تكن وحسب ــ حملة مبادىء ، بل كانت نفسها مبادىء تتحرك أينما سارت وأينما استقرت ، لم تكن ــ وحسب ــ دعاة الى مبادىء بألسنتها دون أن تكون في سلوكها مجردة من هذه المبادىء ، والا لم يكن لها ادنى تأثير في مجتمعها ، وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون ..

لسنا هنا نحاول ان نستوعب عشرات الامثلة من هذه النماذج ، ولا أن نستوعب كل الجوانب المشرقة في كل مثل منها ،وانما نحاول وحسب أن نسلط اضواء على بعض من هذه الجوانب وعلى عدد محدود من هذه النماذج ، لتكون بمثابة معالم على الطريق ..

ان الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه حديث لا ينتهي ولا يمـل سماعه مهما طال ، كلنا سنقف هنا عند جانب من جوانب العظمة في شخصية الصديق .. جانب الثقة في الله .. فلقد اشترى بماله عددا من الرقيق الذين أسلموا . وتحملوا صنوف الأذى من سادتهم ، ويكاد يكون من

المتفق عليه ـ كما في كتب السيرة ـ انه اشترى سبعة ، وأعتقهم ، اثنين من الذكور هما بلال وعامر بن فهيرة ، وخمسا من الاناث هن : أم عميس وزنيرة ، والنهدية وابنتها ، ثم جازية بن مؤمل « هي من بني عدي » كان يعذبها عمر قبل اسلامه ..

ومسألة السخاء بالمال من أجل العقيدة شيء طبيعي ، وطبيعي أيضا ان يختار ابو بكر معظم الرقيق الذين اشتراهم من النساء ، لأن طاقة احتمال المرأة محدودة ، وخشية الفتنة عليها اقرب الى المنطق ..

لكن أباه ... أبا قحافة ينكر على ابنه هذا المسلك :

« يا بني أراك تعتق ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت ما فعلت ، أعتقت رجالا جلداء يمنعونك .. ويقومون دونك » ..!

ويجيب ابو بكر أباه في هدوء :

« يا أبت اني انما أريد ما أريد » ..

فالدافع الى شراء الرقيق وعتقهم هو الاخلاص للعقيدة ليس الا ، فهو يبتغي وجه الله وحده ، والثقة في الله لا يليق معها الاستعانة بقوة الرجال ، فقد أوذي أبو بكر في الله ، واستعذب هذا الأذى ، وما كان لمثله أن يلجأ الا الى الله وحده .. أو يطلب المنعة من سواه سبحانه ..

وتبدو ثقة ابي بكر في الله قوية عندما رجع الى مكة ـ بعد أن عزم على الهجرة الى الحبشة ـ في جوار ابن الدغنة ، الذي لقيه في الطريق ، وما أن علم منه عزمه على الهجرة حتى قال له :

« ولم ؟ والله انك لتزين العشيرة وتعين على النوائب .. وتفعل المعروف .. وتكسب المعدوم .. ارجع فانك في جواري .. » .

حتى اذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة فقال :

« يا معشر قريش •• اني قد أجرت بن أبي قحافة •• فلا يعرض له أحد الا بخير » وكفوا عنه ••

لكن أبا بكر لم يفهم من هذا الجوار اثناءه عن عقيدته أو كفه عن الدعوة الى الله ، فكان يصلي في مسجده ، فاذا قرأ القرآن استبكى ، وجعل الصبيان والنساء والعبيد يقبلون على تلاوته ويتأثرون بما يتلو من قرآن •• ولم تكن قريش بالتي تغفل عن هذا ، فمشى رجال منها الى ابن الدغنة ، فقالوا له :

« يا ابن الدغنة : انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا •• انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة •• ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم •• فأته فمره أن يدخل بيته ••• فليصنع فيه ما يشاء •• !

فقصده ابن الدغنة وقال له :

« يا أبا بكر : اني لم أجرك لتؤذي قومك •• وقد كرهوا مكانك الذي انت به ، وتأذوا بذلك منك •• فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت » ••

وحانت الفرصة امام ابي بكر ليسترد ثقته في الله كاملة ، وما كان لمثله أن يستغني بجوار المخلوق عن جوار الخالق ، فقال لابن الدغنة :

« اني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل » ••
ولم تهدأ نفس الصديق الا بعد أن اعلن ابن الدغنة على الملأ انه قد سحب جواره لأبي بكر ••

وقد تثور هنا مسألة ، فلقائل أن يقول :

•• لكن رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ عند عودته من الطائف التي ردته أسوأ رد ، دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ، بل لقد طلب هذا الجوار من الأخنس بن شريق ، وسهيل بن عمرو ، ورفض الاثنان ، فهل معنى هذا أن ثقة رسول الله في الله كانت أقل من ثقة أبي بكر ؟

هذا سؤال محتمل ، يؤيد مسار الأحداث ، غير ان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ مثل يحتذى ، والجوار في تاريخ العرب عرف معترف به ، ولم يشر الاسلام الى ما يبطل هذا العرف أو يغض منه ، ولو أن الرسول رفض الجوار لكان على أصحابه أن يقتدوا به ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وفي أصحابه من هم في حاجة الى الجوار ليؤمنوا عقيدتهم قبل حياتهم ، ولا مانع من أن يستعين المسلم في ذلك بأية وسيلة الا أن يكون الثمن جزءا من عقيدته ••

وليس طلب الجوار فرضا ، و لاهو منهى عنه ، وعلى كل أن يقيس طلبه أو رفضه على ظروفه وحاجته وطاقة احتماله ••

ونعود الى ثقة أبي بكر في ربه ، فما أن تولى الخلافة حتى عول على تسيير بعث أسامة الى الروم ، هذا البعث الذي كان قد توقف بالنسبة لمرض الرسول ووفاته ، وناقشه الصحابة في ذلك • لكن ثقة الصديق في ربه جعلته يصر على أن يتم بعث أشار به الرسول بل أمر ، ليس هذا وحسب ، بل أصر على ألا يتخلف عن أسامة من بعثه أحد ممن انتدب معه في حياة رسول الله ، ونادى المنادي على لسانه :

« عزمة مني ألا يتخلف عن أسامة من بعثه أحد ممن انتدب معه في حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاني لن أوتي بأحد بطأ عن الخروج الا ألحقته به ماشيا » •

وفي حروب الردة أصر الصديق على حرب المرتدين •• وكان من رأى كبار الصحابة أن يؤثروا التريث في الامر ، حيث كانت أعصاب المسلمين وبخاصة ــ المقاتلون ــ في مسيس الحاجة الى شيء من الهدوء بعد وفاة الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لكن الصديق ــ الذي وقف في ايمان وشجاعة اثر وفاة الرسول يقول : « ألا من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات •• ومن كان يعبد الله •• فان الله حي لا يموت » هذا الصديق رفض مثل هذا التفكير ، لأنه كان ــ من ناحية ــ حريصا على أن يدرأ على الدولة الاسلامية الناشئة الفتنة قبل ان يستفحل خطرها ، ومن ناحية اخرى كان حريصا على أن لا يمنح الجيش الاسلامي شيئا من الاسترخاء قد يصعب عليه التخلص منها بعد ان يكون قد استعذبها ••

وثقة الصديق المطلقة في ربه كانت وراء مثل هذه المواقف الصلدة التي لا تعرف التردد على الاطلاق •

* *

● والنعمان بن مقرن المزني من النماذج التي ترتفع على مستوى الاعجاب ، انه من قبيلة مزينة ، احدى القبائل المباركة في الجاهلية والاسلام ، وبيت بني المقرن من بيوت الايمان ــ كما يقول ابن مسعود رضي الله عنه ، وقد قدم النعمان مع اخوته الستة المدينة يسوق معه كل ما يملكون من اغنام ، لبذلها في سبيل الله •

وقد أبلى بلاء حسنا في حفر الخندق ، وفي الدفاع عنه ، وكان صاحب راية مزينة في فتح مكة ، وكان المجاهدون من مزينة يومئذ ألفا وثلاثة نفر ، يمثلون عشر الجيش الاسلامي كله ، كما كان النعمان رضي الله عنه على ميمنة الجيش الذي أعده الصديق لحرب المرتدين ، وأخوه

عبدالله على ميسرته ، وأخوه سويد على الساقة ، وبعد النصر خلف الصديق النعمان قائدا على حامية ذي القصة ..

وكان النعمان بعد ذلك أحد الطلائع في الجيش الذي قاده سعد بن أبي وقاص لملاقاة رستم ، في فارس ، وكان المتحدث بلسان الوفد الرسمي الذي التقى بكسرى يزدجر ، وكان مما قاله لكسرى حين سأل عن الاسلام :

« انه دين يحسن الحسن كله ، ويقبح القبيح كله .. فان أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه : الجزية ، فاذا أبيتم فالمناجزة ... فاذا أجبتم الى ديننا .. خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه .. على أن تحكموا بأحكامه .. ونرجع عنكم .. وشأنكم وبلادكم .. وان اتقيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم .. والا قاتلناكم » ..

وعندما تم النصر للمسلمين في القادسية ، ولى عمر سعد بن أبي وقاص على كل ما فتحه ، ثم اختار الاخوين المؤمنين النعمان وسويد فولاهما خراج دجلة والفرات .. لكن الأخوين العظيمين أحسا بأنهما لم يخلقا لجباية الضرائب بل للجهاد في سبيل الاسلام ، وكان النعمان قد اتخذ من بلدة تسمى « كسكر » مركزا له ، فكتب الى عمر رضي الله عنه :

« مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تلون له وتعطر .... فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر .. وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين » ...

واستجاب عمر لرغبة النعمان ، فقد بلغه أن كسرى يزدجر يجمع الجموع لاسترداد ما أخذه المسلمون من دولته ، وكان النعمان قائد الجيش الى « نهاوند » وكتب الله لجيشه النصر . وله الشهادة ، وكانت

آخر كلماته ــ وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة ــ لأخيه نعيم الذي تناول الراية منه قبل أن تقع :

« عجل بالبشارة الى أمير المؤمنين » •

وبلغ عمر نبأ استشهاد النعمان بن مقرن فقال : « انا لله وانا اليه راجعون » ثم بكى فنشج •

* *

● ويلي عمر بن عبد العزيز أمور المسلمين ، بعد مرحلة طويلة اختل خلالها أحيانا ميزان العدل الاسلامي ، وتحول الحكم الى ملك عضوض، فكان ــ رحمه الله ــ امتدادا للخلافة الراشدة ، كتب الى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب :

« لقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني ولا ارادة ــ يعلم الله ذلك ــ فاذا ما أتاك كتابي فاكتب الي بسيرة عمر ابن الخطاب في أهل القبلة وأهل العهد •• فاني سائر بسيرته •• ان الله أعانني على ذلك والسلام •• » •

ورد عليه سالم :

« ••• انك لست في زمان عمر ولا في مثل رجال عمر •••

ولا يمنعنك من نزع عامل أن تنزعه أن تقول : « لا أجد من يكفيني مثل عمله » •

فانك اذا كنت تنزع لله •• وتستعمل لله •• أتاك الله أعوانا ••• وأتاك بهم •••

فانما قدر عون الله للعباد على قدر النيات •• فمن تمت نيته •••

تم عون الله له •• ومـــن قصرت نيتـــه •• قصر عـــون الله له •• والله المستعان والسلام » ••

وقال مسلمة بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز في مرضه الذي توفي فيه : « أوصي يا أمير المؤمنين » •

فأجابه عمر : ما لي من مال فأوصي فيه !!

قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار •• فأوصي فيها بما أحببت يا أمير المؤمنين » •

قال عمر : « أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ ان تردهــا من حيــث أخذتها » ••

فتأثر مسلمة وقال :

••جزاك الله عنا خيرا يا أمير المؤمنين •• والله لقد ألنت لنا قلوبا قاسية •• وجعلت لنا ذكرا في الصالحين •• !

وعندما طلب ابن لعمر بن عبد العزيز منه أن يزوجه ، وأن يصدق عنه من بيت المال ، وكان لابنه هذا امرأة ، فغضب عمر وكتب اليه :

•• لعمر الله •• لقد أتاني كتابك تسألني ان أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين •• وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها •••

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة ، رجاه مسلمة بن عبد الملك :

« يا أمير المؤمنين : انك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال •• فلو

أوصيت بهم الي ، والى نظرائي من قومك •• فكفوك مؤونتهم » •• !

قال عمر والانفعال يرتسم على قسمات محياه : « أجلسوني » فلما أجلسوه قال :

« يا مسلمة : أما قولك : اني قد افغرت أفواه ولدي من هذا المال•• فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم •• ولم أكن لأعطيهم شيئا لغيرهم » ••

وأما ما قلت في الوصية فان وصيي فيهم : « الله الذي نزل الكتاب •• وهو يتولى الصالحين » •

وانما ولد عمر بين أحد رجلين :

اما رجل صالح فيغنيه الله ••

واما غير ذلك « فلن اكون أول من أعانه بالمال على معصية الله» ••

وطلب أن يدعى له بنيه ، فلما أتوه ورآهم زقزقت عيناه •• وقال :

« بنفس فتية تركتهم عالة لا شيء لهم ••• » وبكى ، ثم قال :

« يا بني : اني قد تركت لكم خيرا كثيرا » •

لا تمرون بأحد من المسلمين •• وأهل ذمتهم •• الا رأوا لكم حقا ••

يا بني : اني قد مثلت بين الأمرين :

اما أن تستغنوا •• وادخل النار ••

أو تفتقروا الى آخر يوم الأبد •• وأدخل الجنة •••

فأرى أن تفتقروا ، ذلك أحب الي ••

قوموا •• عصمكم الله •• قوموا رزقكم الله •• » ••

* *

● عاش سعيد بن المسيب ــ احد التابعين الاعلام ، وأحد فقهاء المدينة السبعة ــ حياة العالم الذي يحفظ للعلم مكانته ، وحياة المؤمن ، الذي يهون كل شيء امام ايمانه ، وحياة الزاهد الورع ، الذي لا تتجه احساساته ومشاعره الا الى الله وحده ، فالدنيا بكل مظاهرها لديه أهون من التراب الذي تطأه نعلاه ..

بهذا وغيره من القيم الاسلامية والاخلاقية العظيمة ، وفي مقدمتها الايمان الصادق والعقيدة القوية ، والثقة المطلقة في الله عز وجل ، كان سعيد بن المسيب رجلا تحسب له الدولة الاموية في عنفوان شبابها وسلطانها وجاهها .. ألف حساب ..

ان الخليفة الأموي ــ عبد الملك بن مروان ــ أراد ان يعقد البيعة من بعده لابنه الوليد ، ثم من بعده لأخيه سليمان ، لكنه أحس ان عالما كسعيد بن المسيب لا بد ان يقود المعارضة وهو في المدينة ، وعامة المسلمين من خلفه سيذعنون له ، ففكر في أن يخطب ابنة سعيد لولي عهده «الوليد» ظنا منه ان هذه المصاهرة قد ترفع من قدر ابنه لدى الرأي العام الاسلامي من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، قد تثني سعيد بن المسيب عن المعارضة ..

ورفض سعيد هذه الصفقة ، فما كان لعالم فقيه مثله ، أن يقر وضعا كهذا ، أن يكون مصير الدولة الاسلامية الكبرى تبعا لهوى الخليفة مهما كان شأنه ، وقد لحق الخلفاء الراشدون بربهم دون ان يجعل من الخلافة ميراثا لأبنائه من بعده ..

وحاول أمير المدينة ــ هشام بن اسماعيل ــ ان يتلافى الموقف المتأزم بين الخليفة وسعيد ، لكن كل محاولاته باءت بالفشل امام اصرار سعيد على أن لا : مصاهرة .. وألا اقرار بالبيعة ، حتى لقد عرض عليه :

أما أن يجلس في بيته يوم البيعة العامة •• فلا يشترك فيها ••

واما ان يقرأ عليه امير المدينة كتاب أمير المؤمنين بولاية العهد لابنيه ، وأن يسكت سعيد فلا يقول : لا •• ولا يقول : نعم •••

واما أن يغير مجلسه في المسجد •• فيكتفي الامير بأن يرسل اليه من يبحث عنه في مجلسه المعتاد فلا يجده فيه ••

ورفض سعيد كل هذه العروض ، وفي يوم البيعة العامة جلس في مكانه المعتاد •• وأعلن رفضه لهذه البيعة ••

وعوقب ••• بالجلد وغيره •• وتحمل واحتسب ••

لقد كان سعيد يرفض عطاءه السنوي من بيت المال ، ولم يكن يتناوله قط ، وآثر أن يعيش من تجارة له في الزيت ••

كما رفض ذات يوم عطاء من بيت المال بلغ نيفا وثلاثين ألفا ، قائلا :

« لا حاجة لي فيها »•

رحم الله سعيد بن المسيب ، كان بايمانه ــ وحسب ــ تخشاه الدولة وتحسب له ألف حساب ، ورحم الله عبدالله بن عمر ، كان يقول وهو يشير الى سعيد بن المسيب :

« لو رأى هذا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لسره » •

وعلى نهج سعيد بن المسيب سار ــ على مسار تاريخ الاسلام ــ علماء رجال ، لكن على فترات متباعدة ، كان الواحد منهم يزن ملايين العلماء في العصور المتأخرة ، لا الألوف ولا المئات • ورحم الله العز بن عبد السلام ،

فحين توفي ، وقصد السلطان الظاهر بيبرس في القاهرة الى مسكنه ليشترك في تشييع جنازته ضرب بعصاه امام باب داره ، ثم قال :

« الآن •• استقر ملكي » •

ومثل هذه العبارة لا تحتاج الى تعقيب ••

هذه بعض ملامح لبعض النماذج الفريدة ، التي ربتها العقيدة الاسلامية ، على الايمان القوي ، والثقة في الله عز وجل ، والعفة من مظاهر الدنيا ، والوقوف الى جانب الحق مهما كان الثمن ، ومقاومة الباطل مهما كانت المقاومة مرة ••

بهذه النماذج فتح الاسلام مشارق الارض ومغاربها •••

ولم يتأخر الاسلام ويتأخر المسلمون معه ، الا بعد خلو تاريخ الاسلام ودولته من امثال هذه النماذج الفريدة ، وحل محلها نماذج تدعى الاسلام وتترثر بمبادئه ، لكنها في واد •• والاسلام في واد •• وبعد ما بين الواديين ••• بعد السماء والأرض ••

يقول المفكر الاسلامي الجزائري مالك بن نبي في « وجهة العالم الاسلامي » :

والحق أن العالم الاسلامي لم يقو على البقاء ابان تلك الأزمة الاولى في تاريخه وبعدها ، الا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حية قوية ، وكان سر تماسكه رجال من أمثال عقبة بن نافع وعمر بن عبد العزيز والامام مالك •• لا لأن أولهم كان فاتحا كبيرا ، والثاني خليفة عظيما ، والثالث امام مدرسة كبرى في التشريع •• بل لأن فضائل الاسلام الفطرية العظيمة قد تجسدت فيهم بصورة •• أو بأخرى ••

هذا هو « عقبة » وقد وقف في عاصمة الفاطميين المقبلة التي زحف منها جيش المسلمين لفتح افريقية الشمالية ، وقف يودع أبناءه الوداع

الأخير ، ثم صرخ وهو يمتطي صهوة جواده داعيا : « اللهم تقبل عملي .. واجعلني في عبادك الصالحين » ..

وعمر بن عبد العزيز هو الذي ارتأى أن من الظلم أن يتولى أمرا يخص ــ في نظره ــ نسل علي كرم الله وجهه ، فآثر أن يتنازل عنه [1] ..

والامام مالك هو الذي تعرض للجلد في الأماكن العامة لأنه دافع سلطانا باغيا ..

تلكم هي الفضائل : احتقار مجد حان موعده .. ورفض سلطة لا تقوم على حق .. وتحد يجابه به ظالم باغ .. وهي التي حفظت في العالم الاسلامي سر الحياة الذي أودعه فيه القرآن ...

---

(١) رحم الله مالك بن نبي، فأمر الخلافة يخص سائر المسلمين لا نسل علي وحدهم ، ورحم الله عمر بن الخطاب الذي قال : وهو يجود بنفسه : « لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته ... » .

في رحاب القوة

لمحات سريعة

يقول الفيلسوف الفرنسي المعروف « جوستاف لوبون » :

« ما عرف التاريخ حاكما اعدل ولا أرحم من العرب » ••

هذه عبارة قالها كاتب غربي منصف ، من بين ألوف العبارات المتجنية لعشرات من كتاب الغرب دأبوا على النيل من الاسلام وتاريخ المسلمين ، بدافع من الهوى والتعصب الأعميين ••

ولأي قائل ان يقول :

« ان المسلمين فتحوا ما فتحوا من البلاد بقوة السيف » •

لكن الحجة الدامغة تظل قائمة على هذا القائل وأضرابه ، اذ كيف استقر الحكم الاسلامي في معظم البلاد المفتوحة حتى يومنا هذا ؟

لو ان الفتوحات الاسلامية قد تمت بقوة السيف كما يزعمون ، لما كتب للاسلام البقاء الا بضع عشرات من الاعوام ، لأن الشعوب التي تحس بالقهر ، لا تظل مغلوبة على امرها مدى الحياة ، لا بد لها من انتفاضات حتى تتحرر من سيطرة الفاتح القاهر ••

وهكذا شأن الاستعمار الاوروبي ، فقد طال به الأمد في ما استعمر من بلاد ، لكن النتيجة هي انه اضطر الى أن يصفي كل اعماله ازاء انتفاضات

الشعوب ، في كل ارض احتلها عنوة ، ولم يبق له الا رقعات من الأرض لدول استعمارية خافتة ، ما تزال كبرياء الاستعمار القديم تعشش في أدمغة حكامها •• كالبرتغال في أنجولا ••

أما الاسلام فهو في فتوحاته شيء آخر ••

كانت القوة لديه مجرد وسيلة الى غاية نبيلة ، هذه الغاية النبيلة أبعد ما تكون عن اكراه الناس على عقيدته ، وابعد ما تكـــون عن الاحتكار والاستغلال ، لأن المسلمين ـ كما يقول مسيو « سيديو » كانوا يحملون السيف بيد والقرآن بيد اخرى •••

ما معنى هذا ؟

معناه ان السيف لم يكن حرا في أن يسلك ما شاء له ان يسلك ، لأن الى جانبه مبادىء تحكمه ، وتحول دون ان يرتكب اية حماقة تسيء الى سمعة الدعوة الاسلامية ، هذه الدعوة التي ليست الا مبادىء انسانية ، وهدف الاسلام الاساسي هو الدعوة الى هذه المبادىء بالحكمة ، ولا يشهر السيف الا لتأمينها وسلامتها ••

اذن فالسيف لم يكن في اية معركة اسلامية هدفا ، فان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حين ودع أسامة بن زيد قائد الجيش الى مؤتة ، كان اول ما اوصاهم به :

« أوصيكم بتقوى الله •• وبمن معكم من المسلمين خيرا » ••

ثم خصص القائد بهذه الكلمات لتكـــون بمثابة مشاعل له علـــى الطريق :

« واذا لقيت عدوك من المشركين •• فادعهم الى احدى ثلاث ، فأيتهن ما أجابوك اليها » فاقبل منهم وكفف عنهم :

أدعهم الى الدخول في الاسلام •• فان فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم •• ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، فان فعلوا فأخبرهم ان لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، وان دخلوا في الاسلام واختاروا دارهم ، فأخبرهم انهم يكونوا كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله،ولا يكون لهم فيالفيء ولا في الغنيمة شيء الا أنيجاهدوا مع المسلمين •• فان أبوا فادعهم الى اعطاء الجزية •• فان فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم •

فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم •• » •

من هذا التوجيه النبوي ندرك ان القتال ليس الا لأن القوم مصرون على ان يكونوا أعداء لهذه المبادىء ، ومن شأنهم ان يصبحوا خطرا عليها ••

ان هنالك فرقا شاسعا بين الفتوحات الاسلامية التي كانت تهدف الى الاصلاح ، وبين غيرها من الحروب الصليبية وغيرها ، تلك التي كانت لا تنشد الا التدمير واشباع شهوات البغي والسيطرة والاستيلاء ، ويجمل بنا هنا ان نستشهد بمؤرخ غير مسلم ، هو الدكتور ألفرد • ج • بتلر ، في كتابه « فتح العرب لمصر » الذي قام بترجمته المغفور له الاستاذ « محمد فريد أبو حديد » فهذا المؤرخ يذكر في حديثه عن محاولة الفرس لفتح الاسكندرية :

« ان الفرس كانوا في أثناء مدة الحصار يوقعون بما حول المدينة من الريف ، ولا سيما بما فيه من الأديرة ، يشفون بذلك ما في نفوسهم من الغيظ لفشلهم •• وقد جاء في الاخبار ، انه كان بأرباض الاسكندرية نحو ستمائة من الاديرة لها آطام على شكل أبراج الحمام ، وكان الرهبان آمنين

وراء هذه الحصون واثقين بمناعتها ، فلم يلتفتوا الى اتخاذ الحيطة ، واعداد الأمر لسلامتهم ••• ولكن جاءت اليهم كتيبة من الغرب ، حيث كان معسكر الفرس •• وأحاطت بأسوارهم ، وما أسرع ان دكت حصونها الضعيفة الساذجة ، ثم قتل الفرس من فيها من الرجال ، لم يكد يفلت منهم أحد الا النزر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا ، ونهب ما في الأديرة جميعه من مال ومتاع ، وهدمت الكنائس والابنية أو أحرقت وأصبحت خاوية على عروشها •• » •

وهذا المؤرخ الاجنبي نفسه يصف حال المصريين بعد زوال دولة الروم على ايدي المسلمين ، فيقول :

« •• فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف وتطاول •• وآل أمرهم بعد خروجهم منه الى عهد من السلام والاطمئنان ، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا •• واضطهاد أهل الدين •• فأصبحوا وقد فك من قيدهم في أمور الدنيا ، وأرخى عنانهم •• وأما دينهم فقد صاروا فيه الى تنفس حر وأمر طليق •• » •

بل ان أسقفا معاصرا هو حنا النقيوس يشهد بأن عمرا لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب •• بل انه حفظ الكنائس وحماها الى آخر مدة في حياته ••• » •

ويلاحظ ان الاضطهاد الذي وقع على قبط مصر على أيدي الرومانيين الذين هم من أهل ملتهم لم يكن أقل سوءا ولا اهمية من اضطهاد الفرس لهم ، واذا كان مستساغا ــ جدلا ــ للفرس الوثنيين ان ينكلوا بمن هم على غير دينهم ، فمحال ان يكون مستساغا لحكم مسيحي ان ينكل بمسيحيين مختلفين مذهبا ليس الا ، عن المذهب الذي تدين به الدولة الحاكمة ••

ان اوامر هرقل امبراطور الروم كانت صريحة الى حكامه :

« كل من يأبى الطاعة للمجمع ـ مذهب الدولة ـ يجدع أنفه ،وتصلم أذناه •• ويهدم منزله » •• !

ان التاريخ سجل على حكم الرومان مصر على يدي حاكمها الروماني « قيرس » عشر سنوات من الحكم الارهابي الأسود ، يقول ألفرد بتلر في كتابه فتح العرب لمصر عن قيرس هذا :

« عسف في الحكم حتى صار اسمه مفزعا للقبط كريها عندهم مدة عشر سنين •• أمعن فيها ما استطاع في اضطهاد مذهبهم •• حتى استحال بعد ، أن يبقى في القبط ولاء لدولة الروم •• » •

ومن الجدير بالذكر ان قيرس هذا كان اسقف « فاسيس » في بلاد القوقاز ، ثم ولاه هرقل رياسة الدين في الاسكندرية •• فكان ينهب أواني كنائس القبط الثمينة ، لا يرقب فيها الا ولا ذمة ، ويبتكر أخس ألوان التنكيل والبطش والارهاب ويسلطها على المخالفين لمذهب الحكم الروماني •

وأسلوب الحكم الروماني تجاه المخالفين لمذهبه الديني هو أسلوب واحد في كل مكان ، فما حدث في مصر حدث في الشام ، وهذا مطران نسطوري يسجل في كتابه بعد استيلاء المسلمين على دمشق :

« وهؤلاء العرب الذين اعطاهم الله السلطان في أيامنا •• لا يحاربون دين المسيح •• بل هم يدافعون عن ديننا •• ويجلون قسوسنا وقديسينا •• ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا » •

ولا يسمح العدد المعدود من هذه الصفحات بالتعرض للجرائم التي

ارتكبت في حق البشرية والانسانية ، خلال الحروب غير الاسلامية •• ولا سيما الحروب الصليبية التي شنتها اوروبا بتشجيع من باباوات روما للملوك والقواد العسكريين المغامرين ، على ديار الاسلام في الشرق وفي الاندلس ••

ويجمل بنا هنا ان نشير الى سطور من كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » لمؤلفه النمسوي الاصل « ليو بولد فايس » والذي نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ •

يذكر المؤلف : ان الاصطدام العنيف الاول بين اوروبة المتحدة من جانب وبين الاسلام من الجانب الآخر ـ أي الحروب الصليبية ـ يتفق مع بزوغ فجر المدنية الاوروبية ••• وهذه الحروب الصليبية ، هي التي عينت في المقام الاول والمقام الأهم موقف أوروبا من الاسلام لبضعة قرون تتلو ••• وان الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبا من قبل ، ولا اتفق لها من بعد ••• ولقد اتفق في ذلك الحين ـ وللمرة الاولى في التاريخ ـ ان اوروبا ادركت في نفسها وحدة ـ لكنها وحدة في وجه العالم الاسلامي •••

ان الفظائع المروعة التي اقترفها الفرسان الصليبيون الاتقياء ، وان التخريب والانحطاط اللذين خلفوهما في بلاد الاسلام التي اجتاحوها ثم خسروها •• كل هذه هي التي أنبتت البذور السامة لعداوة طويلة الامد ، ولصلات متحرجة بين الشرق والغرب •• ان الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شيء شرا ثقافيا ، لقد نشأ تسميم العقل الاوروبي عما شوهه قادة اوروبا من تعاليم الاسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب ••

ان حمية الحروب الصليبية كان لها ذيولها في أماكن كثيرة من اوروبا ،

فشجع ذلك نصارى الاندلس على الحرب لانقاذ بلادهم من « نير الوثنيين » وأما تدمير اسبانيا المسلمة « الاندلس » فقد اقتضى قرونا حتى تم ، ولما تطاول أمد هذا القتال على وجه الحصر ، أخذ الشعور ضد الاسلام في اوروبا ينشب جذوره ثم يثبت •• ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الاسلامي في اسبانيا بعد اضطهاد بالغ في الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط ، وان كانت اصداء الفرح قد تجاوبت في أوروبة على أثر ذلك، مع العلم بأن النتائج التي تلت ، كانت القضاء على العلوم والثقافة ، والتبدل بها جهل العصور الوسطى وخشونتها •• » •

وينقل الينا المرحوم الاستاذ محيي الدين الخطيب في كتابه : مع الرعيل الاول شهادات على ألسنة مفكري الغرب أنفسهم :

يقول مسيو هنري دي شامبون مدير مجلة « ريفو بار لمنتير الفرنسية » :

« لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا ، لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولا كابدت المذابح الاهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي » •

ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت اسبانيا من وصمة محاكم التفتيش •• ولولا ذلك ، لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ••

نحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا : في العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل ، وحسبها انها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون ••

ويقول مسيو كلود فارير في المقدمة التي كتبها للترجمة الفرنسية من رواية « العباسة أخت الرشيد » لجورجي زيدان :

« اصيبت الانسانية والعالم الغربي عام ٧٣٢ م بكارثة عظمى لـــم تصب بمثلها في القرون الوسطى ، وبقي أثرها ظاهرا في العالم مدة سبعة قرون أو ثمانية ــ ان لم يكن اكثر من ذلـــك ــ لأن روح التجـــدد كانت يومئذ قد بدت للعيان ، حتى وقعت تلك الكارثة ، فكان من نتائجها تأخر سير الحضارة ورجوع العالم الى الوراء ، هذه الكارثة هي الانتصـــار المؤلم الذي احرزه وحوش « الهاركا » من جيوش الافرنـــج التي كـــان يقودها شارل مارتل ، محاربا بها كتائب العرب والبربر » ..

* *

معنى القوة .. في الاسلام

لا جدال في أن القوة في الاسلام تفقد قيمتها اذا لم تكن مرتبطة بالعقيدة — او بمعنى أدق — اذ لم تكن مرتبطة بالجهاد من اجل العقيدة..

معنى هذا ان القتال في الاسلام لا يمكن اقراره بأي حال من الاحوال — اذا لم يكن هدفه مبدأ من المبادىء السامية التي تؤدي في النهاية الى اعلاء كلمة الله وتأمين دعوة الاسلام ضد أعدائها المتربصين بها ...

وسبق أن قلنا : ان القتال في الاسلام ليس غاية ، وانما هو وسيلة الى غاية من أنبل الغايات ، واذا قدر له أن يصبح غاية ، فان الاسلام لا يعترف به ، فاذا تحققت الغاية النبيلة — وهي اعلاء كلمة الله — سلميا كان خيرا ، وهذه الكلمات من كتاب الله لا تحتاج الى تفسير :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم » .

وما أكثر ما كان يوصي الرسول أتباعه بقوله :
« لا تتمنوا لقاء العدو » ..
فانكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ..
ولكن قولوا : اللهم أكفناهم .. وأكفف بأسهم عنا .. !

ولو كان القتال هدفا من اهداف الاسلام ، لما كان ذلك الموقف الانساني العظيم من رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يوم فتح مكة ، فهو لم يصفح وحسب عن أهل مكة ، بل لقد صفح حتى عن الذين كبدوا الدعوة الاسلامية وأتباعها كثيرا من المتاعب والآلام ويجب أن نضع في الحسبان ان الصفح عن أهل مكة سابق على اسلامهم ، والا لما كان للصفح معنى بعد اسلامهم اذ أن الاسلام يجب ما قبله ، وليس في استطاعة الرسول أن يجانب مبدءا اسلاميا مقررا •

ولا يجمل بنا ان نضع الرسول الانسان في ميزان المقارنة مع حاكم كهرقل الروم ، لكننا نذكر للتاريخ أن محمدا ــ صلوات الله عليه ــ يوم فتح مكة وهو في قمة النصر ، كان من اكرم الناس مع ألد أعدائه ، أما هرقل فعندما تم له النصر على دولة الفرس ، بدأ بأن حرق قصر كسرى فلم يبق منه شيء وذهب طعمة للحريق كل ما به من التحف والكنوز التي لم يستطع نقلها ••

وكان هرقل قد كتب عهدا بالأمان لليهود ، لكن عندما اخذ الشعب والقسوس كلاهما يتسابق اليه بالوشاية باليهود وايغار صدره منهم ، عاد فنقض عهده ونكل بهم ، والتاريخ لا ينكر ان اليهود قد أعانوا الفرس ، واشتركوا معهم في تدمير الكنائس والفتك بالمسيحيين ، الا أن العهد هو العهد ، وصحيح ان هرقل كان مترددا في الغدر باليهود ، لكن بعض القساوسة زين له ان يضرب صفحا عن هذا العهد ، قال له :

« ان هرقل انما أعطى العهد قبل أن يعلم بحقيقة ما كان من اليهود وانه ما كان ليحفظ عهدا مع قوم خدعوه عنه ، وكان أن وقعت في اليهود مقتلة تشبه أن تكون عامة ، كما جاء في مؤلف ألفرد بتلر السابق ذكره ، بل جاء في المقريزي : أن اليهود قتلوا ، حتى لم يبق منهم أحد في دولة الروم ومصر والشام ، الا من هرب أو اختفى » ••

ولسنا بحاجة الى القول بالتحدي اذا كان قد حدث في تاريخ الاسلام في عصر النبوة وفي عهد الخلافة الراشدة ومن سار من الخلفاء المسلمين من بعدهم على هدى القرآن والسنة •• اذا كان قد حدث مرة واحدة أن نقض المسلمون عهدا ، حتى مع ألد أعدائهم •• فضلا عن أصدقائهم ••

واذا كان الامبراطور المنتصر قد فعل ما فعل مع أعدائه التقليديين ، سواء أكانوا من الفرس أم من اليهود • فماذا كان جزاء قبط مصر الذين آزروه على الفرس ؟

لقد كان جزاؤهم ــ جزاء سنمار ــ كما يقولون ، ولى عليهم « قيرس » طوال عشرة اعوام ذاقوا خلالها أنكى الويلات ، بسبب اصرار « قيرس » على اكراههم على أن يتخلوا عن مذهبهم الديني الى مذهب الدولة الرومانية ••

وبينما يعلن الاسلام مبدأه واضحا في الأخوة الانسانية الشاملة :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا •• » ••• كما يعلن مبدأه واضحا أيضا في الاخوة الدينية الخاصة :

« انما المؤمنون اخوة » •

نرى أرقى الحضارات قبل الاسلام ، وفي مقدمتها الحضارات الاغريقية والرومانية لا تقيم وزنا لا للاخوة الانسانية ، ولا للاخوةالدينية ، ولا حتى للاخوة الوطنية •••

* *

واذا كان مما لا جدال فيه ان الهدف الاول والاساسي من الجهاد في الاسلام ، انما هو نشر الدعوة الاسلامية لاعلاء كلمة الله ، فمما لا جدال فيه أيضا انه ليس من أهداف الفتوحات الاسلامية الاستعلاء على الشعوب المغلوبة او اذلالها ، حتى لقد قال الفقهاء :

« لو أن أمير بلد عاهد المسلمين على أن يدفع لهم الجزية ويسالمهم ويعاونهم على عدوهم ، بشرط أن يتركوا له التجبر على رعيته واذلالهم •• فانه لا يحل للمسلمين معاهدته على ذلك » ••

وذلك ـ كما يقول المرحوم د • محمود فياض في بحثه عن الفقه السياسي عند المسلمين » ـ لأن الاسلام لا يبغي من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكا ولا استعمارا ، ولا يتخذها وسيلة للتنكيل بالطوائف والشعوب واذلالهم •• بل يحرم كل معاهدة تهدف الى شيء من هذا الطغيان » •••

كذلك مما لا جدال فيه ان الاسلام لا يقبل ان تكون القوة لدى المسلمين مبعث غرور ولا دافعا الى البطر ، وما دامت القوة وسيلة الى غاية نبيلة ، فيجب ان تكون الوسيلة نبيلة ايضا في سلوكها ؛ معنى هذا ان الاسلام يرفض نظرية ـ ميكافيللي ـ السياسي الايطالي ؛ في السياسة : « الغاية تبرر الوسيلة » •

ان الغرور يدعو الى البطر ، والبطر يدعو الى الاستهانة ، والاستهانة توهن الصلة بالله ، واذا وهنت الصلة بالله ، كانت القوة في معزل عن العقيدة ، وكانت العقيدة في معزل عن القوة ؛ لذلك حث القرآن على ذكر الله وقت لقاء العدو لكي يحول ذكر الله دون الغرور ودون البطر :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا •• واذكروا الله كثيرا •• لعلكم تفلحون » •

ثم تلا هذه الآية ـ بعد التوصية بطاعة الله ورسوله ، وبعدم التنازع المدفوع بالهوى حتى لا يحيق بهم الفشل ـ قوله تعالى :

« ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما تعملون محيط •••

واذا زين لهم الشيطان أعمالهم •• وقال لا غالب لكم اليوم من الناس •• واني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه » ••

ولقد تلقى المسلمون درسا عمليا في معركة حنين •••

كانت معركة حنين بعد فتح مكة بأيام معدودة ، وربما كان النصر المظفر في فتح مكة ، قد اصاب البعض من المسلمين بلمسات من الزهو ، كما أصاب البعض أيضا لمسات من الغرور ، والجيش الاسلامي يتألف من اثني عشر ألفا ، وهذا وذاك مما دفع رجلا من بني بكر الى أن يقول :

« لو لقينا بني شيبان ما بالينا •• ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة » !

لذلك نزل قوله تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم•• فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت •• ثم وليتم مدبرين » ••

* *

وقد يطيب لبعض المؤرخين ـ من غير المسلمين ـ ولا سيما المستشرقون والمتعصبون ان يعتبروا الغنائم ـ ان لم يكن الهدف الاول للفتوحات الاسلامية ، فلا أقل من ان يكون من الاهداف الرئيسية ـ وهؤلاء جميعا لا يدركون معنى العقيدة ، ولا يفقهون طبيعة الدعوة الاسلامية ، ويجهلون ان الهدف الرئيسي ليس الا اعلاء كلمة الله ، وأن الجندي المسلم لم يكن يبتغي بجهاده الا الشهادة في سبيل نصرة العقيدة••

في أول معركة ـ معركة بدر ـ وقع في يد المسلمين سبعون أسيرا من المشركين ، وشاور الرسول أصحابه في أمرهم ، كان عمر يرى أن تضرب رقاب الأسرى حتى لا يعودوا الى مكة فتقوى بهم شوكة الكفر ، وكان أبو بكر يرى : اما ان يمن عليهم أو يفادوا ، لعل الله يهديهم الى الاسلام مستقبلا فتقوى بهم شوكة الاسلام ، ورأى البعض أخذ الفدية للاستعانة بها •••

وأخذ الرسول برأي ابي بكر ، وعلى الرغم من ان السلوك تجاه هؤلاء الاسرى كان انسانيا ، فصار كل اسير يفتدي نفسه على قدر طاقته من المال ، بل منهم من منّ الرسول عليه لأنه لا مال له ، فاذا كان يحسن الكتابة فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان - غلمان الانصار - مقابل أن يخلي سبيله ، بالرغم من هذا السلوك الانساني ، الا ان القرآن عتب على النبي ، لا لأن الاسلام كان في حاجة الى دماء هؤلاء الاسرى ، بل حتى لا تكون المادة مستقبلا موضوع تفكير المجاهدين فضلا عن ان تكون لديهم أحد اهداف الجهاد ، الذي يجب ان يكون الدافع الأساسي اليه هو اعلاء كلمة الله ، وأن يكون هدف المجاهد الأساسي أيضا هو النصر للحق أو الشهادة في سبيله ، لذلك قالت الآية : « .. تريدون عرض الدنيا ... والله يريد الآخرة » .

وحتى يوضح القرآن ان الحرص على المادة - كهدف من أهداف الجهاد - مما يفسد الجهاد نفسه قال :

« ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

ثم جاءت الآية التالية تزيل لبسا ربما يجيش بنفوس المجاهدين ، فيرون التعفف عن الغنائم . فالقرآن يريد ان يحول دون أن تكون المادة رغبة تحتل مشاعرهم ، لا أن يتعففوا عنها اذا أصبحت حقا لهم :

« فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا .. واتقوا الله .. ان الله غفور رحيم » .

أجل فالغنائم عرف من أعراف الحروب على مسار التاريخ ، والاسلام لم يأت بدعا من الامور ، بل ان الاسلام سما بهذه الغنائم فوق أن تكون رغبة مقصودة لذاتها أو أن تكون ثمرة منتظرة أو أملا مرجوا يشغل أذهان المجاهدين المؤمنين ، فالذي يشغلهم - وحسب - اعلاء كلمة الله حتى تكون الكلمة العليا في الارض ..

ان عقبة بن نافع رضي الله عنه وهو بأقصى المغرب ، علم ان الروم استغاثوا بالبربر لمواجهة جيش المسلمين ، فقام خطيبا في الناس ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، قال :

« أيها الناس : ان اشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم ، وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ...

وأنتم اليوم في دار غربة ... وانما بايعتم رب العالمين ... وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد الا طلبا لرضاه واعزازا لدينه .. فأبشروا .. فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل ان شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة على بركة الله وعونه .. والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين .. » .

وكان طبيعيا أن ينتصر جيش المسلمين ، لأنه قاتل عن عقيدة ، وليس رغبة في عرض الدنيا الزائل ، لكن الحاقدين على الاسلام من كل صنف يطيب لهم ان يشوهوا الصورة المشرفة للجهاد الاسلامي ، وأن يجعلوا من الغنائم هدفا أساسيا للقتال ، سعى اليه العرب الذين لم يعرفوا من قبل غير حياة الجفاف ..

ولم يكن لهؤلاء الحاقدين ليفقهوا ان الدعوة الاسلامية انما هي دعوة الى مبادىء ومثل ، ولو قدر لها ان تشق طريقها دون تصد لها أو مقاومة لما شهرت سيفا ، ولكن أنى لدعوة أن تسير في طريقها آمنة دون ان يتصدى لها ، ولا سيما اذا كانت الدعوة تحاول ارساء قواعد العدل والحق والخير في عالم مليء بالجور والباطل والشر ؟

أجل ، لم يكن لهؤلاء الحاقدين ان يفقهوا انالغنائم لا تحتل أي

مكان في أذهان المجاهدين المسلمين ، والعجيب ان هؤلاء جلهم — ان لم يكن كلهم — من أهل الكتاب ، الذين طالما أوصى الاسلام بهم على لسان القرآن والرسول — صلوات الله عليه — ولعل من الجدير بنا ان نتأمل طويلا كلمات الرسول التي أوصى بها معاذا وهو في طريقه الى اليمن ليعلم من أسلم شرائع الاسلام ، قال صلوات الله عليه لمعاذ :

« انك ستأتي قوما أهل كتاب •• فاذا جئتهم فادعهم الى ان يشهدوا ألا لا اله الا الله ••• وأن محمدا رسول الله ، فان اطاعوا بذلك فأخبرهم ان الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ••• فان أطاعوا بذلك •• فاياك وكرائم اموالهم •• واتق دعوة المظلوم ••• فانها ليس بينها وبين الله حجاب •• !

ويجدر بنا ايضا ان نتأمل كلمات المفكر النمسوي الاصل الذي اعتنق الاسلام ، انه « ليوبولد فاس » قال في مؤلفه : المسلمون في مفترق الطرق بصدد الحديث عن الفتوحات الاسلامية ، مؤكدا ان هذه النوع من الفتوحات :

•• لم يحث عليه حب السيطرة •• وليس فيه شيء من الانانية الاقتصادية أو القومية ، ولا شيء آخر من الطمع في أن تزيد اسباب رفاهيتنا الخاصة على حساب شعب آخر ••

ولم يقصد منه في يوم من الايام اكراه غير المؤمنين على الدخول في الاسلام ، لقد قصد به دائما ما يقصد به اليوم من بناء اطار عالمي لأحسن ما يمكن من التطور الروحي للانسان » ••

* *

العقيدة .. هي الاساس في الجهاد

مما لا يحتمل الجدل أن الجهاد بلا عقيدة هو أشبه بغرس الشوك في الصحراء ، والجهاد في الاسلام هدفه الأساسي نشر العقيدة والدفاع عنها ، فاذا تخلى المجاهد عن عقيدته اصبح كالمحرك بلا وقود ..

كذلك العقيدة ، فالجهاد من حتمياتها التي لا غنى لها عنه ، ولا يعد المسلم مؤمنا كامل الايمان الا اذا قامت حياته على دعامتين : العقيدة والجهاد في سبيل هذه العقيدة ، يؤثرهما على كل شيء ، ولنتأمل قول الله تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها .. أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله .. فتربصوا حتى يأتي الله بأمره.. والله لا يهدي القوم الفاسقين » ..

أجل ، ان العقيدة تفرض على المسلم ان تهون الحياة كلها أمام الجهاد في سبيل الله لنصرة العقيدة ، لأنه في جهاده يجب أن يبتغي أحد هدفين كلاهما خير ، اما الشهادة واما النصر ، ولا ثالث معهما ، ولعل في تقديم الشهادة على النصر ــ في الآية الكريمة الآتية ــ ما يوحي للمسلم بأن لا يشغل ذهنه الا الشهادة في سبيل الله ، ربما لو كان المسيطر على ذهنه

فكرة النصر شاب اخلاصه للعقيدة التفكير في الدنيا •• في الغنيمة ، والمفروض في المسلم ــ وهو يجاهد أن يتجرد نهائيا من كل ما يمت الى الدنيا بصلة :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة •• ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل •• أو يغلب •• فسوف نؤتيه أجرا عظيما » ••

والذين أبدوا شيئا من التثاقل في احدى الغزوات من المسلمين ، لأن نفوسهم كانت عالقة بالدنيا ، فالقرآن يكشف عن نفسيتهم وبهم حنين الى الأرض ، ثم يؤكد لهم ان مثلهم لا يصلح للجهاد ما دامت الحياة الدنيا عالقة بأذهانهم ؛ لذلك هدد بأن يستبدل قوما غيرهم ، ثم لا يعزه شيء :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ••

أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل •••

الا تنفردوا يعذبكم عذابا أليما •• ويستبدل قوما غيركم ••• ولا تعزوه شيئا » ••

لقد تخلف ثلاثة من المسلمين عن غزوة تبوك التي كانت اختبارا لايمان المؤمنين ، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الثلاثة تخلفوا من غير شك ولا نفاق الا ان ما وقع عليهم من عقاب كان صارما قاسيا ••• لقد أمر الرسول ــ صلوات الله عليه ــ أن لا يكلمهم أحد من المسلمين ، فاعتزلهم الجميع ، وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم أنفسهم ، وقد لبثوا على ذلك خمسين ليلة ، ولما مضت اربعون يوما بعث اليهم الرسول يأمرهم بأن يعتزلوا نساءهم ، فقال كعب لامرأته :

« الحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض » .

وبكى هلال بن أمية وامتنع من الطعام ، وواصل اليومين والثلاثة ما يذوق طعاما ، الا أن يشرب الشربة من الماء أو الضيح من اللبن — الحليب أو الرائب يصب عليه الماء حتى يرق — ويصلي الليل ولم يخرج من بيته لأن أحدا لا يكلمه ، حتى ان الوالدين يهجرونه لطاعة رسول الله — صلوات الله عليه — ..

وجاءت امرأته فقالت :

« يا رسول الله ! ان هلال بن امية شيخ كبير ضائع لا خادم له، وأنا أرفق به من غيري ، فان رأيت ان تدعني أخدمه فعلت ؟

فقال لها رسول الله : نعم ، ولكن لا تدعيه يصل اليك » ..

فقالت : يا رسول الله ما به من حركة الي . والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا ، وان لحيته لتقطر دموعا الليل والنهار ، ولقد ظهر البياض على عينيه حتى تخوفت ان يذهب بصره ..

لا يسع الانسان هنا الا ان ينحني خشوعا واجلالا لمثل سلوك المسلمين الذين يستشعرون الندم لتقصير منهم ، وسلوك غيرهم تجاههم في التزام أوامر الرسول ونواهيه ، وما اجمل القرآن حين صور نفسية المقصرين :

« حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ... وضاقت عليهم أنفسهم .. وظنوا ان لا ملجأ لهم من الله الا اليه .. ثم تاب عليهم ليتوبوا » ...

أجل ، تاب الله عليهم لأنهم صدقوا الله الندم والتوبة ، ولقد كانت فرحة المسلمين لنزول القرآن معلنا قبول الله توبتهم ، لا تقل عن فرحة هؤلاء الثلاثة ، حتى لقد خرج ابو بكر في الصباح المبكر فأوفى على سلع — جبل بسوق المدينة — فصاح :

« قد تاب الله على كعب بن مالك » •

وعندما أتى كعبا حمزة بن عمرو يبشره ، نزع ثوبيه وكساهما اياه ولا يملك غيرهما ، واستعار ثوبين من أبي قتادة فلبسهما ، وانطلق الى الرسول والمسلمون يهنئونه •• وأتى أبو الاعور سعيد بن زيد هلالا يبشره ، فسجد ، ولقيه المسلمون يهنئونه فما استطاع المشي ، لما ناله من الضعف والحزن والبكاء ، حتى ركب حمارا ••

وحين لقي كعب رسول الله قال له ووجهه يبرق من السرور :

« أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » ••

قال كعب : أمن عندك يا رسول الله أو من عند الله ؟

فأجاب الرسول : من عند الله •• وتلا عليهم الآيات ••

وكان كعب جعل من توبته ان ينخلع من كل ماله صدقة ، لكن الرسول أمره ان يمسك عليه بعض ماله فهو خير له •

* *

العقيدة . . والروح المعنوية

اذا كانت العقيدة هي جوهر الجهاد ، فان العقيدة ايضا هي الطاقة التي تمد الروح المعنوية بالقوة ، ولا جدال في أن النضال هو أكثر حاجة الى الروح المعنوية من العدد والعدة •• وان الجندي الذي يحمل أفتك الأسلحة ، اذا لم يتسلح بروح معنوية قوية مبعثها العقيدة لا تجدي معه الأسلحة الفتاكة شيئا ••

في معركة أحد عرض على الرسول غلمان أبدوا روحا معنوية قوية للنضال في سبيل الله منهم : عبدالله بن عمرو ــ وزيد بن ثابت ــ وأسامة ابن زيد ــ والنعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ــ والبراء بن عازب ــ وأسيد بن ظهير ــ وعرابة بن أوس ــ وغيرهم ، لكن الرسول ردهم جميعا لصغر أسنانهم ، وبلغ التنافس بينهم ذروته ، فقد أجاز الرسول منهم رافع بن خديج لأنه رام ، فاعترض سمرة بن جندب ، وأبدى استعداده لأن يصرع رافعا ، وابتسم الرسول لذلك ، وتركهما يتصارعان أمامه ، وفعلا صرع سمرة رافعا فأجازه الرسول ••

غلمان صغار في بداية الصبا والشباب ، في سن اللهو والمرح ، يريدون القتال في سبيل اعلاء كلمة الله ، لماذا ؟ لأن للعقيدة أثرا فعالا في نفوسهم ، ولأن الايمان أفاض على أرواحهم قوة معنوية ••

لم يكن مثل هذا الشباب الصغير يهزل وانما كان جادا ، لأن

اللحظات التي عرضوا أنفسهم فيها على رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ لاجازتهم للقتال لم تكن لحظات هزل ، وانما كانت لحظات حاسمة في تاريخ الدعوة الاسلامية ..

ولم يكن مثل هذا الايمان قاصرا على الشباب أو الرجال ـ وحسب ـ بل كان للمرأة نصيب موفور منه ، فقد أصر على حضور معركة أحد عديد من النساء أجاز الرسول منهن أربع عشرة امرأة ، يحملن الماء والدواء والسلاح ايضا ، ولا سيما أم عمارة التي قال عنها الرسول ـ والمعركة حامية الوطيس بعد هزيمة مؤقتة لحقت بالمسلمين ـ قال :

« لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان .. وما التفت يمينا ولا شمالا الا وأنا أراها تقاتل دوني » .

لقد شهدت أم عمارة ـ نسيبة بنت كعب ـ المعركة ومعها ابناها وزوجها ، وقاتلت وأبلت بلاء حسنا يومئذ ـ وهي حاجزة ثوبها على وسطها ثابتة مع من ثبت مع الرسول ـ حتى جرحت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ..

واستشهد في هذه المعركة سبعون من المسلمين ، وأحس النساء بعودة الرسول ، فخرجن لا يبغين الا الاطمئنان على رسول الله ، فقالت أم عامر الأسهلية :

« كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله » أي هينة .

وأخذت كبشة بنت رافع ـ أم سعد بن معاذ ـ تعدو نحو رسول الله لما رأته ، وسعد ابنها آخذ بعنان الفرس ، فقال سعد : يا رسول الله : أمي .. فقال : « مرحبا بها » فدنت حتى تأملت رسول الله ثم قالت :

« أما اذا رأيتك سالما .. فقد أشوت المصيبة ـ أي هانت » .

ومن الجدير بالذكر ان ابنها عمرو بن معاذ كان من الشهداء وهي تعلم ذلك ..

* *

لا ريب في أن معركة أحد كانت ابتلاء للمسلمين ، لكن هذا الابتلاء لم يصب أرواحهم المعنوية بأدنى وهن ، واذا كان مستساغا للمستشرقين الحاقدين والمبشرين الصليبيين أن يزعموا ــ باطلا ــ ان ارواح المسلمين قد أصابها الانهيار بعد هزيمة أحد ، وفت هذا الانهيار في ايمانهم ــ اذا كان مستساغا لهؤلاء وأولئك ان يزعموا هذا ــ افتراء منهم ــ فكيف يستساغ لكاتب عربي محسوب على المسلمين أن يساير هذا الزعم المفتري في بعض مؤلفاته التي لا تزال تقرأ علنا وجهارا ..

ان نشوة النصر المؤقت دفعت أبا سفيان اثر المعركة ان ينادي بصوت جهوري :

« ألا ان موعدكم بدرا الصفراء على رأس الحول » .

كان أبو سفيان يوجه كلامه الى عمر متحديا ، فأمر الرسول عمر أن يجيبه بـ « نعم » ثم قال ــ صلوات الله عليه :

« والذي نفسي بيده لئن ساروا اليها لأسيرن اليهم ثم لأناجزنهم » ..

بل ان الرسول لم يكد ينتهي من دفن الشهداء ، حتى ركب فرسه وخرج ، والمسلمون حوله ، عامتهم جرحى ، ومعه أربعة عشرة امرأة اللائي حضرن المعركة ، فلما كانوا بأصل الحرة ــ من ضواحي المدينة ــ قال : اصطفوا فنثني على الله ، واصطف الرجال صفين خلفهم النساء ، ثم دعا دعاءه :

« اللهم لك الحمد كله .. اللهم لا قابض لما بسطت .. ولا باسط لما قبضت » ...

فأي وهن أصاب ايمان المسلمين كما يزعم المفترون .. ؟

كانت موقعة أحد يوم السبت ، اليوم الخامس عشر من شوال ، وفي صبيحة اليوم التالي مباشرة ــ أي صبيحة يوم الاحد ، كانت غزوة

« حمراء الأسد » عندما بلغ الرسول ان أباسفيان وأصحابه يتشاورون ليرجعوا حتى يستأصلوا من بقي ، فدعا أبا بكر وعمر وذكر لهما ذلك ، فقالا :

« اطلب العدو يا رسول الله ، ولا يقتحمون على الذرية » .

فلما صلى الصبح يوم الاحد ــ ومعه وجوه الأوس والخزرج .. وقد باتوا في المسجد على بابه ــ أمر بلالا فنادى :

« ان رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا الا من شهد القتال بالأمس » .

يا سبحان الله ! لقد عاد المجاهدون منذ ساعات وكلهم جرحى ، من معركة ضارية ألحقت بهم خسائر فادحة ، ثم ها هوذا رسول الله يدعوهم الى قتال جديد فيلبون جميعا ، فاذا كانت أجسادهم مثخنة بالجراح ، فان قلوبهم وأرواحهم عامرة بالايمان ..

أسيد بن حضير به سبع جراحات يريد أن يداويها ، يحمل سلاحه ويتوجه الى الرسول دون ان يعرج على دواء ، والطفيل بن النعمان به ثلاثة عشر جرحا ، وخراش بن الصمة به عشر جراحات ، أما عبدالله ورافع ابنا سهل بن رافع فقد رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، ومع ذلك فقد لبيا النداء وخرجا يزحفان ، ولما ضعف رافع حمله أخوه عبدالله على ظهره ..

كان الرسول ــ صلوات الله عليه ــ حريصا على أن لا يشترك في هذه الغزوة الا من حضر موقعة أحد ، وذلك لاطمئنانه الى ايمانهم ، وليثبت لقريش ان الهزيمة لم تنل من ايمانهم ولا أرواحهم شيئا ، لذلك لم يأذن لسوى رجال أحد ، وقد استأذنه رجال كثيرون لم يشهدوا الموقعة ، فلم يستثن الا جابر بن عبدالله الذي استشهد ابوه في هذه المعركة ...

ولم يحدث قتال ولا لقاء في هذه الغزوة ، لأن الاعداء بهرهم ايمان المسلمين لما رأوا رأي العين من جموعهم الجادة ، ولم يكد يخبر معبد بن أبي معبد أبا سفيان وقريشا أن محمدا واصحابه قد تركهم يتحرقون عليهم مثل النيران وأنهم في طلبهم ، حتى انصرفوا سراعا خائفين من الطلب لهم ..

* *

وفي غزوة ذات الرقاع ندع أبا موسى الاشعري يحدثنا ـ كما في البخاري :

« خرجنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزاة ، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت « غزوة ذات الرقاع » لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا » .

أي بلاء أشق من ذلك ؟ لكنه الايمان ...

ان رسول الله قد بلغه أن بني أنمار وبني غطفان وبني سعد بن ثعلبة بن ذبيان قد جمعوا لحرب المسلمين بنجد ، وبالرغم من قلة الزاد والعدة ، عزم الرسول على أن يبدأ هذه الجموع بالهجوم في عقر ديارهم، حتى ولو اعتقب كل ستة نفر بعيرا ..

ولا بد من أن نقف وقفة أمام غزوة تبوك أو غزوة العسرة ، فقد ذكر للرسول ان الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، ولما كان ـ صلوات الله عليه ـ يدرك ما سينال المسلمين من مشقة وعناء في هذه الغزوة فقد استثناها من التورية ، حيث كان لا يغزو غزوة الا ورّى بغيرها الا تبوك هذه ، فالمسافة بين المدينة وأطراف الشام مما يحسب لها حسابها ، كما يجب أن يحسب حساب الحر الشديد مع هذا السفر البعيد ...

لقد أمر الرسول بالصدقة ، وتدفقت الاموال من كل صوب وحدب، أبو بكر أتى بكل أمواله أربعة آلاف درهم ، وسأله الرسول : ماذا أبقيت لأهلك ؟ فأجابه : « الله ورسوله » وتبرع عمر بنصف ماله ، والعباس تبرع بمال قيل : انه تسعون ألفا ، وتبرع عاصم بن عدي بتسعين وسقا تمرا ، وجهز عثمان بن عفان ثلث الجيش ، ولم يبق له شيء ، قيل انه جاء بألف دينار ففرغها في حجر الرسول ، فجعل يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم ! قالها مرارا •••

وتبرع بقية الصحابة ، مستجيبين لترغيب الرسول في الخير والمعروف، حتى ان الرجل ليأتي بالبعير الى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تعتقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه ، فكن يلقين ــ في ثوب مبسوط بين يدي النبي ــ المسك والخلاخل والأقرطة والخواتيم ••

انها الروح المعنوية القوية وراء هذه الهمة العالية ، الروح المعنوية التي مبعثها الايمان الصادق والعقيدة الراسخة ، التضحية بالمال الى ابلغ درجات المثالية ، والاستعداد للتضحية بالنفس الى درجة ان الذين لم يجدوا ما يحملون عليه ، لم يجدوا ما يعبرون به عن أحزانهم غير الدموع• كان البكاءون سبعة وهم بنو مقرن من مزينة ، كانوا أهل حاجة ، ذهبوا الى الرسول يستحملونه فقال لهم : « لا أجد ما أحملكم عليه » فولوا يبكون ، انهم يكرهون أن تفوتهم غزوة مع رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ فرق يامين بن عمير لاثنين منهم وأعطاهما ناضحا له ــ البعير الذي يحمل عليه الماء ــ فارتحلاه ، وزود كلا منهما صاعين من تمر ، وحمل العباس منهم رجلين ، وحمل عثمان منهم ثلاثة ••

أما أبو ذر فقد أبطأ من أجل بعيره ، كان نضوا أعجف ثم عجز ،

فتركه ، وحمل متاعه على ظهره ، وسار ماشيا وحده في حر شديد ، حتى لحق رسول الله نصف النهار وقد بلغ منه العطش •••

في مثل هذه الظروف القاسية ، بلغ الايمان ذروته ، فسار مع رسول الله الى تبوك ثلاثون ألفا ، معهم عشرة آلاف فرس واثنا عشر بعيرا •• خرجت هذه الألوف الكثيرة مع رسول الله للجهاد والحر قد بلغ أشده ، وقد طابت الثمار ، وأحبت الظلال ، والنفوس في مثل هذه الظروف تستعذب البقاء وتكره الرحيل ••

أجل خرجت هذه الألوف الكثيرة مع رسول الله للجهاد ، وهي تقدر كل ظروف مثل هذه الغزوة ــ غزوة العسرة ــ تقدر ما سوف تتعرض له من متاعب ومشاق ، لكن أرواحها المعنوية القوية ، وايمانها الصادق ، وعقيدتها الراسخة ، جعلها تندفع دون مبالاة بأية متاعب وبأية مشاق ••

ولقد أصابها ما توقعته وقدرته • ففي المسير شكى الى الرسول أناس ما بظهرهم من الجهد ، فتحين مضيقا سار الناس فيه وهو يقول :

« مروا باسم الله ! » وجعل ينفخ بظهورهم وهو يقول :

« اللهم احمل عليها في سبيلك •• فانك تحمل على القوي والضعيف، والرطب واليابس ، والبر والبحر •• !

يقول المقريزي في امتاع الاسماع يصف رجوع الجيش بعد انقضى في تبوك عشرين ليلة :

« فلما أجمع المسير أرمل الناس ارمالا شديدا ــ أي نفد زادهم كأن لم يبق لهم من طعامهم الا الرمل ــ فشخص على ذلك ، حتى استأذنوه أن ينحروا ركابهم فأذن لهم • فلقيهم عمر رضي الله عنه ، وهم على نحرها ، فأمرهم أن يمسكوا ، ودخل على رسول الله •• فقال :

••• أذنت للناس في حمولتهم ــ أي الابل ــ يأكلونها ؟

فقال : « شكوا الي ما بلغ منهم من الجوع فأذنت لهم ، تنحر الرفقة البعير والبعيرين ، ويتعاقبون فيما فضل من ظهرهم قافلون الى أهليهم »•

فقال عمر : يا رسول الله ! لا تفعل •• فان يك في الناس فضل من ظهرهم يكن خيرا ، ولكن ادع بفضل أزوادهم ، ثم اجمعها فادع الله فيها بالبركة ـ كما فعلت في منصرفنا من الحديبية حيث أرملنا ـ فان الله مستجيب لك » •

ونفذ الرسول ـ صلوات الله عليه ـ مشورة عمر ••

* *

بمثل هذه الروح القوية ، والايمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، استطاعت القلة من المسلمين ان يحملوا دعوة الاسلام الى مشارق الارض ومغاربها ، وأن يقوضوا أركان أعتى امبراطوريتين كانتا آنذاك تسيطران على معظم بقاع العالم ، وأن يحرزوا انتصارات مذهلة أدهشت وما تزال تدهش الالباب وتحير العقول ، وتجبر التاريخ على الانحناء اجلالا لها •••

ولا يمكن ان تعزى هذه الانتصارات الى القوة المادية وحدها ، بل يجب ان تعزى ايضا الى القوة المعنوية المصوغة في قالب من صدق الايمان والاخلاص للعقيدة ، فالسيوف التي كانت في أيدي المسلمين ـ في كل بقعة دخلها الاسلام ـ كانت ـ كما يقول الاستاذ محب الدين الخطيب في كتابه « مع الرعيل الأول » ـ أقل عددا من السيوف التي كانت تؤيد الباطل وتحاول أن تحميه وتبقيه ••• وانما فشلت السيوف الكثيرة التي تحمي الباطل ، ولم تتمكن من التغلب على السيوف القليلة التي تمثل الحق ، لأن هناك قوة أدبية تصاحب تلك السيوف القليلة ، وأعني بها جمال الحق ونزعة الخير اللذين تتألف منهما « دعوة الاسلام » يومئذ ••• »

* *

وبعد ..

فان استعراض ماضي الاسلام يثير في نفس كل مسلم غيور كثيرا من الأسى ، لأن ماضي الاسلام المجيد يذكره بحاضره الأليم ..

ولا يتسع المجال هنا لنبحث في العلل التي أدت بالاسلام وشعوبه ودوله الى هذه الحال التي لا تحسد عليها ، انها علل كثيرة متشعبة ، لكن يمكن تركيزها في علة أساسية ، ولقد أشار مفكر غربي الى هذه العلة الأساسية في ايجاز مركز ، بعد أن وصف الحال التي وصل اليها الاسلام وصفا اتسم بالايجاز والمنطق ، والمفكر الغربي النمساوي الأصل « ليوبولد فاس » في مؤلفه القيم : « الاسلام على مفترق الطرق » يعتبر العلة الأساسية هي أننا ـ نحن المسلمين ـ فقدنا الثقة بأنفسنا ، ولن نستطيع أن نستعيد هذه الثقة من خارجنا ، بل من داخلنا بالعودة الى القرآن ـ لا أفرادا وحسب ـ بل جماعة ودولا :

« ... اذا استطعنا ان نستعيد ما فقدناه من الثقة بأنفسنا فحينئذ ـ فقط ـ نأمل أن نجعل سبيلنا صعودا من جديد .. ولا يمكن أبدا ان نبلغ هذا الهدف اذا أتلفنا مؤسساتنا الاجتماعية الخاصة بنا ، ثم أخذنا في تقليد مدنية أجنبية ـ اجنبية لا بمعناها التاريخي والجغرافي فحسب ، بل بمعناها الروحي أيضا ..

واذا اعتبرنا الامور على ما هي عليه اليوم .. فان الاسلام يشبه

مركبا يغرق وكل يد تستطيع ان تكون عونا ، فان الحاجة اليها على ظهر المركب نفسه ، ولا يمكن أن ننقذ هذا المركب من الغرق •• الا اذا أصغينا الى القرآن الكريم ، وفهمنا قوله :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر •• » •

هذا ما يقوله مفكر غربي قد أسلم وحسن اسلامه ، ولم يختر الاسلام دينا الا بعد دراسة وتنقيب وتمحيص ، استغرق ذلك منه بضع سنوات متجولا في شتى البقاع الاسلامية باحثا عن حقيقة الاسلام الذي أعجب به أولا كبناء تام ، بالاضافة الى عمله الأساسي مراسلا لأمهات الصحف الاوروبية وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، واستطاع قبيل اعتناقه الاسلام أن يقف على حقيقة العلة في تدهور الاسلام ودولته • فهو يقول في مقدمة كتابه :

« ان الحياة الاسلامية في الواقع تظهر ــ على كل حال في أيامنا الحاضرة ــ بعيدة جدا عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الاسلام ، فان كل ما كان في الاسلام من قبل كرما وايثارا أصبح اليوم بين المسلمين ضيقا في النظر رحبا للحياة الهينة ، وكل ما كان في الاسلام من قبل تقدما وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا ••• » •

لقد تحققت ان ثمة سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين ، ذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئا فشيئا يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية ••• لقد ظل الاسلام بعد ذلك موجودا ، ولكنه كان جسدا بلا روح ، ثم ان العنصر الذي خلق قوة العالم الاسلامي من قبل هو المسؤول الآن عن ضعف المسلمين ، فان المجتمع الاسلامي بني منذ أوله على أسس دينية ، وضعف

هذا الأساس قاد بالضرورة الى ضعف البناء الثقافي فيه ، وربما كان سببا لاضمحلاله بالكلية •• » •

ونفس الاحساس لدى هذا المفكر النمساوي كان لدى المفكرة الايطالية : « لورا فاجليري » الأستاذة « بمعهد الدراسات الشرقية بميلانو » قالت في نهاية بحث لها بعنوان « تفسير الاسلام » بعد أن أشارت الى العلة واصفة العلاج :

•• « انه الى الكتاب المقدس الذي لم يصبه تحريف ابدا ••• ذلك الكتاب الذي لا يبلى ، بل يبقى كما أنزله الله على نبيه البدوي البسيط •• آخر الانبياء والمرسلين •• انه الى ذلك النبع النقي سيعود المسلمون ••• فعندما ينهلون مباشرة من هذا الكتاب المقدس لن يفشلوا في العودة الى نشاطهم القديم » •••

* *

كانت العقيدة هي القوة الاساسية في كل معارك الدعوة الاسلامية، والعامل الاول في انتصاراتها مع الفارق الشاسع في العدة والعدد بينها وبين الجهات المتصدية لها ، سواء أكانت هذه الجبهات شعوبا أم دولا أم امبراطوريات لم تغرب الشمس عن املاكها •••

ولم يكن ايمان الجندي مجرد تدين •• أو بمعنى أدق ايمان راهب، بل ايمانا ذا اشعاع قوي نفاذ ، انه ايمان منحه القرآن دفعة قوية وطاقة متحركة ، لذلك كان يخوض غمار المعارك بهذه الدفعة القرآنية واثقا من النصر ، مطمئنا الى أن جهاده من أجل المبادىء والمثل العليا التي أرستها العقيدة في نفسه ••

وهذه الدفعة القرآنية ضرورية ــ ليس للجندي في المعركة وحسب ــ بل هي ضرورية لكل مسلم ايضا في وقت السلم باعتباره مناضلا من اجل

العقيدة في أي ميدان آخر غير ميدان الحروب ، ولعل من أقوى العوامل التي ساعدت على ما بلغه الاسلام والمسلمون من موقف لا يحسد عليه ، هو ان المسلم حرم هذه الدفعة القرآنية وتحلل ايمانه فأصبح ايمانا تدينيا ..

لم يكن الجندي المسلم فيما مضى يستقبل وفودا من الوعاظ ، أو يتلقى سيلان الارشاد ، وانما كان ينشأ نشأة دينية سليمة ، ويتلقى تربية اسلامية رفيعة عندما يبدأ حياة الجندية ، هذه التربية يستمدها من كتاب الله ومن سيرة سلفه الصالح ، كان الايمان لديه نابعا من عقيدته ، وليس تدينيا ينحصر ـ وحسب ـ في قراءة القرآن بلا تدبر ، وتأدية الفرائض بلا روح ..

من الخير أن نقف وقفة تأمل أمام ما يقوله المفكر الاسلامي الجزائري « مالك بن نبي » في كتابه « وجهة العالم الاسلامي » بعد أن أثار ما وصل اليه العالم الاسلامي المعاصر :

« ... حتى اذا وهنت الدفعة القرآنية .. توقف العالم الاسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود .. وما كان لأي معوض زمني ان يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الانسانية ، ألا وهو « الايمان » .

« انالمسلم لم يتخل مطلقا عن عقيدته ، فلقد ظل مؤمنا .. وبعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا ، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها ، لأنها فقدت اشعاعها الاجتماعي .. فأصبحت جذبية فردية ، وصار الايمان ايمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي .. وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها ، وانما المهم أن نرد الى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الايجابية ، وتأثيرها الاجتماعي ... وفي كلمة واحدة :

« ان مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله ، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة » ...

* *

في اليوم السادس والعشرين من يناير ١٩٧٢ ، الذي وافق يوم عيد الاضحى المبارك ، أشار الاستاذ حامد دنيا في يومياته بجريدة الاخبار الى لقاء بين السيد احمد الخطيب رئيس مجلس وزراء دولة اتحاد الجمهوريات العربية ، والاستاذ الدكتور محمد الفحام شيخ الأزهر يومئذ ، والدكتور محمد بيصار أمين مجمع البحوث الاسلامية . وكان الحديث يدور حول التعبئة الروحية ، وقد اجتذبني العنوان وأنا أكتب السطور الاخيرة من هذه الخاتمة ، فقرأت الحديث بامعان ، وقد قدم المحرر لهذا الحديث بأن العلم بلا ايمان كالعقل بلا قلب ، والايمان بلا علم كالقلب بلا عقل ، وبأن قضية العلم والايمان هي قضية الحاضر والمستقبل في هذا البلد .. ولذلك فهي قضية مطروحة ... أو قضية واردة » .

قال رئيس وزراء دولة الاتحاد :

« لقد جاء الوقت ليقوم الأزهر بدور فعال في تنظيم الدعوة الدينية والتعبئة الروحية للمعركة ... يجب ان تكون معركتنا التحريرية الكبرى على أساس عقيدة ثابتة وراسخة في قلب كل جندي على خط النار .. وكل مواطن في جبهتنا الداخلية » ..

ورد الامام الاكبر :

.. هذا ضروري .. ووعاظنا ينتشرون الان في القرى والتجمعات العامة بالمدن .. ويعقدون ايضا ندوات دورية لجنودنا البواسل المرابطين على خط النار للتبصير بالمعركة والجهاد المقدس ، والاستشهاد في سبيل الدفاع عن الوطن وترابه » ..

وتساءل رئيس وزراء دولة الاتحاد عن دور أئمة المساجد ، وأجاب الامام الاكبر بأنهم بلا شك يقومون بدور كبير من التعبئة الروحية للجماهير داخل المساجد ، وقال الأمين العام لمجمع البحوث : ان الوعاظ يتبعون الأزهر •• وأئمة المساجد يتبعون وزارة الاوقاف ، ولكن هدف الاثنين واحد ••

وقال رئيس وزراء الاتحاد :

« انني أضع نفسي تحت أمر الازهر في سبيل تعميق الايمان بالمعركة •• والدعوة الدينية لها •• وأرى كخطوة عاجلة أن تتوحد فورا خطة الدعوة الدينية بالنسبة لأئمة المساجد والوعاظ خاصة في جمهورية مصر العربية ، وأن يتم لقاء سريع مع اخوتهم في سوريا وليبيا •• » •

ووعد الامين العام لمجمع البحوث بتنفيذ هذا التوجيه على الفور ، لكنه اضاف قائلا :

« ونحن نرى ان كل دولة اسلامية تبذل الان جهودا لا بأس بها في سبيل الدعوة الروحية •• ولكن هذه الجهود في رأيي مبعثرة تحتاج الى تنظيم قوي يربط بين مختلف الهيئات الاسلامية التي تعقد مؤتمرات وتقيم ندوات تتدارس فيها سنويا الدعوة الاسلامية » ••

وعندما قال الامين العام : « ان شاء الله سوف ننتهز فرصة انعقاد المؤتمر السابع لمجمع البحوث الاسلامية المقبل في مايو القادم بالقاهرة ونعقد ندوة خاصة قبل المؤتمر بأيام ••• » •

قال رئيس وزراء الاتحاد :

« لا يمكننا ان ننتظر حتى شهر مايو •• الموضوع حيوي وعاجل •• ويجب ان تبدأ خطوات التعبئة الروحية في دولة الاتحاد فوراً » ••

وعقب الامام الاكبر بقوله :

« نحن في انتظار ما تشيرون به •• وما تتخذونه في مجلس الوزراء لصالح الدعوة •• وسننفذ كل ما ترون ••• فهذه مهمة كل رجال الدين•• وهي مقدسة وسامية » ••

وانتهى اللقاء •• الذي استمر ساعتين •• !!

* *

لا يسع الانسان الا الاعتراف بالاتجاه الطيب في هذا اللقاء ••• لكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ الاجابة على هـذا السؤال •• ممـا يحسن السكوت عليه ••

هل يكفي أن ينتشر الوعاظ في الاقاليم ؟ بل هل يكفي ان يبذل خطباء المساجد كل ما في وسعهم لهذه التعبئة الروحية ؟

لا ريب في أن هؤلاء واولئك يستطيعون ان يحققوا شيئا كثيرا •• لكن في حدود المساجد وروادها ليس الا •••

اذن لا بد ان تسهم كل وسائل الاعلام الاخرى في التعبئة الروحية ، ولا سيما الصحافة والاذاعة والتليفزيون •• لا بد ان تسهم اسهاما جادا لا بمجرد القشور التي لا تسمن ولا تغني من جوع •••

وقد يقال : ان البرامج الدينية كثيـرة في الاذاعـة والتليفزيـون مثلا » ••

لكن هذا القائل ينسى ان البرامج الدينية ــ على ما في بعضها من اسفاف لا يليق بعظمة الاسلام ــ متواضعة بالنسبة لغيرها من البرامـج التي لا هدف منها الا التسلية فضلا عن اللهو غير البريء •••

واذا كان الوعاظ ــ كما ذكر فضيلة الامام الاكبر ــ يعقدون ندوات دورية لجنودنا البواسل الرابضين على خط القتـال للتبصير بالمعركـة

والجهاد المقدس ••• فلا نظن أن وسائل الاعلام تكرمت مشكورة بالاشارة الى هذا الجهد فضلا عن الاهتمام الواجب في مثل هذه الظروف •• ولا يمكن ان نطمع في عشر معشار الاهتمام ـ مثلا ـ بزيارة استهلاكية لنجوم ونجمات السينما والمسرح لجنودنا على الجبهة ، حيث تفرد الصحافة الصفحات لهذه الزيارة التي لا شك في أنها هزت أعصاب العدو ، وأصابت قواته بالفزع ، ولا سيما حين ترى في الصحف اليومية والاسبوعيه الممثلة فلانة فوق دبابة ، والممثلة فلانة تمسك مدفعا رشاشا •••

أما عن الاذاعة فحدث ولا حرج ••

ففي غضون ذكرى الهجرة ••• سهرنا مع الاذاعة حتى الواحدة والنصف صباحا وهي تنقل الينا حفلا ساهرا أحياه الفنانون والفنانات مع قواتنا المسلحة على الجبهة بالسويس، وكان ان استمعنا الى أغاني ليلى نظمي وعفاف راضي ، وكلمة تحية من الراقصة نجوى فؤاد لجنودنا تعدهم فيها بأنها سترقص لهم بعد النصر فوق أرض فلسطين •••

نحن لا ننكر ان من حق جنودنا المرابطين على خطوط القتال علينا ان نرفه عنهم ، لكن ما ننكره هذه التفرقة غير المستساغة بين النشاط الديني وما أسموه بالفن ، فيما يتصل بالمعركة ، فلا أظن ان الاذاعة بالذات قد تكرمت فأشارت من قريب أو بعيد الى جهد رجال الوعظ في المعركة فضلا عن ان تنقل الينا سهرة دينية على الجبهة مثلا ••

وهذا ما كنا نتمناه ان يثير ـ مسألة التفرقة التي تباشرها وسائل الاعلام ـ الامام الاكبر والامين العام لمجمع البحوث الاسلامية ، في لقائهما مع السيد رئيس وزراء دولة الاتحاد •• لا أن يبديا وحسب ••• السمع والطاعة لكل ما يراه سيادته ••• واذا كانت وسائل الاعلام مصرة على هذه اللامبالاة بالنشاط الديني فلا أقل من ان تتنازل عن اصرارها

اذا كان هذا النشاط الديني يتصل بالمعركة ، اذ يتصل بموسم من المواسم الدينية التي لها مكانتها في نفوس المسلمين ..

وأقرب الأمثلة الى ذهني ــ وأنا أكتب السطور الاخيرة من هــذا الكتاب ــ ذكرى الهجرة ، فقد احتفل بها احتفالا رسميــا في القاهــرة بمسجد الامام الحسين ، وتحدث في هذا الحفل السيد الدكتور وزيــر الاوقاف وشؤون الازهر ، وشهــده محافظ القاهــرة نائبا عــن رئيس الجمهورية ، وكذلك السيد حسن التهامي مستشار السيد الرئيس ... ومع ذلك فلم تهتم الصحف بهذا الحفل ، الا جريدة الجمهورية التي تفضلت مشكورة وكتبت خبرا في كلمات ..

وقد يظن ظان ان لجريدتي الاهرام والاخبار عذراً ، بسبب ضيــق الصفحات وزحمة المواد المهمة ، لكن كلتيهما نشرت خبرا في سطور مؤداه ان قداسة البابا يقيم بالاسكندرية الاربعين يوما المقدسة ، بل ان الاخبار نشرت في صفحتها الاولى في أكثر من عشرة سطور خبرا عن حادث تصادم لسيارة امين التنظيم السياسي بالسويس ، كما نشرت الاهرام ان المطربة فايزة احمد ستطير الى تونس في الشهر القادم لاحياء خمس حفلات هناك، لصالح وزارة الشباب .. وأن مغامرات عماشة تعود للشاشة الصغيرة ..

والامام الاكبر في ذكرى الهجرة وجه بيانا الى العالم الاسلامي ، ومع أهمية هذا البيان في هذه الايام الحاسمة ، لم تتكرم جريدة واحدة بنشره كاملا ، وحتى جريدة الجمهورية ضنت عليه بالصفحة الاولى ، مع أنهــا لم تضن بها على نبأ يقول : ان هدية نيكسون للزعيــم الصيني ماوتسي تونج زوج من ثور المسك أثناء زيارته القادمة لبكين .

* *

وبعــد .. مرة أخرى

فلسنا في حاجة الى ان نكرر ما سبق ان قلناه : من ان العقيدة كانت السلاح الاساسي في كل المعارك الاسلامية ، كما كانت العامل الاول في كل الانتصارات التي احرزتها هذه المعارك ••• وظل هذا المبدأ قائما وسيظل ما قامت السماء والارض ، لأنه بمثابة سنة من السنن الكونية التي لا تجد لها تبديلا ••

واذا سلمنا بأن معاركنا ضد العدو في حاجة — بل في أمس الحاجة — الى العقيدة ، والمسألة — كما يقول المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي في كتابه « آفاق جزائرية » لا تتمثل في تلقين أو في اعادة تلقين المسلم عقيدته ، ولكنها تتمثل في اعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة ••• الا ان المصلحين قد أغفلوا وضع هذه المشكلة » •

ويجدر بنا في هذا المقام ان نطيل التأمل في هذه السطور التي كانت ضمن ما رد به العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام » على المستشرق « جيب » المعروف في البلاد العربية ، والذي يرى ان بطولة صلاح الدين قامت على الشهرة العامة والصفات المجملة ، لا — كما يرى العقاد — تقوم على تمحيص الأعمال والغايات :

« •• وصلاح الدين كان بطلا منتصرا في أكثر مواقعه وميادينه •••

ولكن بطولته في المقدرة والتعبئة اكبر وابرز من بطولته في فـن القيادة وتوجيه الجيوش في ابان المعمعة » ••

« •• والتعبئة الروحية كانت في مقدمة فنون التعبئة التي اتقنها بطل الحروب الصليبية • فان هذه التعبئة الروحية كانت ألزم له من سائر فنون التعبئة العسكرية في جمع القوى وابتعاث الغيرة وكبح عوامل الآثرة بين أتباعه ومنافسيه ••

« ولا خلاف على ان العمل الاكبر الذي تصدى له صلاح الديـن وأفلح في انجازه هو صد الجيوش الصليبية والتغلب على أمراء الصليبيين وقادتهم في ميادين الحرب والسياسة •• ولكنه من الخطأ ان يقال : انـه هو العمل الذي توخاه وانصرف اليه بتدبيره وسعيه من بداءة حياته •• فانما كان شاغله الاكبر قبل كل شاغل عناه : ان يدعم الدولة الاسلاميـة المتصدعة •• ويقتلع جذور الفساد والشقـاق من دواوينهـا ومعاهـد ادارتها ••

« وآية البطولة في صلاح الدين : انـه غلب نفسه كثيرا كمـا غلب أعداءه من الفرنجة والمسلمين ، وانه حكم نفسه كثيرا قبـل ان يحكم رعاياه من المطيعين له ••• أو المتمردين عليه •••!!

الاسلام في مواجهة التحديات

الحقيقة المرة ..!!

أرجو أن لا أكون مبالغا أو متطرفا اذا قلت : ان الاسلام في العصر الحديث واجه ــ ولا يزال يواجه ــ كل ألوان التحديات ، وهو أعزل من أي سلاح مادي ، معتمدا ــ وحسب ــ على أصالتــه الفكرية ، وجوهر عقيدته ، وحصانة مبادئه •

ومرة أخرى ، أرجو أن لا أكون مبالغا أو متطرفا اذا قلت : انالشعوب المسلمة في العصر الحديث، واجهت ــ ولا تزالتواجه ــ عملياتالاستقطاب والاستنزاف هذه ، وهي عزلاء من أي سلاح عقيدي ، وشبه عزلاء من أي سلاح مادي ، وقد لا ينطبق هذا القول على الشعــوب المسلمة في كــل الظروف والأحوال ، لكن على الأقل في أغلبها ••

ولا يمكن لانسان أن يتجاهل نضال الشعب الجزائري المسلم لقــوة فرنسا الغاشمة ، وأن العقيدة الاسلامية كانت مصــدر قوته ، ومركز الثقل بالنسبة للعدو ، فالعدوان الفرنسي لم يكن يواجه الا عقيدة اسلامية في كل مجالات النضال ، اذا غضضنا الطرف عن حفنة من تجار النضال ومحترفي الجهاد ، فهذه الحفنة كانت احيانا لا تقوى على اخفاء مطامعها الذاتية ••

كذلك لا يمكن لانسان ان يتجاهل نضال الشعب الليبي لقوةايطاليا الغاشمة أبان الاحتلال ، كانت عدة الشعب الليبي من السلاح المادي أتفه من أن تذكر بالنسبة لعدة العدو ، بالاضافة الى ان الشعب الليبــي كان

وحده في الميدان ـ اذا استثنينا أفرادا معدودين قد تطوعوا للقتال الى جانب صفوف الشعب ، بينما كان يقف الى جانب ايطاليا المعتدية أمريكا وفرنسا وانجلترا وهولاندةوبلجيكا وغيرهامنالدول الصليبيةوالاستعمارية معا •• فاذا تركنا جانب القوة المادية بالنسبة للشعب الليبي ، فان ما كان يتمتع به من القوة الروحية جديرا بالتقدير ، وان لم يحقق الشعب الليبي في نضاله ما حققه الشعب الجزائري لاختلاف الظروف التي عاصرتسنوات النضال ، الا أن الشعب الليبي بالعقيدة وحدها ـ كشعب مسلم ـ أثبت قدرته على الصمود في مواجهة قوى البغي الصليبية •• حتى بعد ان ألقى السلاح ، حين لم يصبح لسلاحه المادي الضئيل أي أثر يذكر في معركة لا تكافؤ فيها ••

ليس معنى هذا أننا نسقط من الحساب القوة المادية ، فاننا مطالبون كشعوب مسلمة أن نكون مستعدين دائما بهذه القوة ، وبأحدثالأسلحة، بل أقصد ألا تكون هذه القوة المادية هي الأساس في معاركنا وفي نضالنا ضد اعدائنا ، ونهمل جانبا القوة الروحية ، ففي حروب المردة كانت راية المهاجرين في موقعة اليمامة مع سالم حولي أبي حذيفة ، فقالوا : نخشى علينا من نفسك شيئا ••• فقال : بئس حامل القرآن أنا اذن •• انالذي يحمل القرآن لا يجبن أبدا •• »

* *

الشعوب المسلمة في مواجهة التحدي ..

أصبح من المألوف لأي كاتب مسلم أن يضع الشعب العربي المسلم في فلسطين ، في مقدمة الشعوب المسلمة التي واجهت ــ ولا تزال ــ تواجه عمليات الاستنزاف والاستقطاب ، ربما لأن الشعب العربي المسلم في فلسطين يقع في المنطقة العربية المتاخمة حيث تنعكس مأساة هذا الشعب على هذه المنطقة بأسرها ، حكومات أولا ، وشعوبا ثانيا ، وربما أيضا ، لأن مأساة هذا الشعب مثيرة الى أبلغ درجات الاثارة ، فصانعو المأساة ــ أعني اليهود ــ قلة ، استطاعت أن تنتزع بقعة من قلب المنطقة العربية لتقيم فوقها وطنا ، وتؤسس دولة ، وتوجد كيانا ...

ومهما قيل من مبررات لهزيمة عام ١٩٤٨ ، فان هناك حقيقة مرة لن يتجاهلها التاريخ حين يصبح حرا ، وهي ان القلة اليهودية ، انتصرت على بضعة جيوش عربية منها أربعة ــ على الأقل ــ نظامية ، كان لها وزنها وثقلها في موازين قوى الشرق الاوسط ...

نحن لا ننكر ان أسلحة فاسدة قد ارسلت الى الجيش المصري مثلا ، وان هناك خيانات قد حدثت ، وصلت الى حدالطعن من الخلف ، لكن من المسلم به انالجيوش العربية عندما قبلت ان تخوض المعركة ، ووطئت أرض فلسطين ، أصبحت المسؤولية في عنقها ، كان على قياداتهاان ترفض

الهدنة التي اعتبرت من أقوى المبررات للهزيمة ، وأنا أقصد القيادات العاملة فوق ارض المعركة ..

ولست أدري ، كيف تتجاهل فرقا له أهميته بين قواتنا ابان معركة عام ١٩٤٨ ، وبين قوات العدو ، أو بمعنى أدق : كيف تتجاهل هذا الفارق بين ارادة العرب وارادة العدو ، اذا سلمنا جدلا بأن للعرب ارادة كانت ابان تلك المعركة ؟

ان ارادة العرب يومئذ لم ترتبط ـ على الاطلاق ـ بارسال الجيوش العربية الى ارض المعركة ، فقد كان ارسال هذه الجيوش وفق خطة أو مؤامرة نسج خيوطها الاستعمار الصليبي ، واستسلم لها الحكومات العربية التي لم تكن تملك سوى الاستسلام ، اذن فارادة العرب لم ترتبط بدخول الجيوش العربية المعركة ، وانما كانت وثيقة الارتباط بخطب الزعماء الرنانة ، والتصريحات الجوفاء ، والمؤتمرات الصاخبة ، التي حققت فيها البطون كل أهدافها دون ان تحقق العقول شيئا من اهدافها لسبب بسيط هو أنه لم تكن هناك أهداف ...

وحتى العقيدة القومية ـ فضلا عن العقيدة الدينية لم تكن من النضوج بحيث تحدث تأثيرها في مسار المعركة ، ويجب ان نضع في الاعتبار أن بضعة الألوف من الشباب المسلم الذي أسهم في المعركة تطوعا ، قد أثبتت وجودها ، وليس مثل هذا القول ملقى على عواهنه ، بل بشهادات المراقبين العسكريين من غير العرب ، فهذا الشباب المسلم ـ ولم يتطوع غير مسلم ـ ذهب الى المعركة حاملا عقيدته قبل أن يحمل سلاحه ، وانضم اليه عناصر من القوات العاملة تميزت بغيرتها الدينية ، لذلك أثبت هؤلاء وأولئك وجودهم ..

وعلى الطرف الآخر نجد لليهود ارادة تجسدت فيها اهدافها منذ أول مؤتمر صهيوني عقد في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ :

يقول اللواء الركن ، محمود شيت خطاب في مؤلفه : « أهـداف اسرائيل التوسعية » :

« وبعد ايام من اختتام هذا المؤتمر ، كتب هيرتزل ــ الداعية الاول للصهيونية ــ في مذكراته يقول : « لو أردت أن الخص أعمال مؤتمر بال في كلمة واحدة ــ وهذا ما لن أقدم على الجهر به ــ لقلت : في مدينـة بال أوجدت الدولة اليهودية ، ولو جهرت بذلك اليوم ، لقابلني العالم بالسخرية ، في غضون خمس سنوات ربما ، وفي غضون خمسين عاما ، بالتأكيد ، سيراها الجميع ، ان الدولة قد تجسـدت في ارادة الشعـب لاقامتها » .

ولم تمض فترة وجيزة على عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بال ــ كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب ــ حتىأصبحللصهيونيه منظماتها ومؤسساتها الفعالة : اللجان التنفيذية ، واللجان الاستشارية ، والمصرف اليهودي للمستعمرات ــ ١٨٩٨ ــ وكذلك لجنة الاستعمـار ــ ٨٩٨ ــ والصندوق القومي اليهودي ــ ١٩٠١ ــ والمقصـود بلجنـة الاستعمار : استعمار الارض في فلسطين بالشراء والاستيلاء ، أما الهدف من انشاء هذه المؤسسات والمنظمات واللجان ، فهو تمويل عملية استعمار فلسطين وتنظيمها وربطها بالجهود الصهيونية الشاملةلتنفيذ أهداف مؤتمر بال » ..

ولم يكن من قبيل المصادفـة أن يتحقـق ما قالـه المؤسس الاول للصهيونية اثر مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، من أنـه في غضون خمسين سنـة بالتأكيد سيرى العالم دولة اسرائيل ، وانما كان وفـق خطط محكمـة ، ومناهج مدروسة ، يمزج بينهما ارادة جادة ، فقد جاء في مقررات المؤتمر : ان غاية الصهيونية ، هي خلق وطن للشعب اليهودي بفلسطينيضمنهالقانون الدولي ، وان المؤتمر يرى في الوسائل التالية الطريق الى تحقيق هـذه الغاية :

● اولا : العمل على استعمار فلسطين بالعمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة ••

● ثانيا : تنظيم الصهيونية العالمية ، وربطها بمنظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد ••

● ثالثا : تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيته •

● رابعا : اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية ••

ويلفت اللواء الركن محمود شيت خطاب الأنظار الى شيء بالغ الأهمية ، لا أعتقد أن هذا الشيء جال بأذهاننا ـ نحن المشتغلين بقضايا الاسلام وشعوبه ـ فيذكر في كتابه القيم : « أهداف اسرائيل التوسعية في البلاد العربية » أن الصهيونية العالمية تطبق مخططا رهيبا مدروسا لتحقيق اهدافها التوسعية ، ومن يمعن النظر في مخططها ويفكر مليا بانجازاته ، يجد ان الصهيونية العالمية تسير سيرا حثيثا نحو تحقيق أهدافها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية •

● في عام ١٨٩٧ م عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بال السويسرية حيث أقر هذا المؤتمر دستور الصهيونية العالمية لتحقيق دولة اسرائيل ، وأنشأ المنظمات السياسية والاقتصادية واللجان لوضع هذا الدستور في حيز التنفيذ ••

● وفي عام ١٩٠٧ بدأت هجرة اليهود المنظمة الى فلسطين ، وبدأ انشاء المستعمرات الصهيونية على أرض فلسطين حسب خطة مرسومة •••

● وفي عام ١٩١٧ صدر وعد بلفور وهو مكسب سياسي كبير للصهيونية العالمية ، لأنه يسر لها الدعم السياسي المنشود من أكبر دولة استعمارية في حينه وهي بريطانيا ••

● وفي عام ١٩٢٧ زادت كثافة الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وزاد عدد المستعمرات على الارض الفلسطينية ..

● وفي عام ١٩٣٧ بدأ انشاء القوات النظامية لليهود في الارض المقدسة ..

● وفي عام ١٩٤٧ صدر قرار التقسيم الذي أقرته المنظمة الدولية ، فأصبح للصهيونية حق شرعي معترف به دوليا في انشاء وطن قومي لليهود في جزء من فلسطين ..

● وفي عام ١٩٥٧ ـ أي بعد العدوان الثلاثي في أواخر عام ١٩٥٦ على مصر ـ انطلقت التجارة الاسرائيلية عبر خليج العقبة الى آسيا وافريقيا ، وأصبحت اسرائيل تمتلك حرية الملاحة في هذا الخليج مستندة على ميناء ايلات الاسرائيلي .

● وفي عام ١٩٦٧ استولت اسرائيل على الضفة الغربية من الاردن ، وعلى قطاع غزة ، وصحراء سيناء ، حتى قناة السويس من الجمهورية العربية المتحدة ، وعلى الهضبة السورية المسيطرة سيطرة تامة على شمالي اسرائيل ، والتي لها اهمية « استراتيجية » خاصة بالنسبة لمصير سورية ولبنان ..

ومن الملاحظ هنا ـ كما يشير اللواء الركن ـ ان اسرائيل تحقق كل عشر سنوات هدفا حيويا من أهدافها المرسومة ..

هذا هو العدو : ارادة جادة ، وتخطيط سليم لا تسرع فيه ولا ارتجال ..

فماذا كانت ارادة العرب والمسلمين ؟ لا شيء على الاطلاق .. !

فاذا تساءلنا : ألم يحس العرب والمسلمون في العالم بأول مؤتمر صهيوني عالمي ، وقراراته ومنطلقاته ؟

والحقيقة ان مثل هذا السؤال مما لا يحتاج في الاجابة عنه الى اجهاد ذهني أو ارهاق في التفكير ، فالعرب والمسلمون لا يمكن ان يكونوا قد أحسو بالمؤامرة التي نسجت خيوطها في مؤتمر بال منذ ثلاثة ارباع قرن من الزمان ، وحتى لو فرضنا جدلا أنهم قد أحسوا بالمؤامرة ، فلا بد أن احساسهم قد تحول الى لامبالاة ، فالتاريخ لم يسجل لهم أي تحركات لمقاومة المؤامرة ، اللهم الا خطب بعض الزعماء التي تتحول الى تشنجات جوفاء ، سرعان ما تذوب في ذرات الهواء ، والمؤتمرات الصاخبة التي تسمع بها جعجعة ولا ترى طحنا ..

الصهيونية العالمية اثر انتهاء المؤتمر الاول بدأت تعمل ، لم تهدأ لحظة واحدة ، ولم يكن عجيبا ، ان تسافر عام ١٩٠٣ لجنة الى مصر عرفت باسم « اللجنة الصهيونية » كان هيرتزل ضمن اعضائها . فقابلت اللورد كرومر المعتمد البريطاني الذي تجاوب مع اللجنة ، فأرسل معها مندوبا يمثله في هذه اللجنة الصهيونية — كما يذكر اللواء الركن محمود شيت خطاب — وكان ان قصدت تلك اللجنة سيناء ومنطقة العريش لدراسة المنطقة على الطبيعة والبحث عن مدى ملاءمتها للاستيطان الجماعي ..

ومن المهازل الأليمة المضحكة — وشر البلاء ما يضحك — ان الحكومة المصرية يومئذ اعلنت انها لا تستطيع ان تمنح هذا الامتياز لليهود — لا على أساس رفض المؤامرة ومقاومتها — وانما على أساس ان المنطقة المقترح استيطانها جرداء قاحلة ليس بها ماء ، وهي بالتأكيد ، ستحتاج الى مياه النيل في وقت تحتاج فيه مصر الى كل قطرة من قطرات النيل » أرأيت سياسة تفوقت في سذاجتها على مثل هذه السياسة ؟

لكن هل تراخت ارادة الصهيونية ازاء هذا الفشل ؟

يجيب اللواء الركن محمود شيت خطاب :

« والواقع هو ان الصهيونية لم تتخل لحظة عن مطامعها في ان تمتد دولة اسرائيل حتى الضفة الشرقية لقناة السويس ، وقد بذلت في الفترة الواقعة ما بين وعد بلفور عام ١٩١٧ ونهاية الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٤٨ ، جهودا متواصلة لتحقيق مطامعها في سيناء ، فقد كان الصهاينة حريصين اشد الحرص على اقامة حاجز يفصل اجزاء الوطن العربي بعضها عن بعضها الآخر ، وعرقلة الوحدة العربية بأي ثمن » ••

لقد حصل اليهود في اليوم الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ على وعد بلفور من بريطانيا اكبر دولة استعمارية في العالم يومئذ ، وهو الاعتراف بانشاء وطن قومي لهم ، فهل اكتفوا بهذا الوعد من دولة تملك القدرة على تحقيقه لهم ، ثم راحوا في اغفاءة عميقة حتى ينتهي الانتداب البريطاني من ارض فلسطين ؟

مثل هذا السؤال لا تحتاج الاجابة عنه الى مجرد التفكير ، فقد اجابت عنه الاحداث التاريخية التي سجلت نشاطا ملموسا لليهود ، نشاطا متصلا لم يعرف اللامبالاة ولا الارتجال ••

فماذا فعل العرب الذين تصدوا وحدهم لقضية فلسطين ، دون ان يسمح دعاة القوميات من تجار السياسة منهم ، بشد الدول الاسلامية الى هذه القضية التي هي قضية اسلامية في المقام الاول ؟

كل ما فعله العرب : انهم أجادوا فن التصاريح ، وحرصوا على الاحتفال كل عام بذكرى وعد بلفور « المشؤوم » كما كان يحلو لهم — ولا يزالون — ان يطلقوا لفظ « المشؤوم » على هذا الوعد كلما احتفلوا بذكراه » •

ولو أننا أحصينا الخطب الرنانة ، والمقالات الصاخبة التي جادت بها

قرائح الكتاب والخطباء العرب منذ وجدت مشكلة فلسطين على الطبيعة حتى اليوم ، لكانت في حاجة الى آلاف المجلدات ، ولا يمكن ان نقيس العمل بالنسبة للقول ، لأننا اذا نحن قيمنا العمل كانت النتيجة صفرا ..

وأتقن العرب فن التهريج ، الى درجة مضحكة ، كأن القضية الحيوية بالنسبة للعرب قبل غيرهم ، ليست الا تمثيلية هازلة غير هادفة ...

أذكر ان الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي استاذ الفلسفة المعروف، كتب في أحد الصحف عن مؤتمر عقده سفراء العرب قبل عام ١٩٤٨ في برن عاصمة سويسرا ، خاص بقضية فلسطين ، ووقف مندوب كل دولة عربية على منصة الخطابة كأنه واعظ فوق منبر ، ليخطب خطبة طويلة مؤثرة ، وجاء دور مندوب اليمن « السعيد » فأخذ يحملق في المجتمعين ، كأنما يتفرس في وجوههم ، وظل هكذا بضع عشرة دقيقة صامتا عابس الوجه ، ثم تناول بيمينه خنجره المعلق بجانبه ، ثم طوح به في الهواء يمينا وشمالا ، ثم وضعه في مكانه وترك المنبر لغيره بين تصفيق العرب وضحكات الاجانب من الصحفيين وغيرهم ..

والصحافة العربية عندنا تسهم بنصيب وافر في فن التهريج ، فعندما اعلنت حالة الطوارىء في بعض البلاد العربية قبل معركة عام ١٩٦٧ ، نشرت احدى الصحف خبرا مضحكا ، ان دل على شيء فانما يدل على اننا لا يمكن أن نكون جادين بحال من الاحوال ، قالت الصحيفة : « ان شابا اعمى ذهب الى احد مراكز التطوع للقتال ، وطلب بالحاح أن يقيد اسمه ضمن المتطوعين ، فلما سئل : كيف يتسنى لك ان تشترك في عمليات القتال ، وأنت لا تبصر ؟ أجاب بمنتهى البساطة : سأتولى مسح البلاط لأوفر جنديا عاملا » .

لا أعتقد ان مثل هذه الصحيفة لم تنشر مثل هذا الخبر الا بقصد

التسلية ، والا كان أجدر بها أن تصدر في بيئة أخرى ، هناك داخل أسوار مستشفى ••• فلم نكن نحن في حاجة في معركتنا الى زيادة في الكم البشري ، كما ان ذلك الأعمى المزعوم ، يعلم ان ميدان المعركة ليس فيه بلاط يحتاج الى مسح ••

وتتابعت الصحف تنشر كلاما لا يمت الى الجدية بأدنى صلة ، فاحداها تنشر ان اطفالا في العاشرة والحادية عشرة ، قصدوا مراكز التطوع وأصروا على أن يتطوعوا للقتال ، وأخرى تنشر أن عجوزا تجاوز التسعين قصد هو الآخر مراكز التطوع وأصر على التطوع للقتال •

ان الذين يجيدون الكلام لا يجيدون الصمت ، والذين لا يجيدون الصمت لا يجيدون العمل ، لأنهم يفرغون طاقاتهم في الكلام الذي لا يكلفهم جهدا ، ولا يبقي منها للعمل شيء يذكر ••

لقد أعطينا فلسطين ألوف الخطب ، وألوف الأغاني ، ومئات المسرحيات ، وعشرات المؤتمرات • وفي الحقيقة لم نعط القضية شيئا ••

وأخيرا ، ليس عيبا ان نعرف أخطاءنا ، ولكن العيب كل العيب في أن نتجاهل اخطاءنا •• !!

* *

ولنعد الى القضية من أولها ، فقد استولت مشكلة فلسطين على مشاعر القلم حتى كاد ينسى نفسه وسط زحمة احداث المشكلة ، والحقيقة اننا لم نبتعد عن القضية ، ففلسطين جزء لا يتجزأ من القضية الكبرى ، قلت في البداية : « أصبح من المألوف لأي كاتب مسلم ان يضع الشعب العربي المسلم بفلسطين ، في مقدمة الشعوب المسلمة التي واجهت ــ ولا تزال تواجه ــ عمليات الاستنزاف والاستقطاب » هذا اذا كان الكاتب المسلم مهتما بقضايا كل الشعوب المسلمة ، والا فالقضية الفلسطينية تستوعب كل الجهد •• وكفى ••

وأي مسلم لا ينكر أن قضية فلسطين جزء لا يتجزأ من القضية الاسلامية ككل ، لكن ليس معنى هذا ان تتجاهل بقية قضايا الشعوب الاسلامية ، لا لشيء الا لأن قضية فلسطين أصبحت معرضا لاستعراض العضلات بالنسبة للزعماء ولا سيما زعماء المنطقة ، وبالنسبة للكتاب والخطباء والشعراء ، ولأن العنصرية تجد أرضا خصبة ، بينما الاسلامية كتب عليها أن تسير في طريق مسدود ، فالزعماء والكتاب والشعراء يرفضون أن تكون القضية الفلسطينية قضية اسلامية ، على الرغم من أنهم يستغلون الارض المقدسة • أن المسجد الاقصى كعامل أساسي في الجهاد من أجل فلسطين ، ولا جدال في أن الارض المقدسة والمسجد الاقصى ملك لسائر المسلمين في بقاع الارض كلها ••

هذه مسألة تحتاج الى مناقشة ، ليس مجالها هنا ، وحتى لا تضيع القضية الاساسية التي نحن بصددها في متاهات المناقشة ، يستحسن أن نركز على موضوعنا في كلمات معدودة ، فانه لما يسعد كل عربي ومسلم أن تستيقظ أحاسيسنا لمأساة فلسطين وشعب فلسطين العربي المسلم ، لكنه مما يحز في كل مسلم صادق الغيرة على دينه وأمته المسلمة ، أن تتبلد أحاسيس المسلمين تجاه مآسي شعوب مسلمة • هذه الأحاسيس التي طالما تبلدت من قبل في اكثر من موقف ••

ولسنا ندري اذا كان من حق الكاتب الاسلامي أن يتساءل مجرد التساؤل : أين كان العالم الاسلامي من مأساة أكثر من مائة مليون مسلم ، واجهوا في ظل الحكم الشيوعي أعنف عمليات الاستنزاف والاستقطاب وأحطها ؟

ان بين يدي الآن نص المذكرة التي رفعها رئيس جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الاسلامية بالقاهرة الى الأمم المتحدة ، خاصة بمأساة أكثر

من مائة مليون مسلم في أحوال وظروف تفوق ـــ كما تقول المذكرة ـــ في فظاعتها وقسوتها أظلم عصور التاريخ الغابرة •••

ان هذا البيان مليء بما تقشعر منه الابدان ، فاذا أردت أن تلخصه في كلمات موجزة ، فحسبك ما جاء في مقدمة البيان من : أن الاجيال المقبلة ستستحي وتخجل من مدنيتنا الحديثة المعاصرة ، ومن نظمنا السياسية والخلقية والفلسفية جميعا ، عندما تذكر هذه الظروف القاسية التي يعيش فيها مائة مليون من بني الانسان دون ان تتحرك الهيئات العالمية لنجدتهم » ••

ويجب ان نضيف الى هذه الكلمات ان الاجيال المسلمة المقبلة ستخجل من أمتنا الاسلامية الحاضرة ، بل سيتأكد لدى هذه الأجيال ان المسلمين الذين بلغ تعدادهم أكثر من سبعمائة مليون مسلم ، كانوا أهون من أن يقام لهم وزن •• ولا أظن ان التاريخ سيلتمس أدنى عذر للشعوب المسلمة التي هي غثاء كغثاء السيل ، لأنها كانت محكومة بالحديد والنار ، وكان كيانها في قبضة حكوماتها ، ولحكوماتها مصالحها الذاتية وليس منها ـــ بالطبع ـــ الاحساس بمآسي أي شعب مسلم ••

وحتى لا ننسى ما تضمنه هذا البيان مما تفزع له النفس ، نعرض طرفا مما جاء في البيان ، فقد أشار الى :

● الابادة الجماعية أو نفي جزء من الشعب أو الشعب كله من وطن آبائه وأجداده الى سيبيريا او الى مناطق اخرى حيث يفقدون الصلة بوطنهم الاصلي ويضيعون بمرور الزمن •• قتل الشيوعيون في التركستان وحدها عام ١٩٣٤ مائة الف مسلم من اعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين ••• وبين عامي ٣٧ ـــ ٣٩ ألقت روسيا القبض على نصف مليون مسلم ، وعددا ممن استخدمتهم في الوظائف الحكومية ، ثم أعدمت فريقا

وأرسلت فريقا آخر الى مجاهل سيبيريا •• وقد هرب من التركستان منذ عام ٩١٩ حتى اليوم مليونان ونصف مليون مسلم • وقد أبادوا في القرم عام ٩٢١ مائة الف مسلم بالجوع وأرغموا خمسين الف مسلم على الهجرة في عهد بلاكون الشيوعي الهنغاري الذي نصبوه رئيسا للجمهوريات القومية الاسلامية ، بل في عام ٩٤٦ نفوا شعبين اسلاميين كاملين وهما شعب جمهوريتي القرم وششن الى مجاهل سيبيريا وأحلوا محلهم الروس ، وما حدث في شرقي اوروبا وبخاصة يوغوسلافيا لا يقل فظاعة عما حدث في الاتحاد السوفياتي ، فأبادوا عقب الحرب الثانية مباشرة في يوغوسلافيا ٢٤ ألف مسلم ، ١٥ ألفا من مقاطعة طوزلا ، ٣ آلاف في مدينة سرابيفو ، ٦ آلاف من ماكيدونيا وكرسوفا •

● هدم المساجد وتحويلها الى دور للهو ، واستخدامها في غايات أخرى واغلاق المدارس الدينية ،وقد بلغ مجموع هذه المساجد في التركستان وحدها ٦٦٨٢ منها اعظم المساجد الأثرية ، أما مجموع المدارس والكتاتيب التي أغلقوها فقد بلغ في التركستان وحدها ٧٠٥٢ مدرسة وكتابا •

● قتل رجال الدين أو نفيهم أو الحكم عليهم بالاشغال المؤبدة أو منعهم من الحقوق السياسية ، بل والحقوق الانسانية ، هذا وقد أحرقت المصاحف الكريمة في الميادين العامة ، ومنع المسلمين من التمتع بالنظم الاسلامية في دائرة الاحوال الشخصية ، وخروج الأسرة الاسلامية من دائرة توجيه الشريعة الاسلامية ••

هذا الى جانب نهب البلاد الاسلامية ، ونقل ثرواتها الى مقاطعات اخرى ، وتمزيق اوصال كل بلد اسلامي ، وخلق قوميات مستقلة على أساس لهجات لغة واحدة بقصد تشتيت المسلمين من نفس الجنس واللغة ، وخلق منازعات مصطنعة بينهم ، كما قسموا تركستان الى تسع جمهوريات على هذا الاساس ••

هذا جانب من بيان جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الاسلامية الذي رفعته الى الأمم المتحدة ، وما سردته المذكرة عن الهمجية المخجلة في القرن العشرين ليس الا طرفا يسيرا من الحقيقة المفزعة ..

ولسنا هنا بصدد مناقشة نتيجة هذه المذكرة ، أو صداها بين أروقة الامم المتحدة ، لكن هناك اكثر من وجه للتساؤل :

فالمذكرة رفعت الى الامم المتحدة في يناير ٩٦٥ ، أي بعد ان تمت عمليات الاستنزاف والاستقطاب والتصفية الدموية ومضى على ذلك اكثر من عشرين عاما ، ويبدو ان الجماعة الموقرة أحست لأول مرة بالفراغ الممل الذي تعيشه ، فراحت تشغل حيزا منه ، بأي عمل كان ، او يبدو ان الجماعة الموقرة عندما لم تجد من يصرخ فيها : « صح النوم » قررت أن تتوهم أنها قد صحت من نومها ...

ولا اعتقد ان الجماعة الموقرة تتجاهل ان هيئة الامم المتحدة لا تملك من أمرها شيئا ، وأن اللجوء اليها بالشكاوي ، هو كاللجوء بالشكاوي الى ضريح السيد البدوي ، يحملها اليه السذج والبسطاء ... ولو كان هناك من يحس بما أسمت نفسها « جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الاسلامية » لاعتبرنا مذكرتها لونا من الاستهلاك المحلي ..

واذا كان من حق جماعة الكفاح الموقرة علينا ان لا نغمطها حقها من التقدير لانها تذكرت أخيرا الشعوب المسلمة التي استنزفت دماؤها وأموالها على مرأى ومسمع من الامم المتحدة ، وقبلها عصبة الامم ، ولأن مذكرتها ــ في الحقيقة ــ كانت جريئة ، فنحن أيضا مدينون بالفضل للاستاذ عبدالله التل الذي تكرم فسجل المذكرة في نهاية كتابه الذي صدر اخيرا : « الأفعى اليهودية في معاقل المسلمين » وقد فعل خيرا ، ولولاه لما

شرفنا بقراءة المذكرة ، فلا أظن ان صحيفة واحدة ضحت وأشارت اليها مجرد الاشارة ..

وقد أحسن الكاتب في اختيار هذه المذكرة ليختم بها كتابه القيم الثائر الذي ضم بين دفتيه أدق المعلومات وأخطرها عن عمليات الاستنزاف والابادة التي تعرضت لها الشعوب الاسلامية ، وعليها بصمات الأفعى اليهودية ، وكان للموضوع الذي تعرضت له مذكرة جماعة الكفاح زهاء ثلاثين صفحة ، أقل ما توصف به أنها أكثر من مروعة .. واذا كانت المذكرة قد أجملت وبالغت في الايجاز ، فان كتاب « الأفعى اليهودية » قد فصل القضية تفصيلا وعني بالارقام والاحصائيات عناية دقيقة ، لا بالنسبة لكارثة الاسلام وشعوبه في مناطق النفوذ الشيوعي ، بل أيضا في كل ما تعرض له الكتاب من كوارث حلت بالاسلام والمسلمين في كل مكان ...

ان كتاب « الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام » يثير عدة تساؤلات، حول ما عرض له من قضايا الدول الاسلامية والشعوب المسلمة التي تعرضت لعمليات الاستنزاف والاستقطاب والابادة في القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر ، والكتاب يستتبع بدقة بصمات الأفعى اليهودية على هذه العمليات ، حرصا منه على الالتزام بعنوان الكتاب ، مع أن بصمات الصليبية ليست أقل أثرا من بصمات الأفعى اليهودية .. !

أما هذه التساؤلات فيمكن الاهتمام بأربعة تساؤلات منها :

أولا — أين كان العالم الاسلامي من عمليات الاستنزاف والاستقطاب .. ؟

ثانيا — لماذا لم نلمس أي دور يذكر للأزهر وعلماء الدين تجاه هذه العمليات ؟

ثالثا — مامدى مسؤولية المسلمين عن الدول الاسلامية التي ابتلعت،

وفي مقدمتها : فلسطين ، واريتريا ، وزنجبار ، وكشمير وحيـــدر آباد ، وغيرها ؟

رابعا ــ الى متى يظل العالم الاسلامي في غفلته عن المأساة التـــي يعيشها الاسلام وشعوبه وقضاياه ، يلهو بالمؤتمرات الاستهلاكية والروابط التي لم تؤسس الا للتسلية ليس الا ؟

* *

ان كتاب « الأفعى اليهودية » مصدر ذو اهمية خاصة ، فالمؤلف مسلم عربي لا يفصل بين الاسلام والعروبة دون تطرف ، وقائد عسكري لــه ماضيه في المعركة الفلسطينية عام ١٩٤٨ ، ولم يلوث ضميره السياسي ما لوث غيره من المشتغلين بالسياسة ؛ أما الكتاب فلم تتسلل اليه العاطفة ، لأن واقعية الأحداث التي مرت بالمسلمين ، واعتماد المؤلف على الارقام من المصادر الموثوق بها ، هذا وذاك حالا دون ان يتحول الكتـــاب الى عبارات انشائية فضفاضة ، او الى خطب منبرية مثيرة ، لذلك يحس القارىء بأنني أرجح الاعتماد على هذا الكتاب كمصدر هنا في سلسلة العمليات الاستنزافية التي أزالت من الوجود دولا اسلامية ، وأطاحت بشعـــوب مسلمة برمتها عن طريق الابادة أو الاذابة .

* *

« لقد سهلت الخطة الماكرة للهنـــادك ابتـــلاع امارة حيدر أبـــاد الاسلامية ، وأحالت حاكمها المسلم نظام حيدر أباد الى المعاش ، وصادرت أملاكه التي يصعب تقديرها لأنه كان اغنى اغنياء العالم .. وغدت مأساة حيدر أباد رمزا للظلم الهندوكي الـــذي تدير دفته ضـــد الاسلام أحزاب الهندوك المتعصبة : « هند مهاسبا وجن سنغ والاريا سماج » تلك الاحزاب

التي تسعى لاستئصال شأفة الاسلام والمسلمين أملا في تحقيق احلامهم باعادة الهندوكيه كما كانت قبل الاسلام » ..

« وتخلى الانجليز عن السلطة ومسؤولية حفظ الامن في الهند بطريقة أدت الى وقوع مذابح كثيرة ذهب ضحيتها اكثر من مليون مسلم، وشرد من نتيجتها تسعة ملايين هربوا من الذبح ولجأوا الى باكستان » .

كما « خلق الانجليز مشكلة كشمير ، فبجرة قلم أحدث المستر رادكليف «يهودي» تقوسا صغيرا على خط الحدود ، ترتب عليه العدوان الهندوكي على شعب كشمير المسلم منذ أغسطس عام ١٩٤٧ حتى يومنا هذا » .

ويقف المؤلف بنا قليلا عند مأساة كشمير ، فهي ذات موقع استراتيجي مهم ، وعدد سكانها اربعة ملايين ٧٧ ٪ منهم مسلمون ، ولقد حكمها المسلمون منذ ١٥٨٧ ، وظلت كذلك الى أن باعها الانجليز الى مهراجا هندوكي بمبلغ مليون ونصف مليون دولار ، وحين استقلت الهند وقامت دولة باكستان ترك الخيار للامارات المستقلة بالانضمام الى الهند أو الباكستان ، ولم تنفذ الهند تعهداتها بترك الخيار لشعوب الامارات ، وانما سارعت الى ضم امارات اسلامية واقعة في داخل الهند ، منها حيدر أباد وجوناكدة ، ومنبادادر ومنجرول وبهوبال ، ثم أوعزت الى حاكم كشمير الهندوكي حفيد المهراجا الذي اشترى كشمير وشعبها المسلم من الانجليز ، أن يعلن انضمام كشمير الى الهند ، وكانت مؤامرة دنيئة مكشوفة ... ومنطق حكومة الهند ضيق ظالم موحى به من الخبراء والمستشارين اليهود والانجليز ، وهو مبني على تناقض مفضوح ، ذلك لأن الحجة التي ضمت بها الامارات المسلمة مثل حيدر أباد ، كانت تدور حول اكثرية الشعب

الهندوكية ، أما الحجة في ضم كشمير فتدور حول ارادة الحاكم الهندوكي نفسه ، ولا اعتبار لارادة اكثرية الشعب المسلمة » ...

ليس في مقدور كاتب ان تتحمل اعصابه الحقائق المرة في مأساة كشمير ، فالمأساة شبيهة الى حد كبير بمأساة فلسطين مع فارق واحد ، هو أن مأساة فلسطين تجد من العرب من يذود عن قضيتها بحكم العصبية العربية ، أما مأساة كشمير فلا تجد من المسلمين من يحرك لها ساكنا الا شعب باكستان بحكم اهمية كشمير بالنسبة له ، اما أوجه الشبه فما أكثرها ، أبرزها عمليات الاستنزاف والاستئصال التي تجري هنا وهناك، فالقوات الهندية بقيادة المهراجا في كشمير أوقعت ـ كما يشير الى ذلك كتاب « الأفعى اليهودية في معاقل المسلمين » ، بالمسلمين مذابح كثيرة ، ودلت عمليات الاحصاء على ان القوات المتوحشة المتعطشة لسفك الدماء قد أبادت ٢٣٧ ألفا من مسلمي كشمير الاعزل ، ولم يزحف لنجدتهم سوى قبائل البانان الشجاعة المسلمة لانقاذ الشعب الكشميري المسلم الأعزل ، وبالاضافة الى المجازر فقد نزح عن كشمير نصف مليون مسلم ، لجأوا الى باكستان هربا من وحشية القوات الهندية وظلمها ..

ومن أوجه الشبه ، انالامم المتحدة ـ كما يذكر المؤلف ـ قد تدخلت في العشرين من يناير عام ٩٤٨ بين الطرفين المتنازعين : الباكستان والهند ، ومنذ ذلك التاريخ الى يومنا هذا ، جرت اربع عشرة محاولة من جانب الامم المتحدة لحل المشكلة كانت باكستان فيها جميعا توافق على قراراتها التي تنص على وجوب استفتاء كشمير لتقرير مصيره ، بينما كانت حكومة الهند تماطل وتسوف وتخادع وتكذب ، كمايفعل اليهود في الامم المتحدة حتى يومنا هذا ، بل ان نهرو نفسه ... حين اعلن المهراجا الهندوكي انضمامه الى الهند .. صرح بقوله :

« لقد اعلنا ان مستقبل كشمير يجب ان يتقرر نهائيا بواسطةالشعب، وهذا الوعد الذي قطعناه على انفسنا ليس وعدا لشعب كشمير — وحسب — بل للعالم كله ، ونحن لن نتراجع ، ولا يمكننا ان نتراجع عن هذا الوعد » •• !

ثم مات نهرو — داعية السلام العالمي والحياد الايجابي ،بعدسبعة عشر عاما من صدور هذا الوعد ، دون ان يفي بوعده ، ويسمح باجراء استفتاء ، وبالطبع ، لا يزال الوعد حبرا على ورق أو كلمات في الهواء كما يقولون •• !

ويثير الكاتب الاستاذ عبدالله التل مسألة العلاقات الودية بين الهند واسرائيل ، فيضع النقط على الحروف ، ويذيع معلومات على جانب من الأهمية ، لم تكن مجهولة الا على عامة الشعب العربي ولا سيما القابعون في بلادهم ، الذين ربما لم يعلموا حتى اليوم ان اول وفد صحفي زار اسرائيل عند قيامها هو وفد الصحافة الهندية •••

ويحيلنا المؤلف الى محاضر جلسات البرلمان الهندي ، وينقل الينا نص تصريح لنهرو : « اناسرائيل تعمل كدولة ولا يمكن تأجيل الاعتراف بها الى أجل غيرمسمى » • كما ينقل الينا نص تصريح للنائب الهندي « كامات » في جلسة ١٥ اكتوبر ١٩٥٠ :

« ان اهتمام الحكومة الهندية بالعرب ليس بدافع الحب ، بل بدافع اعتبارات الامور السياسية » ••

يقول المؤلف :

« ومن ناحية العلاقات الدبلوماسية بين الهند واسرائيل ، فقد حاول زعماء الهند بذل ما في وسعهم لخداع الدول العربية واقناعها بأنالعلاقات بين البلدين لا تتعدى التمثيل القنصلي ، وهي في الواقع تمارس مع اسرائيل علاقات دبلوماسية عن طريق اسرائيل في بومباي التي تعمل بصورة فعالة

وناجحة كأية بعثة دبلوماسية كاملة ، وهدفها الرئيسي هو تشجيع الصداقة الهندية اليهودية » ..

ويشير المؤلف الى ما ذكرته جريدة « واشنطن بوست » في ٣ أغسطس عام ٩٦٣ ، من ان قنصلية اسرائيل تستخدم كقاعدة للعمليات الدائبة ، للتأثير على الشخصيات البارزة ، وزعماء الرأي العام ، وانها نجحت في ترتيب زيارات عديدة لشخصيات هندية لاسرائيل ، مثل الزيارة التي قام بها سكرتير حزب نهرو الحاكم ، والزيارة التي قام بها سكرتير حزب الشعب في مجلس النواب .. وفي فبراير ١٩٥٢ زار الهند الدكتور ايتان وكيل الخارجية الاسرائيلية وحل ضيفا على الحكومة الهندية ، وفي عام ٩٥٦ زار الهند وزير خارجية اسرائيل نفسه ..

وأما ما هو ادهى وأمر فان مجلة يهودية تصدر في بومباي اسمها « الهندواسرائيل » يكتب بها ــ كما يذكر المؤلف ــ الزعماء الهندوك الحاقدون على الاسلام والعروبة ، وكثيرا ما كتب قنصل اسرائيل داعيا الى تقوية روابط الصداقة بين اليهود والشعب الهندي ..

وازاء هذا كله .. فلم يكن مستغربا ان يوجد تعاون بين الهند واسرائيل في المجال العسكري ، والمؤلف يشير هنا الى الزيارة التي قام بها الضابط اليهودي « شالتيل » الى الهند ، حيث عقد عدة اجتماعات مع وزير الدفاع الهندي ومع الجنرال « شودري » رئيس أركان حرب الجيش الهندي ، وعقد معهما صفقة لتزويد الهند بأسلحة اسرائيلية ، وكان ان قام الكولونيل الهندي « ساندهي » بزيارة اسرائيل لتفقد المعدات العسكرية اليهودية لحساب الجيش الهندي ... !

ليس هناك أدنى ريب في أن الهند الهندوكية تمثل احدى الكبر في

عمليات الاستنزاف والاستقطاب والابادة ضد الشعب المسلم هناك ، والاستعمار الذي وضع خطة التقسيم لم يضعها اعتباطا ، فلا بد انه قد أيقن ان هذه الخطة ستكون كفيلة باستئصال الشعب المسلم في شبه القارة الهندية على ايدي الهند الهندوكية ...

ان خطة التقسيم مؤامرة كمؤامرة التقسيم في أرض فلسطين ، والا فكيف يستسيغ عقل أن يكون نصيب الدولة المسلمة شطرين : باكستان الشرقية ، وباكستان الغربية ، يفصل بينهما قطاع للهند طوله ألف كيلو متر ؟

فالغاية التي ابتغتها خطة المؤامرة كانت على المدى القريب أو البعيد هي انفصال شطري الدولة الباكستانية انفصالا تاما ، والهند جديرة بأن تلعب الدور الرئيسي في تحقيق هذه الغاية ، ومن روائها الاحقاد الصليبية والصهيونية معا ، وقد بدأت الهند منذ ربع قرن تلعب دورها في الظلام ، ثم كشفت عن نقابها في اواخر عام ٩٧١ ، فاستغلت حالة التوتر بين شطري الدولة المسلمة ، وتدخلت عسكريا الى جانب باكستان الشرقية ، حتى مكنتها من الانفصال ، واقامة حكومة مستقلة ، بل بالغت الهند فيبجاحتها فساقت الى الأسر من قوات حكومة الباكستان المركزية اكثر من مائة الف ...

والحجة التي طالما تذرع بها الاستعمار للتدخل في النزاع بين الاشقاء والاسلوب الذي سلكه الاستعمار الصليبي ممثلا في انجلترا وفرنسا للعدوان الغاشم على مصر عام ١٩٥٦ ، فافتعل نزاعا خطيرا يهدد الامن في المنطقة بين مصر واسرائيل التي بدأت الاشتباك ، ثم تدخل الاستعمار بقواته مدعيا العمل على استتباب الامن ، هو نفس الاسلوب الذي سلكته الهند الهندوكية ، فأشعلت نار الفتنة بين شطري الدولة المسلمة ، ثم

أوجدت لنفسها مبررا للعدوان ، وانتهت المأساة أو الكارثة في ايام معدودة • •

ولا مكان هنا لمثل هذا التساؤل :

اذا كانت الهند ــ في عدوانها ــ قد وجدت لدى الاتحاد السوفياتي مثلا ، تأييدا عسكريا وسياسيا وأدبيا ، فلماذا لم تجد الباكستان أي لون من ألوان هذا التأييد لدى امريكا وهي الدائرة في فلكها ، ولا لدى الصين الشعبية وهي المرتبطة بها ارتباطا وديا معروفا ؟

لا مكان هنا لمثل هذا التساؤل ، لأن منطق الامور بالنسبة لقضية دولة مسلمة ، يؤكد أن الكفر أمة واحدة فقد يتلف الشرق والغرب على أتفه الامور ، ولكنهما يتفقان على أمر فيه ضياع شعب مسلم ، أو اذلال دولة مسلمة ••

وعلى الرغم من ان اصابع الصهيونية قد تركت بصماتها على الفتنة ، وأن وفدا من باكستان الشرقية قد زار اسرائيل للاتفاق على صفقة اسلحة للاستعانة بها في عملية الانفصال ، الا أن العرب لم يعلنوا عن رأي موحد او موزع لمساندة الباكستان ، اما العالم الاسلامي ــ فكعادته ــ تعود ان يغط في نومه ، كأن الكارثة لا تهمه في قليل أو كثير •••

ولنفرض ان الحكومة المركزية في باكستان الغربية قد أخطأها التوفيق في سياستها تجاه باكستان الشرقية ، أفلم يكن هناك اسلوب آخر لعلاج المشكلة لدى الشطر المتوتر ؟

ولنفرض ان الحصول على علاج للمشكلة كان ضربا من المحال في عهد حكومة الرئيس السابق يحيى خان ، لكن الرئيس الجديد «موبوتو» قد عرض ــ من أجل الحفاظ على وحدة الدولة المسلمة ــ أن يتنازل عن

رئاسة الجمهورية لزعيم الانفصال « الشيخ مجيب الرحمن » أفلم يكن ذلك كافيا لانهاء المشكلة وتفادي الكارثة ؟؟

الحقيقة المرة ، ان مشكلة الباكستان — قبل الكارثة — لم تجد دولة كبرى ذات نفوذ تتدخل جادة للصلح والعلاج ، بل وجدت كل القوى المتباينة تتدخل لتصنع الكارثة ..

والحقيقة الأكثر مرارة انالمطامع الذاتية لدى شرذمة من زعماء الانفصال وفي مقدمتها شهوة السلطان ، كان لها اكبر العوامل في صنع الكارثة .. !!

وللحقيقة أيضا ، يجب ان نعترف — والأسى في نفوسنا — بأن باكستان الشرقية تحملت فوق ماتطيق من أساليب العنت والارهاق التي باشرها الحكم العسكري من باكستان الغربية ، كانت — ولا شك — هناك فوارق صارخة في المعاملة ، كانت تزكيها العصبية الاقليمية ، ولا يستطيع انسان ان يتجاهلما ارتكبه الجيش في باكستان الشرقية من فظائع يندى لها جبين الاسلام والانسانية ..

لكن الانسان — وهو ممسك بقلمه — يقف حائرا امام بضعة اسئلة لا يجد لها تفسيرا معقولا .

● لماذا ذهب وفد عسكري من باكستان الشرقية الى اسرائيل ليفاوض في معونة عسكرية اسرائيلية ، وذلك قبيل اندلاع الحرب ببضعة أسابيع ؟؟

انالمسؤولين كذبوا ان تكون هناك مباحثات بشأن صفقات اسلحة مع تل أبيب ، لكنهم لم يستطيعوا ان يكذبوا زيارة الوفد العسكري لاسرائيل ، كأن مجرد الزيارة الودية لاسرائيل ليست جريمة في حق الاسلام .. !

● ثم لماذا اعلن حكام باكستان الشرقية ـ بمجرد نجاح حركة الانفصال ـ أن دولتهم دولة علمانية ؟

أكان ذلك منهم مجاملة لجارتهم الهند التي أسهمت بأكبر من نصيب الأسد في نجاح حركة الانفصال ، وكذلك للاتحاد السوفياتي الذي لعب دورا في الكارثة لا يمكن تجاهله ، أم اغاظة للباكستان التي تعتبر نفسها دولة مسلمة ؟

يقول بعض المدافعين عن هذا الاتجاه : ان باكستان بأساليب العنف التي ارتكبتها ضد باكستان الشرقية ، كانت صورة سيئة للدولة المسلمة ، بل صورة مشوهة للاسلام نفسه ، فأرادت الدولة الجديدة ان تتخلى عن الشعار الاسلامي ، حتى لا يتوهم الرأي العام ان الصورة السيئة قد تتكرر في الدولة الجديدة ..

ولست ادري اذا كانت العبارة المألوفة « عذر أقبح من الذنب » تليق بمثل هذا المنطق ، أم اننا في حاجة الى تعبير جديد ؟

● ليكن ان باكستان كانت صورة سيئة للدولة المسلمة بل وللاسلام المغلوب على امره ، فلماذا لم تحاول .. « بنجلانيش » ان نقدم نموذجا طيبا للدولة المسلمة ، وصورة مشرقة للاسلام ؟

ان هناك سؤالا يطرح نفسه بنفسه :

● اذا لم تكن شهوة الزعامة قد لعبت دورها في حركة الانفصال ، فلماذا لم يعمد المسؤولون في باكستان الشرقية ـ بعد سيطرتهم على الموقف ـ الى الاكتفاء بانهاء النظام العسكري الذي كان قائما ، واليه ترجع كل الاسباب في صنع الكارثة ، وان يحل محله نظام مدني ديمقراطي ، يحفظ على وحدة الدولة كيانها على اساس من العدل والمساواة ؟

لا أظن الاجابة عن هذا السؤال في حاجة الى اجهاد ذهن ، فما كان لباكستان الشرقية ان تغلب لولا تدخل القوات الهندية ، وما كان للهند الخصم التقليدي لدولة الباكستان أن يبذل مثل هذه التضحيات للحفاظ على وحدة باكستان ، وليس للهند مصلحة أعز من تفتيت الدولة المسلمة ..

لقد وقعت الكارثة ، ووضع الغرب الصليبي والشرق الالحادي معا اللمسات الاخيرة للمأساة ، لكن هناك خواطر مؤسفة تتفاعل في الذهن ، وتلح على القلم ليسجلها بمداد الأسى والألم .

فالرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حذر الامة الاسلامية بقوله : « لا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض.. ! والدماء الغزيرة التي سالت فوق أرض الباكستان لا شك انها دماء مسلمة ، أفلم يكن من الأجدر بها ان تسيل فوق الارض المقدسة في سبيل الاسلام ومن أجل فلسطين العربية المسلمة » ؟

ثم ان باكستان ــ قبيل الكارثة ــ ألقت بجيش تعداده مائة الف فوق ارض باكستان الشرقية ليفتك بشعبها المسلم ، أفلم يكن من الاشرف لجزء من هذا الجيش المسلم ان يشهر سلاحه في وجه اسرائيل المعتدية ؟

ان الذي دفع الثمن الباهظ في النهاية هو الشعب المسلم الباكستاني ، الخراب والدمار ومئات الالوف من القتلى ، وعشرات الالوف من الاسرى، وهذا جزاء وفاق من الله عز وجل ، فهذا الشعب المسلم عجز عن ان يفعل شيئا ليحول دون الكارثة ، لأنه لم يكن في نيته ان يفعل شيئا ، لقد ظل دوره دور المتفرج ، وهو يرى اساليب الحكم الظالمة تفرض عليه في باكستان الشرقية والغربية على السواء ، ولم يشك لحظة في أن مثل هذه الاساليب سوف تؤدي يوما ما الى الكارثة ..

يبدو ان الاسلام في باكستان لم يكن الا مجرد شعار ، ويبدو ايضا ان الشعب المسلم في باكستان الغربية أو في باكستان الشرقية ليس مستعدا لأن يفيد من درس الكارثة •• والمستقبل وحده كفيل بتأكيد هذا الرأي •• !

* *

ان مجرد ذكر مأساة الاسلام في اثيوبيا مما تفزع له النفس ، وينهد له القلب ، أما قصة الجريمة الدولية في قضية ارتريا المسلمة ، هذه الجريمة التي أسهمت فيها منظمة الامم المتحدة الواقعة تحت سيطرة الدول الغربية الصليبية ، كما أسهمت فيها الدول الاسلامية بخذلانها الشعب الارتري المسلم ، وكما أسهمت فيها الشعوب المسلمة بالتزامها الصمت واللامبالاة بالأخوة الاسلامية ، اما قصة الجريمة الدولية في قضية ارتريا المسلمة الشهيدة التي ابتلعها أسد يهوذا ، وبقية سلالة ملك سليمان ، فهي اكبر من كلمة مأساة ، وأجل من لفظة كارثة ••

فحين يرى الانسان رأي العين ، دولة مسلمة عريقة في الاسلام تلغى من الوجود في غمضة عين ، لتذوب ذوبانا كاملا في دولة صليبية عريقة في الصليبية الجشعة ، ويجد المعتدى كل مساندة وتأييد من اكبر القوى في العالم ، ولا يجد المعتدي عليه من حوله حتى أنة حزن عليه ، ولا لفظة رثاء له ، بل كل ما يحس به هذا المعتدى عليه دول اسلامية خيم عليها البلادة والصمت ، ثم شعوب مسلمة قد استولى عليها البلاهة والطمس حين يرى الانسان هذا كله ، فلا يسعه الا الأسى تنفطر له نفسه ، وينخلع فؤاده ، ولا يسع قلمه سوى الانفجار الذي لا يؤدي الا الى تحطيمه ليريح ويستريح ••

ان الحديث اذن عن مأساة الاسلام في أثيوبيا ، وكارثة الشعب المسلم

في ارتريا قد أصبح حديثا مملا ، لأنه حديث كالطرق على الحديد البارد ، أو الصرخة في واد شاسع ، فلم يحس المسلمون من قبل بالمذابح البشرية التي دارت رحاها في مسلمي الحبشة وارتريا على ايدي جيش أسد يهوذا ، مثل هذه المذابح البشرية يؤرخ بها من أصابتهم النكبة وحلت بديارهم الكارثة : مذبحة مقاطعة القرافي ، ومذبحة قبائل رايا ، ومذبحة سلطنة أوسا ، ومذبحة كمباشا ثم مذبحة هرر وغيرها ..

ولم يحس المسلمون ـ بالطبع ـ بالتغلغل الاسرائيلي في الحبشة وارتريا ، فأسد يهوذا ـ كما يذكر كتاب « الافعى اليهودية في معاقل الاسلام » سلم لاسرائيل ١٣ الف هكتار على بعد ستين كيلو مترا من مصوع لزراعة الخضروات وخمسين الف هكتار في غرب ارتريا على حدود السودان ، لزراعة الموز ، وهذه الاراضي وغيرها منحت لاسرائيل بأجور رمزية لا تزيد على ٢٠ سنتيما حبشيا ـ أي ثلاثة قروش للهكتار أو ١٢ مليما للفدان في السنة ، وبعد زيارة موشى ديان للحبشة عام ١٩٦٠ بصفته وزيرا للزراعة استقبله الامبراطور في قصره ولبى طلباته بكرم وسخاء على حساب شعب ارتريا المسلم ، وكان ان احتكرت سفن الصيد الاسرائيلي صيد الاسماك في المياه الاقليمية الارترية ، حتى اصبح ميناء مصوع مركزا يهوديا لتموين اسرائيل ..

ومرة ثالثة ، لا يمكن ان يكون المسلمون قد أحسوا بأن المسلمين تحت حكم أسد يهوذا يدفعون جزية عن يد وهم صاغرون ، تحت اسم : « ضريبة الكنائس العليا » كما لا يمكن ان يكون المسلمون في العالم قد قرأوا أو سمعوا ، ان أسد يهوذا حين زار الولايات المتحدة ـ منذ سنوات ـ أدلى للصحف بتصريح عن مسلمي الحبشة ، جاء فيه : « ان المسلمين في بلادي قلة دخلوا الاسلام على أيدي التجار العرب ، وقريبا

سيعودون الى دين آبائهم وأجدادهم•• ! تصريح ممتزج بالجرأة والسفه ، وله كل الحق في أن يتدثر بالجرأة والسفه ، ما دام على يقين ، من ان ستمائة مليون مسلم أهون من ان يسمعوا ــ فضلا عن أن يثوروا ــ فهم ليسوا الا غثاء كغثاء السيل ، نزع الله المهابة من قلوب اعدائهم منهم ، وقذف في قلوبهم الوهن ــ كما قال الرسول ــ صلوات الله عليه ، وهو يصف المسلمين في مستقبلهم ، حين تداعى عليهم الأمم ، كما تداعى الأكلة على قصعتها ، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن •• قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا •• وكراهية الآخرة » !!

اذا جاز لأسد يهوذا أن يفعل ما شاء له ان يفعل في المسلمين الذين شاء حظهم التعس ان يكونوا تحت حكمه ، دون ان يبالي ببضع مئات من ملايين المسلمين في العالم ، واذا جاز لشتى الحكومات في الدول الاسلامية أن تتجاهل الجريمة البشعة التي لا تزال تؤدي دورها في مسلمي الحبشة واريتريا ، وممتلكاتهم ومستقبلهم • فلم يكن من المتوقع أن تجرؤ دولة مسلمة ــ كالسودان ــ فتسعى الى عقد اتفاقية تعاون عسكري مع أثيوبيا ، والسودان بحكم جواره أدرى شعوب الارض بجريمة الصليبيــة التي ترتكب ضد الاسلام والمسلمين في الحبشة !!

ان الشعب المسلم في اريتريا الشهيدة لم يستسلم بعد ، فهو وحــده في الميدان أعزل الا من سلاح الايمان بالله والثقة فيه ، ولا يكاد العالــم الاسلامي يحس به ، وهو يواجه قوات صليبية طاغية ، ومنذ سنوات قام قومة رجل واحد يتحدى هذه القوات الغاشمة ، وكان ان أرسلت دولــة عربية مسلمة بعض الاسلحة للشعب الاريتري المكافح ، وكان مثار العجب

والدهشة ان رفضت دولة عربية مسلمة ان تسمح بمرور الاسلحة على حدودها ، وتدخلت السودان المسلمة ـ سودان ما قبل الثورة ، فسمحت بتلقي الاسلحة وارسالها الى الشعب المسلم المكافح ، ولم يكن مثيرا ولا عجيبا أن يستجوب أعضاء البرلمان الحمر رئيس الوزراء يومئذ السيد محمد احمد محجوب ، الذي وقف بشجاعة يعلن ان الحكومة على علم بهذه الاسلحة ، وهي التي لا تستطيع ان تقف مكتوفة الايدي وعمليات الابادة على أشدها في شعب اريتريا المسلم الشقيق ..

ان بعض الدول العربية الاسلامية التي تصر على أنها دول تقدمية ، ضاقت ذرعا بنشاط الجبهة الاريترية في بلادها حتى رحلت الى بعض الدول الاوروبية المسيحية بالطبع ، لتباشر نشاطها وكفاحا من اجل حرية وطنها ، مع ان هذه الدول العربية التقدمية كانت عواصمها مفتوحة للمجاهدين الاريتريين ، تمدهم بمعوناتها ، وذلك قبل ان ترتدي رداء التقدمية المزعومة .. !

* *

ان الحديث عن نيجريا الدولة المسلمة حديث يثير كوامن الأسى ، فهذه الدولة على الرغم من انها تضم أكثر من اربعين مليونا من المسلمين ، الا ان الصهيونية والصليبية المتعانقتين هناك لم تتوانيا لحظة ولن تتوانيا في ضرب الاسلام وزلزلة كيانه ، واذا تركنا جانبا تغلغل النفوذ الصهيوني في اقتصاد نيجريا المسلمة ، وتغلغل النشاط التبشيري في البيئات المسلمة لتحويل المسلمين عن دينهم ، اذا تركنا هذا وذاك ، فلا يملك القلم أن يلتزم طرفا من الجمود ازاء المؤامرة الدنسة التي ضاع ضحيتها الزعيم الوطني المسلم « احمدو بيللو » زعيم اقليم الشمال الذي يضم ثلاثين مليون مسلم ، ورئيس الحكومة الفيدرالية « الحاج ابو بكر تفاوباليوا »

حيث نفذ المؤامرة الدنسة ضباط النصارى من الاقليم الشرقي الذي جاء منه رئيس الجمهورية نفسه ، وظهر جليا ان الصهيونية قد لعبت الدور الاساسي في أخس مؤامرة ، وذلك في يوم السبت ١٥ يناير ١٩٦٦ (٢٤ رمضان ١٣٨٥) وكانت المؤامرة تستهدف التخلص من الزعماء المسلمين السياسيين ، وفي مقدمتهم « احمدو بيللو » الذي كانت عقبة كأداء في طريق النفوذ الصهيوني والتبشيري الصليبي •• فقد استطاع ان يصون الاقليم الشمالي من دنس الصهاينة والصليبية المتحفزتين ••

واذا تركنا نيجيريا الى تشاد والسنغال فلا نملك الا الألم الممض ، هاتان الدولتا نكانتا تحت نير الاستعمار الفرنسي حوالي سبعين عاما ، ضمن مجموعة دول غربي أفريقيا ، ويحار العقل ليجد تفسيرا مقبولا لظاهرة عجيبة ، فكلتا الدولتين يمثل شعبها المسلم اكثر من ٩٠ ٪ من مجموع سكانها الا ان رئيسي جمهوريتهما مسيحيان ضليعان في المسيحية ، فرئيس جمهورية السنغال هو الراهب « سنغور » ، ورئيس دولة تشاد هو القسيس الذي نشأ في مدارس اللاهوت « فرانسوا تومبالباي » •• وقد حرص الاستعمار على هذا الوضع لعزل الدولتين المسلمتين عن بقية البلاد الاسلامية ، ولتمكين الاقتصاد الصهيوني من التغلغل في اقتصاد البلاد ، ومنذ سنوات حمل الي البريد رسالة من فضلاء المسلمين بتشاد ، يؤكد فيها ان التعليم هناك بالنسبة للمسلمين قاصر على المدارس الاولية والكتاتيب لتحفيظ القرآن ، والتي يمولها الاهالي ، وقد أشار الكاتب أن الكتب المدرسية تطبع في القدس المحتلة وترد الى تشاد عن طريق دولة عربية •••

ولعل المسلمين يجهلون أنه ليست السنغال وتشاد وحدهما اللتان اعترفتا باسرائيل وفتحتا الابواب على مصارعها للنفوذ الاقتصادي والسياسي الصهيوني ، ففي افريقيا دول اسلامية أخرى غير هاتين الدولتين

المسلمتين ، وفي مقدمتها غينيا ومالي ، وليس عجيبا ان تشترك الدول الافريقية المسلمة في مؤتمرات القمة الاسلامية والافريقية التي تحرص الاولى في اصدار قراراتها على ضرورة الكفاح المشترك لتحرير فلسطين ، كما تحرص الاخرى على ادانة اسرائيل واستنكار عدوانها على العرب..

ويفيض القلب أسى اذا ذكرت زنجبار المسلمة ، التي استوطنها العرب المسلمون منذ عدة قرون ، ومنها ـ كما يقول كتاب « الافعى اليهودية في معاقل الاسلام » ـ نشروا روح العدالة الاسلامية مما ساعد على انتشار الاسلام في افريقيا ..

كانت زنجبار تحت الحكم البريطاني الاستعماري ونالت استقلالها في ١٠ ديسمبر عام ١٩٦٣ ، وقبلت عضوا في هيئة الامم في السادس عشر من نفس الشهر ، وكان من الطبيعي أن تقف الدولة المسلمة المستقلة في وجه التغلغل الصهيوني ، وكان من الطبيعي أيضا أن تتحرك قوى الاستعمار والصهيونية للاطاحة بهذه الدولة الناشئة : « حين تكون المؤامرة موجهة ضد الاسلام والمسلمين ـ كما يقول الكولونيل عبدالله التل ـ نجد تحالفا طبيعيا بين اليهودية العالمية والقوى « التقدمية » الشيوعية والاستعمار الغربي ، وتعاونا وثيقا بين هذه القوى لانجاح المؤامرة » .

ان يوم الاحد الموافق ١٢ يناير ٩٦٤ يوم من ايام التاريخ الأسود ، ففي هذا اليوم حدثت أبشع مذبحة بشرية ، كان ضحيتها خمسة عشر ألفا من العرب والمسلمين في جزيرة زنجبار ، وقد تولى كبر هذه الجريمة البشعة عبيد كرومي بمساعدة جوليوس نيريري وضباطه من اليهود ، حيث استولى على السلطة ، واخذ في ازالة الصبغة الاسلامية عن الجزيرة شيئا فشيئا ، ولكن يسند ظهره على قوة تضمن له الاستمرار في الطغيان ـ كما يقول

كتاب « الافعى اليهودية في معاقل الاسلام » ضم عبيد كرومي زنجبار المسلمة لحما ودما الى تنجانيقا في ٢٦ من ابريل عام ٩٦٤ ، أي بعد ثلاثة أشهر من المذبحة ، ليصبح نيريري رئيسا للدولتين المتحدتين تحت اسم تنزانيا ..

وتمت المؤامرة الدنيئة ـ تحت سمع وبصر اليهودية العالمية والاستعمار ـ على دولة اسلامية ، أزيلت من الوجود ، كما أزيلت شقيقة لها من قبل هي اريتريا ، أما المسلمون فقد كانوا أهون من أن يحسوا بالمؤامرة .. أما الدول الاسلامية ، فقد كانت تغط في سبات عميق .. !

* *

اما الكارثة التي لم تجف دماؤها بعد ، فهي المذابح الدائرة حتى اليوم في مسلمي الفلبين ، والحقيقة المرة ، أن مأساة مسلمي الفلبين يجب أن لا تكون وصمة عار في جبين الدول الاسلامية شعوبا وحكومات وحسب ، بل في جبين العالم بأسره ، وفي مقدمته مؤسساته الدولية ، ودولة الفاتيكان ، فالكاثوليك هم الذين يشنون حرب الابادة بلا هوادة في مواطنين سبق ان حكموا هذه البلاد ، لا ذنب لهم الا انهم مسلمون ، وليست الصليبية المتعطشة الى الدماء هي وحدها المسؤول عن الجريمة البشعة ، فأيدي الصهيونية العالمية ملوثة بدماء الجريمة ، ومن خلفهما المخططات الاستعمارية شرقية كانت أم غربية ..

لقد دخل الاسلام الى الفلبين وما جاورها من دول شرقي آسيا في العام الهجري الاول ، واستقر هناك استقرارا كاملا ، بل ظل الحكم الاسلامي مسيطرا على مجموعة من جزر الفلبين اكثر من سبعة قرون ، ويبلغ عدد المسلمين اليوم اكثر من خمسة ملايين مسلم ، تصر الصليبية

الارهابية والصهيونية الدولية على ابادتهم من الوجـود ، وكأن الحياة التعسة التي يحيونها بلا أدنى حقوق وفي ظل ارهاب مسلط عليهم ، ليس كافيا لاشباع غرور الكاثوليك .

أن التاريخ يعيد نفسه في الفلبين ، فالمسيحية بعد ان استطاعت شن حروب الابادة على الاسلام والمسلمين في اسبانيا منذ اربعة قرون ونصف، اتجه الاسبان الى الفلبين الاسلامية ، لا للقضاء على الممتلكات الاسلامية في بحر الصين والبحر المتوسط ، وزيادة رقعة الممتلكـات الاسبانيـة والسيطرة على التجارة الدولية ، وحسب ، بل لقد كان هناك هدف رئيسي هو محاولة ادخال الدين المسيحي الى هذه البلاد بالارهاب والقهر ، ومن اشهر حملات اسبانيا الارهابية الحملة التي كانت بقيادة الرحالة «ماجلان» عام ١٥١٩ حيث قاد بنفسه حملات الابادة ضد المسلمين ..

ان المسلمين في الفلبين ـ منذ بدأت اسبانيا تشن حمـلات الابادة الصليبية ضدهم ـ لم يكتب لهم شيء من الاستقرار الا في نهاية القـرن التاسع عشر ، ولكن ها نحن أولاء ، نرى في القرن العشرين أحفاد الكاثوليك الاسبان ، يأبون الا ان يعيدوا التاريخ نفسه في الفلبين بالنسبة للاسلام والمسلمين ، وهو تاريخ أسود رهيب ملطخ بوصمات الوحشية والنذالة ، ليحاول هؤلاء الاحفاد أن ينجحوا فيما فشل فيه أسلافهم ، وهو سحـق الاسلام والمسلمين في جميع مناطق الجنوب في الفلبيـن حيث يتركـز المسلمون هناك ..

وحتى يلم القارىء المسلم بشيء من المأساة ، حسبنا أن نشير الـى السطور البارزة في التحقيقات الصحفية ، فالاستاذ سامي محمود كتب في « أخبار اليوم » في ٨ ـ ٧ ـ ٩٧٢ تحقيقا صحفيا في صفحة كاملة ، من أبرز عناوين هذا التحقيق الجيد : رجال وفئران في الفلبين ـ اسرائيـل

دربت جماعة الفئران الارهابية لابادة مسلمي الفلبين على طريقة عصابات الهاجانا ـ الحرب ضد المسلمين أخذت شكلا آخر بعد هزيمة مصر والعرب عام ٩٦٧ ـ اكبر مستشار لرئيس الفلبين صهيوني ـ عشرة ملايين دولار من اسرائيل لتمويل عمليات الابادة ـ نصف مليون مسلم بلا مأوى •• يأكلون بذور عباد الشمس وتنفشى فيهم الأوبئة » ••

أما التحقيق الذي قامت به جريدة الاهرام بقلم الاستاذ فهمي هويدي ، بتاريخ ٢٩ ـ ٢ ـ ٩٧٢ فقد صدره بصورة مروعة لعشرات من جثث المسلمين ، ممزقة وملقاة عند مدخل احدى قرى مقاطعة لاناو • ويكفي ان ننقل هنا عبارات بدأ بها الكاتب تحقيقه ، اشفاقا على القارىء من التفصيلات المفزعة ، قال الكاتب :

« المؤكد ان وكالات الانباء تحاول أن تهون كثيرا من شأن ما يجري في جنوبي الفلبين عندما تصفه بأنه مجرد « مذبحة » للمسلمين هناك ، لأن المعلومات والصور التي تجمعت في القاهرة هذا الاسبوع ـ ولأول مرة ـ تشير الى ما تشهده تلك الجزر النائية وسط المحيط الهادي ، لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه « عملية ابادة » لقد بلغ الحال بمسلمي الفلبين حدا تمنوا معه لو أن ما جرى لهم كان مذبحة فقط ، تحدث مرة أو مرتين ، ثم تطوى صفحتها لتضاف الى سجلهم الدامي في تلك البلاد التي كانوا حكامها يوما ما •• ! حتى هذا الأمل التعس لم يتحقق •• !!

حرصت هنا أن اقدم صورة موجزة للنكبة التي حلت ـ ولا تزال تحل ـ بأكثر من خمسة ملايين مسلم في الفلبين ، أقل ما توصف به هذه النكبة أنها حرب ابادة بدأت منذ نوفمبر عام ٩٧٠ ، ولم تتوقف حتى اليوم الا لتتهيأ لاضافة طاقة جديدة من الشراسة والضراوة ، ولتواصل ما بدأته حتى نهاية المطاف » ••

أجل حرصت هنا على أن اقدم صورة موجزة متجنبا التفصيلات المروعة اشفاقا على أعصاب القارىء ، صورة موجزة مما نشرته الصحف شبه الملتزمة التي تتحاشى العاطفة مكتفية بالواقع المرير ، وهي لم تنشر منه الا أقل القليل •• !

* *

وبعد •••

فعندما قال اللورد اللنبي في نهاية الحرب العالمية الاولى قولته المشهورة : « لقد انتهت الحرب الصليبية » وذلك بعد أن وطئت القوات البريطانية أرض فلسطين ، كأنما كان يحاول ان يسمع صلاح الدين الايوبي ــ قاهر الصليبيين ــ هذه العبارة ، أقول عندما قال اللورد هذه القولة ، قد أخطأه التقدير ، اللهم الا اذا كان يقصد بقولته ، أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة بعد اليوم ، ويصبح تقديره سحيحا من هذه الزاوية ••

أما خطأ التقدير في المفهوم الاول من قولته ، فالتاريخ يؤكد ان الحروب الصليبية لم تتوقف ــ فضلا عن ان تنتهي ــ ابدا ، ويجب ان يكون مفهوما لدينا ــ نحن المسلمين على الاقل ــ ان الحروب الصليبية ملة واحدة ، سواء أحملت الصليب شعارا أم حملت منجلة ومطرقة ، ما دامت أهداف تلتقي عند ارادة الابادة للاسلام وشعوبه وتراثه وحضاراته ، فالثورة البلشفية التي قامت في اكتوبر عام ١٩١٧ ، لم تكد تستقر حتى واصلت ثورة اقسى وأمر على الاسلام والمسلمين في شتى انحاء الاتحاد السوفياتي، وتابعت روسيا في هذا الاتجاه، الصين ويوغسلافيا وألبانيا ، وغيرها ، وأصبح الاسلام الذي أرسى قواعد الحضارات الانسانية في هذه المناطق مجرد ظل ، في معظم الأحايين ، لا يسمح للمسلمين بأن يتفيأوا هذا الظل •••

وفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية التي ذاقت خلالها الأمرين ، حتى لم تستطع امبراطوريتها ان تصمد أياما معدودة أمـام الهجوم النـازي ، فرنسا هذه لم تكد تسترد أنفاسها بعد الحرب ، حتى راحت تشن حربـا صليبية لا هوادة فيها على الشعب المسلم في الجزائر ، حربا كانت تتمناها حرب ابادة للاسلام أو للمسلمين ..

ولقد كان يحلو للاذاعات ووكالات الانباء الاجنبية التي تسيطـر عليها الصهيونية العالمية والصليبية العنصرية ، أن تذكر في بياناتها اليومية : « قتل اليوم في الجزائر ... كذا .. من المسلمين » والعجيب أن بعض المثقفين « التقدميين » العرب ، كان يرفض ان تكون الحرب الفرنسية في الجزائر حربا صليبية ، حتى ولو كانت كل الدلائل تؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك ، بل ان هذا البعض من المثقفين « التقدميين » تطرف الى درجة تجريد الحروب الصليبية نفسها من الصليبية ، تلك الحروب التـي شنتها أوروبا الصليبية منذ قرون على الاسلام في الشرق ، وقضى علـى جيوشها القائد البطل المسلم صلاح الدين وكبلها شر هزيمةعرفها التاريخ ، حتى ولو كانت البابوية الكاثوليكية في روما هي التي كانت تهيمن علـى تمويل هذه الحروب ماديا وروحيا ..

ان مكان انجلترا في مأساة فلسطين لا يمكن تبرئته من الصليبيـة المتعصبة ، ولو ان الصهيونية العالمية قدر لها ان تسطو على أرض مسيحية، وأن تشرد شعبا مسيحيا بعد ان تغتصب أرضه وتطرده من وطنه ، لتغير الوضع ، ولما جرؤ اتحاد الكنائس العليا بالولايات المتحدة ان يسلك ما سلكه عام ١٩٤٨ م من التأييد الادبي لاسرائيل ، وجمع التبرعات لشراذم الاعتداء الآثم ، بل ولو قدر لتفكير الصهيونية العالمية منذ مؤتمرها الاول عام ١٨٩٧ م أن يتجه الى التخطيط لوطن قومي في بقعة مسيحية ، لما قدر

لوعد بلفور المشؤوم الذي صدر في ٢ نوفمبر عام ٩١٧ م أن يرى النور •• بل أيضا ، لو قدر لاسرائيل ان تبلغ القوة التي تمكنها من اعلان الحرب على اليونان أو ايطاليا مثلا ، كما اعلنت الحرب على العرب والمسلمين عام ٩٥٦ لما جرؤت كل من انجلترا وفرنسا على ارسال جيوشهما لمساندة اسرائيل ، ولما جرؤ أسد يهوذا « المبجل » ان يرسل آلافا من رؤوس الاغنام الى اسرائيل أثناء عدوانها على الاراضي العربية والاسلامية عام١٩٦٧ م •

نستطيع أن نقرر ونحن مطمئنون ، ان الحروب الصليبية لم تنته كما زعم اللورد اللنبي الانجليزي الصليبي في أواخر الحرب العالمية الاولى ، بل هي متواصلة ، وان قدر لها ان تتوقف عسكريا احيانا ، فهي لم تتوقف فكريا ، فارساليات التبشير الصليبي لا تزال قائمة على قدم وساق في آسيا وافريقيا ، ولها ميزانيات خيالية في امريكا وانجلترا وفرنسا وايطالياوبلجيكا وهولاندة ، وليست مهمتها الاساسية هداية الوثنيين الى المسيحية ، بل وقف الزحف الاسلامي الى هذه البلاد من ناحية ، وزلزلة عقائد المسلمين تمهيدا لتحويلهم الى النصرانية من ناحية اخرى ، كما حدث ، ولا يزال يحدث في نيجيريا وتشاد وكينيا وغيرها ••• ولا سيما اندونيسيا اكبر دولة مسلمة ••

ان الاحتلال العسكري الصليبي قد انتهى — على وجه التقريب في آسيا وافريقيا حيث يتمركز الاسلام في هاتين القارتين ، ولكن الغزو الفكري والثقافي الصليبي لم ينته بعد ، ولن ينتهي طالما ان الشعوب المسلمة امورها بأيدي ولاتها ، وولاتها لا يهمهم الا العض بالنواجذ على وجودهم ، وآخر شيء قد يفكرون فيه هو الدين ، وحتى هذا التعبير ليس الا ضربا من تفاؤل هو اقرب ما يكون الى الوهم •• !!

واذا كان الغزو الفكري الصليبي لم يتوقف ابدا ، وليس مستعدا

لأن يتوقف ما دام المسلمون في غفلة وتواكل ، وما دام الغيورون على الاسلام مغلوبين على امرهم في معظم البلاد الاسلامية •• فليس معنى هذا أن الغزو الصليبي العسكري قد توقف تماما تاركا للغزو الفكري المجال ، على العكس ، فان رواسب الحروب الصليبية ــ كلما سنحت الفرصة احيانا تتحرك وتتفاعل حتى تبلغ السطح ، في أشكال من عمليات الابادة الشرهة ، وما جرى منذ اواخر عام ٩٧٠ ولا يزال يجري حتى اليوم ــ في الفلبين الا دليل كاشراقة الصبح على أن تاريخ الحروب الصليبية يعيد نفسه على ايدي الكاثوليك •• أقصد احفاد الكاثوليك الذين اشعلوا منذ قرون الحروب الصليبية الاولى •••

والعجيب المؤلم والمحزن معا ان بعض زعماء العالم الاسلامي استغاثوا ببابا الكاثوليك في روما ليتدخل لايقاف المذابح البشرية في مسلمي الفلبين على أيدي أتباع كنيسته ، وليس مصدر العجب والألم والحزن الممض هو ان البابا لم يكن في حاجة الى الاستغاثة به والعالم كله سمع خرير الدماء البشرية في مسلمي الفلبين ، اذن فالاستغاثة به ضرب من ضروب السذاجة ، وانما مصدر العجب والألم والحزن الممض هو انعكاس الآية ، فبالأمس كانت أصوات الاستغاثة تصرخ «وامعتصماه» واليوم تتجه الاصوات الى غير المسلمين بعد ان فقدت كل امل في المسلمين •• !



العقيدة في مواجهة التحدي

لا اعتقد ان ظروفا واجهت فيها العقيدة الاسلامية من ضروب التحديات ما تواجهه اليوم مثل هذه الظروف التي تمر بها العقيدة اليوم، فبالأمس كانت العقيدة تواجه تحديات من ألد اعدائها ، فتجد من اتباعها من يزود عنها بقلمه أو سيفه ، أما اليوم فالعقيدة تواجه تحديات ممن هم منتسبون اليها من واقع شهادات ميلادهم اكثر مما تواجهه من اعدائها التقليديين وغير التقليديين ، دون ان تجد من اتباعها من يذب عنها حتى بمجرد قلبه فضلا عن لسانه او سيفه ..

انه لطبيعي ان تواجه العقيدة الاسلامية تحديات من خصومها ، نفثات مسمومة من قلم ، او قطرات حاقدة من لسان ، أو تخطيطات متآمرة من سلوك ، لكن اذا كانت هذه التحديات للعقيدة ممن يزعمون الانتساب اليها ، فالأمر يحتاج الى مزيد من القلق والحيرة ، واذا كنا نلاحظ — بالأمس القريب — ان معظم المتطاولين على العقيدة من المنتسبين — ولو شكلا — اليها ، انما دفعهم الى التطاول عليها ، وشجعهم على النيل منها ، حب الشهرة ، بعد ان اصبحوا يعانون التخمة منها ، وهذا مما يجعلنا نبحث عن ألفاظ اخرى غير القلق والحيرة ..

لنترك جانبا قضية الغزو الفكري المستورد من الشرق والغرب ،

لديار الاسلام بقصد التحدي لعقيدته ، دون انتكون للمسلمين ــ أو بمعنى أدق ــ للمفكرين أو الكتاب الاسلاميين القدرة بأقلامهم على صد هذا الغزو الفكري المتحدي ، ربما لم يكن ذلك راجعا الى مجرد قصور ثقافي وحسب ، بل هناك قصور تفرضه ظروف مادية او سياسية أو هما معا •• فالكتاب الأجنبي الذي يحمل « ميكروب » الغزو الفكري مثلا ، تطبع منه عشرات الالوف لتمتلىء به أسواق البلاد الاسلامية ، لن يواجه ــ اذا أحس به المسلمون وقل أن يحسوا به ــ بأكثر من مقال في مجلة لا يكاد يحس بها في اقليمها المسلمون انفسهم فضلا عن غيرهم خارجه ، أو كتيب يطبع منه بضع مئات ، أو صيحة من فوق منبر يتفاعل معها المصلون ثم لا تلبث ان تتبخر قبل أن يغادروا أماكنهم •••

ولنترك جانبا أيضا ، هذا العدوان الداخلي على العقيدة ، كما تركنا الغزو الخارجي ، لأن الذين يفكرون في التطاول على العقيدة هم اصحاب قوة ، أو عملاء لأصحاب القوة ، أو صغار محمية ظهورهم لظروف سياسية طارئة ، أو أصفار من جهة الشمال ، هم كالضفادع تتوهم انه من الممكن ان تثبت وجودها بالنقيق أو كالذباب تتخيل أنه من الممكن ان تعلن عن وجودها بالطنين ••

أجل لنترك هذا جانبا ايضا ، لأن هؤلاء المتطاولين ليسوا اصحاب رأي حر ، بل ولم يفكروا آبدا في ان يكونوا ذوي رآي حر حتى ندخل معهم في حوار ، انهم على استعداد لان يتطاولوا كتابةوقولا ، لكنهم ليسوا مستعدين لأن يقرروا أو يسمعوا ••

اذن فنحن امام اتجاه ثالث حري بأن نتعرض له ، لأن اصحاب هذا الاتجاه اما ان يكونوا أصحاب رأي ، فلزام علينا ان نحترم آراءهم مهما كانت درجة انحرافها ، واما ان يكونوا من ذوي النوايا الطيبة فلزام علينا

ان نفتح صدورنا لنواياهم الطيبة •• وقد يتساءل متسائل : اذن فلماذا وضعت هذا الاتجاه في دائرة التحديات للعقيدة ؟ فأقول : لأن آراء أصحاب الاهواء والاحقاد ، وهي في نفس الوقت تحد ــ غير مقصود ــ للعقيدة يزحزحها عن مسارها الطبيعي ، ويثير حولها شبهات توحي بقصورها نحو معطيات الحياة الحديثة ••

* *

ان الايحاء بأن فصل الدين عن الدولة هو تكريم للدين نفسه ، ايحاء يسيء الى المنطق السليم ، ويجرد الدين من أخص خصائصه ، ويحدد اقامته داخل الفرد كمنهج لسلوكه ، ويجب ان لا يتجاوز حدود الفرد الى المجتمع فضلا عن الدولة ••

ومنطق هؤلاء ان الدين نصوص غير قابلة للتطوير لتوائم تطورات الحياة ، لذلك يخشى اذا قامت الدولة على الدين ان تعوق نصوصه سير الحياة نفسها ، فتضطر الدولة الى التخلي عن الدين •• وفي هذا اساءة اليه ••

ويتجاهل هؤلاء ان الدولة الاسلامية بلغت يوما ما ، شأوا من الحضارة والمدنية وقد أغدقت منهما الكثير على أوروبا ، حينما كانت غارقة في دياجير التخلف ، ولا تزال آثار هذه الحضارة وتلك المدنية باقية في عديد من دول اوروبا نفسها ، فلماذا لم تعق نصوص الدين مسار الحياة في الدولة الاسلامية ، وحالت دون ما بلغته من الحضارة والمدنية ؟؟

ان فكرة الاسلام دينا ودولة معا من المسلمات التي لا تقبل الجدل ، والا كان علينا ان نلغي عقولنا وتتنكر للبديهيات ، لكن الذي نود ان نقوله ، هو ان فصل الدين عن الدولة لا يعني الا شيئا واحدا ، هو علمانية الدولة ، ومدلول هذه العلمانية مما لا يحتاج الى ايضاح ••

كذلك ، أن الذين يحاولون ان يحملوا الاسلام تبعة انحراف

الحكومات الاسلامية في الماضي ، ويجعلوه مسؤولا عن النتائج التي أدت الى انهيار الدولة الاسلامية ، هؤلاء يجانب تفكيرهم الصواب والانصاف معا ، فهم كمن يحملون المجنى عليه مسؤولية الجاني ، والاسلام في مثل تلك الظروف لم يكن الا مجنيا عليه ، واذا كان هناك من هو جدير بتحمل المسؤولية كاملة ، فليست الا الشعوب الاسلامية ومفكريها ..

والذين يبدون مخاوفهم من الحكم الاسلامي ، يخلطون بين الحكم الاسلامي ، والحكم الديني ، والاخير هو المقصود أو هو مصدر مخاوفهم ، يخلطون بين اللونين من الحكم : بين الحكم الاسلامي الذي يجعل من الاسلام منهاجا له ، ومن شريعته دستورا وقانونا له ؛ وبين الحكم الديني الذي يخضع لسلطة رجال الكهنوت ؛ فهم مصدر الحكم ، وهم قانونه ودستوره ، ومن المقرر ان لا كهنوت في الاسلام ، ولا وجود فيه لنظرية التفويض الالهي ، ولا لأدنى امتياز لرئيس الدولة الا فيما يختص بتحمل العبء الاكبر من المسؤولية ، فليست شخصيته « ذاتا مصونة لا تمس » كما نصت بعض الدساتير من قبل ، ولا زالت تنص ، وان الانسان ليقف خاشعا امام كلمات اول خليفة للمسلمين قالها اثر بيعته على الخلافة : « اني وليت عليكم ولست بخيركم .. فان رأيتموني على حق فأعينوني، وان رأيتموني على باطل فسددوني .. أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته .. فلا طاعة لي عليكم » !

والذين يحاولون ان يذيبوا الاسلام في الفكرة العربية ، أو الذين يحاولون ان يسخروا الاسلام ليكون مطية ذلولا للفكرة العربية ، هؤلاء وأولئك يضربون اخماسا في أسداس ، فلا يستطيع انسان ان يتجاهل أن الاسلام هو الكل بالنسبة للفكرة العربية ، اذن فكيف يعقل ان يذاب الكل في البعض ؟

ان امامنا تجربة قادمة ، هي الوحدة الشاملة بين مصر وليبيا ، فهل من الممكن اذابة الوحدة في شخصية مصر او شخصية ليبيا مثلا ؟ والجواب بالنفي بالطبع ، لكن من الممكن ان تحتفظ كلتـا الدولتيـن بمقومـات شخصيتها الذاتية في ظل الوحدة دون ان تتأثر الوحدة بذلك ..

ولا نقاش لنا مع أولئك المتطرفين الذين يعتقدون انه من الممكـن ابعاد فكرة الرابطة الاسلامية عن الاذهان ، فهؤلاء يتجاهلون ان الشعوب العربية هي أيضا شعوب اسلامية ، وليس من المتوقع ان تحتل العاطفـة العربية في النفوس مكانا أهم من العاطفة الاسلامية ، كما يتجاهلون ايضا ان الارضية العربية كانت قاعدة الانطلاق بالنسبة للفكرة الاسلاميـة ، وليس من المعقول ان تتنكر الفكرة الاسلامية لقاعدة انطلاقها ، وليـس من الحكمة ايضا ان تنفصل القاعدة عن منطلقها وهو الذي أثبت لهـا وجودها ..

بعد النكسة التي حدثت في اليوم الخامس من يونيو عـام ١٩٦٧ بأيام ، كتب الصحفي الفلسطيني الأصل « ناصر الدين النشاشيبي » على صفحات « الاخبار » القاهرية بضعة تحقيقات صحفية من أوروبا ، قال في احدها بالحرف الواحد تقريبا : لقد طفت معظم انحاء العالم ، فما وجدت غير مسلموغير عربي يتعاطف معنا في قضيتنا .. وهذا كلام يجب ان نقف عنده طويلا ..

وصرح الاستاذ محمد احمد محجوب رئيس وزراء السودان السابق بتصريح ذي اهمية وهو في طريق عودته من نيويورك في نوفمبر ١٩٦٧ بعد ان حضر جلسات مجلس الامن ـ بشأن العدوان الاسرائيلي ـ قال بالحرف الواحد ايضا : « لقد علمتنا النكسة درسا في الدبلوماسية يجـب ان نعتبر به ، هو ان الدول الاسلامية التي كنا نهاجمها بلا مبرر كانت من

أسبق الدول الى تأييدنا في المحافل الدولية ، وفي مقدمتها ايران وتركيا والباكستان واندونيسيا » ••

لا يرتاب انسان في ان الغرب الاستعماري مع عميله في المنطقة ، هو الذي دبرالعدوان على مصر عام ١٩٥٦ ، ثم باشره بنفسه ممثلا في انجلترا وفرنسا ، كما لا يرتاب أحد في ان « حلف بغداد » حلف من صنع الاستعمار الغربي ونتاج تفكيره ، لكن على الرغم من ان الدول الاسلامية : « الباكستان وتركيا وايران والعراق » كانت أعضاء في هذا الحلف ، لكن ذلك لم يحل دون ان يعقد رؤساء هذه الدول الاسلامية أمام ضغط شعوبها المسلمة ـ مؤتمرا يصدرون فيه قرارا بادانة العدوان على مصر ••

نحن لا ننكر ان عددا غير معقول من الدول الاسلامية ، لا يزال يقيم علاقات مع اسرائيل ، دبلوماسية كانت أم اقتصادية ، وهذه وصمة عار بلا ادنى ريب ، لكن هذه الدول لا تجهل ان أي مبرر لقيام هذه العلاقة مع أعدى أعداء الاسلام ، ثم لبقاء هذه العلاقة حتى اليوم ، لا يمكن ان يكون مقبولا ، هناك مبرر واحد يمكن ان يكون مقبولا ، لكن لدى هذه الدول وحدها ، هذا المبرر هو ان هذه الدول لا تزال قاصرة لم ترفع الوصاية أو الولاية عنها بعد ، وأغلب الظن ان رفع هذه الوصاية أو الولاية عنها أمل كالسراب ، طالما ان شعوب هذه الدول أرادت لنفسها أن تكون مغلوبة على أمرها ، وأمرها بأيدي ولاتها ، وولاتها حريصون على ان لا تبلغ دولهم سن الرشد ، ما دام الحفاظ على بقائهم مرتبطا بتمثيلهم دور النائب عن الولي أو الوصي ••

اذن فالحل أولا واخيرا هو بأيدي الشعوب المسلمة وحدها ، فاذا أخذنا بأيديها باخلاص وجد ، استطاعت ان تفعل الكثير ، لا اقل من ان

تمحو وصمة العار من جبين الاسلام والامة الاسلامية ، فلم يكن متصورا على الاطلاق ان تعترف دولة مسلمة باسرائيل ــ فضلا عن صلةالود معها ، الا اذا كانت دولة بلا شعب ، او بمعنى ادق دولة بلا شعب مسلم [1] •• !

* *

نحن نطرح جانبا ــ ونحن نتحدث عن العقيدة في مواجهة التحدي ــ نطرح جانبا لونا من التحديات يصل الى درجة أحط من الاسفاف ، تلوكه أحيانا اقلام هزيلة أو ألسنة أقل هزالا ، لا يزال البعض مثلا يلقي مسؤولية الفشل ــ أي فشل ــ على عاتق الاستعمار الاجنبي ، حتى بعد ان انقشع الاستعمار جسدا وروحا بعدة اعوام ، وقد قرأت تصريحا عجيبا لمدير الحدائق العامة ، هو ان الاستعمار يعتبر مسؤولا عن نقص الحدائق العامة في العاصمة المختنقة ، لأنه ــ اي الاستعمار ــ كان حريصا على اهمال العاصمة ، حتى لا يحس سكانها بشيء من المتعة والهدوء ، ومع ان مثل هذا الكلام يثير الضحك الا ان سيادة المدير لم يجد من يقول له : ان الاستعمار تركنا منذ سنوات فماذا فعلت انت خلال هذه السنوات العديدة ؟ » •

وقد يجد مثل هذا الكلام المضحك من يصغي اليه ، فان عداوتنا التقليدية للاستعمار البغيض ، تجعلنا نصغي بعض الاصغاء ، لاتهام الاستعمار ، حتى ولو كان الاتهام يحمل كل معاني السذاجة •• كما ان هذه العداوة التقليدية للاستعمار البغيض لا تجعلنا تتحمس لمناقشة الاتهام الموجه اليه ، ولو كان يحمل كل معاني السخرية ••

---

(١) بعد معركة السادس من اكتوبر ١٩٧٣ التي احرزنا فيها النصر قطعت معظم الدول في افريقيا في الاخص علاقتها باسرائيل .

ويبدو ان بعض المشتغلين بالحقل السينمائي والمسرحي أدرك بذكاء ان القاء مسؤولية الفشل على عاتق الاستعمار وحده اصبح نغمة ممجوجة فأراد ان يبتكر شيئا جديدا ، واذا كان قد فشل في أن يقدم شيئا جديدا في فنه ، فلا أقل في أن يجدد في القاء مسؤولية فشله على عاتق آخر غير عاتق الاستعمار ، فلقد ظهر في اواخر عام ٩٦٨ فيلم سينمائـي عنوانه : « بابا عاوز كده » وهو من الافلام التهريجية الفاشلة التي لا ينجذب الى مشاهدتها سوى قلة من المراهقين والمكدودين ، وبالطبع لا قصة له ولا هدف ، فهو يدور داخل محل كبير للازياء ، ويكاد يكون معظم الادوار التي تؤديها الممثلات تنحصر في أن يخلعن ثيابهن العارية ليرتدينها ، ثـم يرتدينها ليخلعنها ..

وعندما ضيق الخناق على المخرج في مناقشة على شاشة التليفزيون عن سر الفشل الذريع الذي مني به الفيلم قال « بارك الله فيه » :

« ان سبب ضعف السينما العربية هو ان الفتح الاسلامي قد أضعف حاسة الدراما عند العرب ، بعد ما حرم المسرح » .

وللانسان ان يضحك بملء فيه على هذا الهراء ، ولسنا في حاجـة الى الوقوف طويلا امامه ، فالاسلام لم ولن يحرم الفن الأصيل ، وحسبنا كلمات عقب بها على هذا الهراء محرر بالجمهورية القاهريـة الصادرة في ٣١ ـ ١ ـ ١٩٦٩ ، قال :

« وهم بهذا ـ يقصد المخرج المذكور وأمثاله ـ لا يخجلون مـن عارهم ، ولكن يفلسفونه أيضا .. !! » .

* *

وهذا لون من التحدي لجوهر الفكرة الاسلامية قابل للمناقشة ،

وهذا التحدي الذي يباشره لونان من الناس ، فالمستشرقون مثلا يحاولون ان يرسوا في الاذهان ان الدعوة الاسلامية ليست الا دعـوة عنصرية ، وأقلامهم دأبت على ان تكتب كلمات : الفتح العربي ، والحضارة العربية، والعلوم عند العرب •• وما الى ذلك ، مع انهم يعلمون تماما ان الدعوة الاسلامية أبعد ما تكون عن العنصرية ، وهم الذين حفظوا عن ظهر قلب ــ عند دراستهم للقرآن ــ آيات صريحة لا تحتمل ذرة من التأويل ، في أن الرسالة المحمدية الى الناس كافة ، ورحمة للعالمين عامة ، كما يعلمون أيضا انه ليس في كتاب الله ولا في السنة الصحيحة لفـظ واحد يمكن تأويله ، ليخدم محاولتهم المغرضة ، وكون محمد ــ صلوات الله عليه ــ عربيا ، وكون الارض التي بدأت فيها الدعوة الاسلامية رسالتها ارضـا عربية ، وكون القرآن الكريم ــ كمنهاج لدعوة الاسلام ــ نزل بلسـان عربي مبين ، كل أولئك لا يمكن ان يقوم دليلا على ان الدعوة الاسلامية دعوة عنصرية ، لأنه سيكون دليلا هشا لا يصمد امام لمسة من نسيم امام النصوص الصريحة التي تؤكد عالمية الدعوة الاسلامية وشمولها ، وسموها عن ان ترتبط بأرض أو بجنس ••

واذا كان من الحكمة ان لا ندخل في مهاترة مع اهواء المستشرقين ، فمن الحكمة ايضا ان نعرض للون الآخر من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين تأثروا اما بأولئك المستشرقين فسايروهم ، واما بالاتجاهات السياسية التي ترى في تنمية القومية اسلوبا يخدم قضايا الشعوب العربية من اجـل الوجود الذاتي ، ومن اجل كفاحها ضد محاولات الاستعمار ••

ولا أظن ان هناك مانعا يحول دون ان تتخذ القومية أي شكل مـن الاشكال ، ولا تعتمد على الاسلام في امدادها بروح من عنده في كفاحها واثبات وجودها ، ما دام ليس في ذلك ما يمس جوهر الفكرة الاسلامية أو يضعها في اطار من العنصرية أو العصبية الاقليمية ••

لقد دأب عالم مسلم وعميد سابق لكلية دار العلوم ، على ان يقول في احاديثه الصباحية الدينية : « قال محمد نبي القومية العربية » .

ولست أدري كيف يلتمس حتى انصاف المثقفين أي تفسير لمثل هذا القول ؟ ولا أي تقدير لقائله ؟

ان الاميين يشكلون عددا لا بأس به في مؤلفي التمثيليات الاذاعية والتليفزيونية والمسرحيات ، فاذا اريد لخالد بن الوليد في احدى المعارك الاسلامية وهو يوجه الجيش الاسلامي ان يقول : نحن نناضل من أجل القومية العربية ، وذلك في احدى التمثيليات الاذاعية ، فلن يكون هناك غبار على المؤلف الأمي ، ومن باب أولى : الممثل الذي تقمص شخصية خالد ، ما دامت الأمية اصبحت في حياتنا حصانة من المسؤولية الادبية ..

لكن حين يضع امثال الدكتور عمر فروخ المفكر الاسلامي اللامع عنوانا لأحد كتبه المنهجية المقررة على طلبة الجامعة في بيروت « الفلسفة العربية الى أيام ابن خلدون» فان الانسان من حقه أن يقف حائرا ، فالدكتور عمر فروخ أحد مؤلفي كتاب « التبشير والاستعمار » الذي كدنا نحفظه عن ظهر قلب ..

أذكر انني كتبت نقدا لذلك الكتاب لمجلة « المجلة » وكان يرأس تحريرها يوم ذاك أديب كبير وقور ، وقد رفض المقال بأدب مبررا رفضه بأننا يجب أن نذكر للدكتور فروخ كتابه « التبشير والاستعمار » .. !

أما الاستاذ المستشار عبد الحليم الجندي مدير ادارة قضايا الحكومة ، والمعروف بدراساته الاسلامية المستنيرة عن الأئمة الاربعة ، والتي بدأها « أبو حنيفة بطل التسامح والحرية » فله رأي جديد على ما اظن ، كتب في جريدة الاهرام في ٢٩ ــ ١٠ ــ ١٩٧١ ، يقول : ان الامام الشافعي هو اول من جعل الوحدة العربية اصلا من اصول الفكر الاسلامي » .

لقد اجتذبني هذا الرأي الجديد فقرأت المقال المسهب بأكملـه ، لأتلمس ـ حتى من سطوره ـ ما يؤيد بصراحة هذا الرأي ، ولكني لـم أعثر على شيء ..

ان الاستاذ الكبير ـ عبد الحليم الجندي ـ فوق انه رجل من كبار رجالات التشريع والقانون ـ كاتب اسلامي له تقديره ، فالفقيه الكبير الامام الشافعي من أصل عربي ـ ولا جدال في ذلك ـ لكنه فقيه اسلامي ، لا يجادل في أن الفكر الاسلامي عام ، لا يرتبط بجنس ولا ببيئة ولا بمكان ، وأن أصوله مستمدة اساسا من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وللعقليات الاسلامية كلها ـ اينما وجدت وحيثما كانت ـ أن تستمد من هذين المنبعين اجتهاداتها ومفاهيمها معا ..

* *

وفي جريدة الاهـرام الصادرة في ٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧٢ كتب الاستـاذ الدكتور محمد احمد خلف الله مؤلف كتاب « القصص الفني في القرآن » المعروف ، كتب مقالا تحت عنوان : « مع مؤسس الدولة الاسلامية » .

والحق يقال ان المقال ـ على ما فيه من ايجاز ـ مقال قيم خلا من عبارات الانشاء التي تكاد تلتهم مقالات معظم كتابنا الاسلاميين ، ولا يتسع المقام هنا لتلخيص ما احتوى عليه المقال من افكار ـ ليست جديدة ـ ولكنها جديرة بأن يمنحها القارىء عنايته ، اما الذي استوقفني وأنا أقرأ المقال ، فهو مدخل المقال نفسه ، اذ يقول الدكتور خلف الله : « من المسلم به عند الناس قاطبة ، أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ـ هو المؤسس للدولة العربية التي اتخذت من الاسلام عقيدة لها ونظاما : عقيدة تدين بها ، ونظاما تصدر عنه ممارستها لحياتها ، وفي تصريفها لأمورها » .

ولعل القارىء يلمح لأول وهلة انه لا انسجام بين عنوان المقال « مع

مؤسس الدولة الاسلامية » وبين مدخل المقال الذي أشار فيه الى ان محمدا ــ صلوات الله عليه ــ وهو المؤسس للدولة العربية ؟ فلم يدر بذهن الرسول وهو المبلغ عن ربه فكرة « الدولة العربية » على الاطلاق ، وانما الذي دار بذهنه ــ وحسب ــ فكرة الدولة الاسلامية التي توائم دعوة الاسلام العامة الشاملة ، التي لا تتقيد بأرض ولا بجنس ولا بزمن ولا باقليمية ، والا لكان من حق أي انسان أن يدعي بأن الدعوة المحمدية دعوة عربية وليست دعوة الاسلامية ..

ولو ان سيادة الدكتور الاديب قال : انه من المسلم به أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المؤسس للدولة الاسلامية على أرض عربية ، لتصبح هذه الارض بمثابة قاعدة انطلاق نحو عدالة عالمية تؤكد عالمية الدعوة الاسلامية كما أرادها الله ، لكان ذلك منه عين الصواب ..

ان أصحاب رسول الله من الرعيل الاول ، هؤلاء الذين أسهموا في تأسيس الدولة الاسلامية معه ، قد اتخذوا من قاعدتها : « الارض العربية » نقطة انطلاق نحو آفاق واسعة ، متجاوزة انطلاقتهم عبر الحدود العربية بأسرها ، وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ثم فتح فارس والروم ، وضم معظم اراضيهما الى الدولة الاسلامية وأصبحت جزءا لا يتجزأ منها ، وهي اراض غير عربية ، وشعوبهما شعوب غير عربية ..

ولو كان هدف الدعوة الاسلامية تأسيس دولة عربية ليس الا ، لما تجاوزوا حدود المنطقة العربية الى مصر والشام والعراق ، ثم فيما بعد الى الاندلس واوروبا وافريقيا وأقاصي آسيا ..

ولا يمكن لعاقل أن يتهم أصحاب رسول الله الاول بعجزهم عن ادراك حقيقة اهداف الدعوة الاسلامية السياسية ، أو يتهمهم بانحرافهم عمدا عن منهجها .. !

* *

في اليوم السابع من شهر ابريل الماضي « عام ١٩٧٢ » نشرت جريدة الاهرام القاهرية ملخصا للندوة التي عقدت بدار الجريدة ، اشترك فيها الرئيس معمر القذافي رئيس جمهورية ليبيا مع عدد من كتاب الاهرام ومحرريه ، وقد استغرق الحوار — كما تقول الاهرام — سبع ساعات كاملة ، طرح الرئيس القذافي خلالها فكره ، وناقش فيها مناقشة حرة كل القضايا التي أراد أن يطرحها ، والتي أراد الحاضرون أن يطرحوها عليه ، وخصص النصف الاول من اللقاء لمناقشة القضايا الفكرية ، والمنطلقات الاساسية التي يبحث عنها فكر الثورة الليبية ، وعلى الرغم من الاهرام قدمت ملخصا مركزا لما دار في نصف وقت الندوة ، وهو الخاص بالقضايا الفكرية ، الا ان هذا الملخص المركز قد استوعب زهاء خمس صفحات ، ويا حبذا لو ان جريدة الاهرام كانت تكرمت فنشرت المناقشة كاملة على مرات ، أو طبعتها في كتيب مستقل ، وهذا يؤكد أولا الحرية الكاملة المطلقة التي كفلت للندوة ، كما زعمت الاهرام ، ويعطي ثانيا للقارىء صورة شاملة لهذه القضايا الفكرية لا تحتاج من القارىء العادي الى اجتهاد أو تأويل ..

أما الذين اشتركوا مع الرئيس القذافي ورفاقه من الليبيين ، فهم الاساتذة والدكاترة : توفيق الحكيم ، وعبد العزيز كامل ، وبنت الشاطىء ، وحسين فوزي ، ونجيب محفوظ ، ولويس عوض ، والشاعر محمود درويش ، وصلاح طاهر ، ومحمد حسنين هيكل ، واحمد بهاء الدين ، وعبد الملك عودة ، ومحمد سيد احمد ، وحاتم صادق ، وسميح صادق ثم جميل مطر ..

وقد كان اجتماع هذه المجموعة المتباينة التفكير والاتجاهات فرصة طيبة ، ليستكشف القارىء أغوار بعض النفوس ، وأعماق بعض الميول ، لا سيما وان القضايا الفكرية التي اثيرت ، كانت متصلة بالفكر الاسلامي من قريب ومن بعيد .

وقد تحدث الرئيس القذافي في هذه الندوة وأطال ، فهو متحمس لاثارة مثل هذه القضايا الفكرية بالذات ، وسبق لسيادته ـ قبل هـذه الندوة ، ان دعا عددا من المفكرين والكتاب للقاء معه في طرابلس للدخول في حوار حر مفتوح معهم حول هـذه القضايا ، استغـرق بضع عشرة ساعة ..

ورأي الرئيس القذافي واضح لا لبس فيه ، فهو يرى : ان العالـم تجتاحه موجتان جبارتان ، موجة الفكر الماركسي الذي يقدممفهوما يقول : انه « علمي » يفسر للفرد كل شيء ابتداء من أصل الوجود ، وانتهاء الى تحليل التاريخ وعلاقات الانتاج .. ثم سطوة الفكر الغربي ، بجبروتـه الرأسمالي ، وتاريخه الاستعماري ، وبين هاتين الموجتيـن الجبارتيـن العاتيتين ، يقف العالم الاسلامي والعربي ضعيفا « ممزقا » مضغوطا بين الاثنين ، شخصيته مهددة بالزوال والاندثار . .

والمجال هنا لا يتسع بالطبع لتناول كل ما ادلى به في هذه الندوة من آراء وافكار ، لا سيما وان التكافؤ لم يتوافر لها ، فأنتاذا استعرضت الاسمـاء التي اشتركت في الحوار ، وجدت بعضا من أصحابها لديهـم استعداد للتهوين من أهمية الاسلام منهجا وفكرا ، ولدى بعض ثان انكار تام على ان يكون للاسلام أي أدنى اهمية بوجوده وفكره ، كذلك وجدت لدى بعض ثالث ايثارا للصمت ، أو تحفظا في الكلمات ، حتى لا يتهـم بالرجعية ، اللفظة المحببة الى الباحثين عن ألفاظ جديدة توهم بالاساءة الى الاسلام ، وفي مقدمتهم دعاة الماركسية او هواتها أو محترفوها ، أو يتهم بالتعصب على الاسلام ، وهو ليس في حاجة الى ان ينظر اليه نظرات قد تسبب له شيئا من القلق ، اذن فلم يبق من يحتمل فيه ان يساند الرئيس القذافي سوى الدكتورة بنت الشاطىء ، والدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف ، الاولى بحكم كونها كاتبة اسلامية ، وأما الآخر بحكم ماضيـه

وليس حاضره • فاذا استثنينا هذين الى جانب الرئيس القذافي ، بدا هذا الحوار المفتوح كما لو كان فرصة سنحت للتحدي ، نستثني من هـذا الحوار أيضا بعض الكلمات البناءة المتزنة لكاتب أو اثنين على الأكثر •

كان اول من عقب على بيان الرئيس القذافي المسهب ، هو الاستاذ محمد سيد أحمد الماركسي التفكير والاتجاه بالرغم مـن انه ابن احـد الباشوات السابقين ، ومن الانصاف ان نعترف له بأنه انسان مثقف مهذب العبارة والاسلوب ، لا يلجأ في آرائه الى عنجهية التعالي ، ولا الى ثرثرة التطاول ، قال فيما قال خلال الحديث عن الدين كمنطلق ، ما يشير الى أن الدين لا يصلح كمنطلق لثورة كثورة ليبيا مثلا ، وحجته : ان النظـرة الدينية تجب المعاملات ، تجب الناحية الاقتصادية ، تجب الناحية القومية، ليس هذا وحسب ، بل انه يرى أن اعتبار الدين كمنطلق ، يصطدم بمشكلة مدى انطباق الدين على اتساع الجنس البشري ، لأن المقاييس الدينيـة تختلف من قطاع الى آخر ، ثم يقترح البحث عن قاسم مشترك يمكن ان يكون مقبولا من الجميع ، ثم نبدأ به ••

والحقيقة ان العراقيل التي تخيلها الكاتب عقبات تحـول دون ان يكون الاسلام منطلقا للثـورة ، هي من وحي التفكير الماركسي الـذي يرفض الدين جملة وتفصيلا ، حتى وان بدا في الجو منذ سنوات سحابة تحمل مظاهر هدنة مؤقتة متكلفة بين الماركسية والدين ، اقتضتها المصالح الذاتية للطرف الاول ، هذه المصالح الذاتية هي التي حملته على المعايشة السلمية الى أجل ••

واتهام الاسلام بأن من شأنه ان يعوق سير الحياة ، اتهام قائـم على غير أساس ، ليس هذا وحسب ، بل هو اتهام متعمد ، بسبب مخـاوف هذه الماركسية التي لا ترتاب في أن الاسلام الصحيح المتيقظ هو الصخرة التي تتحطم عليها كل آمالها ••

ويبدو ان الذين يتوهمون ان في استطاعتهم ان يضعوا الاسلام بسهولة في قفص الاتهام باعتباره معوقا لمسار الحياة ، هؤلاء ينسون ان الاسلام كانت له دولة قوية كبرى ذات قيم وحضارات تتضاءل امامها حضارة القرن العشرين ، وذلك يوم ان كانت الماركسية في ضمير الغيب، وتفتت هذه الدولة الاسلامية وانهيارها ، ليس سببهما قصورا في مبادىء الاسلام او في ايديولوجيته ، بل السبب الاول الجوهري تنكب المسلمين طريق الاسلام الصحيح ومنهجه القويم ، ثم مطامع الزعامات التافهة التي تعمدت التضحية بالاسلام من اجلها ، وكان ان تلاشت دولة الاسلام ، لكن الاسلام نفسه بقي عملاقا داخل قفص من فولاذ ، ويوم ان توجد الشعوب المسلمة الحية لتحطم القفص وتطلق سراحه ، يمكن للاسلام ان يقيم دولة قوية من جديد ، ويؤدي رسالته في الحياة على اكمل وجه .

ويتناسى هؤلاء المتهمون ايضا ان التهمة التي يوجهونها الى الاسلام ، يمكن ان ترتد على الماركسية نفسها ، فهي ترفض القوميات ، كما تجب كل اقتصاد الا ما انبثق عن فلسفتها ، واذا كان الاسلام يجب هذه كلها ، فلأن لديه بديلا من مبادئه ، مبادئه التي ليست من صنع الانسان الذي لا يملك ان يجرد ذاته من الهوى والمطامع والنزعات ..

ثم ان مركز الحوار كان منصبا عن البحث عن منطلق للثورة الليبية، وليبيا دولة مسلمة قبل كل شيء ، اذن فليست ليبيا الثورة في حاجة الى منطلق يرضى عنه العالم ، بل في حاجة الى منطلق يرضى عنه شعبها المسلم اولا .. ومع ذلك فالاسلام كمنطلق يتوافر لدى مبادئه ما يتجاوب له سائر الجنس البشري ...

اما المشكلة التي تخيلها الاستاذ محمد سيد أحمد، اذا اعتبر الاسلام كمنطلق ، وهي : ان المقاييس الدينية تختلف من قطاع الى آخر ، فهي مشكلة لا وجود لها في الاسلام ، فالاسلام اصول ثابتة غير قابلة للاختلاف

عليها ، او الجدال فيها ، ونحن لا ننكر ان مقاييس الاسلام تعرضت ، ولا تزال تتعرض لشيء من الاختلاف ، ولكن مرد ذلك ضعف سلطان الاسلام امام الضغوط المسلطة عليه، لتجبر مقاييسه على ان تسخر لأهواء الذين يملكون سلطانا اقوى من سلطان الاسلام نفسه ، وذلك في غيبة الشعوب المسلمة الحية ، وفي غيبة ضمائر علماء الدين انفسهم ...

وكانت « زلة » من الدكتورة المسلمة المثقفة بنت الشاطيء التي جارت الاستاذ محمد سيد احمد ، وهي التي قالت بالحرف الواحد في مطلع كلامها : « طبيعي يلزمني انني أتكلم ، بوصفي من المدرسة الاسلامية ، او المدرسة القرآنية بتعبير ادق » ثم رأت ان الاسلام هنا غير الاسلام في ليبيا ، غير الاسلام في المغرب ، غير الاسلام في السعودية .. كل يفهم الاسلام بشكل خاص ..!

اعتقد انه لا يغيب عن ذهن الكاتبة الاسلامية الكبيرة ، ان الاسلام اصول ومبادىء ثابتة ، وان تغير العقليات لا يعني تغير الاسلام نفسه ، ولو ان الدكتورة اشارت الى ان المسلمين هنا غير المسلمين في ليبيا .. غيرهم في المغرب ، غيرهم في السعودية .. لكان تعبيرها عين الصواب ، كما وفقت وهي تتحدث عن العقليات العجيبة التي تتناول مفاهيم الاسلام بطرق جديرة بالسخرية ..



وجاء دور الاستاذ الدكتور حسين فوزي ، وهو من الكتاب القلائل الذين يعتز بهم وبكتاباتهم كل مثقف ، ولكن اذا كانت الثقافة الناضجة يعتز بها لذاتها بغض النظر عن معتقدات اصحابها ، ما دامت ثقافاتهم انسانية مجردة .. فان هذه الثقافة لتهتز صورتها ، اذا بدا للمثقف ان الاعتزاز بثقافته مرهون بالتعالي على الدين كقيمة حضارية ولا جدال

في ذلك ، ومن باب اولى اذا بدا منه ان مدى فهمه للدين هـو التقدير الصحيح لجهله مفهوم الدين جهلا تاما •• فان آخر ما وصات اليه الفلسفة السوفسطائية بمفهومها الدارج في العصر الحديث : هو ان الدين لله •• الدين شيء بين المرء وربه •• الدين مسألة لا تهم الا الانسان وحده ••

الا ان الدكتور حسين فوزي لا يقف رأيه عند هذا الحد ، وانما يقرر شيئا آخر ، هو ان المجتمعات الحديثة لا يسيرها الدين اليوم ، ولا يمكن للدين ان يسير دولة ، ومع ذلك فلا مانع من ان نستبدل العقيدة بالدين ـ كما يرى الدكتور ، لكنها العقيدة « الوطنية » فاليابان مثلا قد تخلت عن الدين واخذت بأسباب الحضارة والعلوم الحديثة ، كدولة ، ولقد اجهد الدكتور نفسه للبحث عن دين اليابان او ادياتها ، فوجدها من البساطة بمكان ، فديانة الشنتو مثلا ـ وهي ديانة اجداد الامبراطور متسلسلة من الشمس ـ يحكيها الناس كالخرافات والاساطير ، اما اهم شيء لدى الناس هناك ، فهي العقيدة الوطنية التي تدفع المرء الى الاحساس بقوميته ••

واكرر هنا ان المجال لا يتسع لمناقشة مثل هذه الآراء ، فالهدف في هذا الحيز الضيق هو الكشف عن الآراء التي بها قلق تجاه الفكر الاسلامي ، والتي كانت ندوة الاهرام المفتوحة فرصة متاحة للكشف عنها ، ولكن المجال هنا اذا لم يسمح بالمناقشة لمثل هذه الآراء ، ولم يكن من المعقول ان يسمح المجال على صفحات الاهرام ، اقصد امبراطورية الاهرام •• بمناقشة الحوار المفتوح ، فلا اقل من ان يتساءل الانسان حتى فيما بينه وبين نفسه على الاقل :

* هل الاسلام حجر عثرة امام التمسك بالوطنية والتشبث بأرض الوطن ؟

لعل الدكتور حسين فوزي ومن على شاكلته لا يعرفون ان رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ برغم ما لقيه من وطنه ومسقط رأسه من عنت واذى ــ وقف ليلة الهجرة وفي اللحظات الحاسمة على مشارف مكة ، يلقي عليها نظرة الوداع الاخيرة ، ويقول والاسى ملء نفسه :

« والله اني لأعلم أنك أحب بلاد الله الى الله ، وأحب بلاد الله الي .. ولولا أناس قومك أخرجوني منك ما خرجت .. »

❋ أينكر الدكتور حسين فوزي ومن هم على شاكلته ، ان الاسلام اقام يوما ما ، وعلى اساس من ايدولوجيته الدينية ــ اقام دولة ذات حضارة ، كانت ملء سمع الدنيا وبصرها بأسرها ؟؟

❋ أيرى الدكتور حسين فوزي ــ ومن على شاكلته ــ ان مما يعيب الاسلام في عصوره الاولى ، هو ان انفتح على كل حضارات العالم المعاصر له ، وفتح صدره لكل هذه الحضارات الانسانية ؟

❋ اذا كان الدكتور حسين فوزي يقترح منطلقا انسانيا يرضى عنه الجميع ، فهل هناك مانع من ان يكون هذا المنطلق الانساني باسم الاسلام ؟

ان رسالة محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ارادها الله ان تكون رحمة للعالمين ، والمنطلق الانساني مما يحتويه النص القرآني ، ويبقى ان نقول : ما ذنب الاسلام اذا رفض منطلقه الانساني غير المسلمين تعصبا ؟

❋ ❋

ان الكاتب الكبير الاستاذ توفيق الحكيم عرف عنه انه انعزالي الى درجة ما ، واعتقد انه لم يكن حريصا على الاسهام في حوار هذه الندوة وربما كان لرغبة الرئيس القذافي في الندوة واشتراكه فيها دافع اساسي

لكاتبنا الكبير ليكون احد شهودها على الاقل ، ولم يكن متوقعا منه الا الاسهام في هذا الحوار المفتوح بالصمت اضعاف نصيبه من الكلام ، ومع ذلك فهو لم يبد رأيا جديدا ، كما لم يبعث رأيا قديما ، لقد بدأ حديثه بطرح تساؤلات هي في حاجة الى الافاضة في الاجابة عنها ، وقد يكون لتساؤلاته رواسب ذاتية في اعماقه تفتح مجالا للتشكيك في قدرة الاسلام على ان يكون منطلقا في العصر الحاضر ، ولسنا محاسبين البشر على ما ترسب في اعماقهم من افكار ، فالله وحده هو المحاسب للبشر على ضمائرهم ونواياهم ، ويبقى بعد ذلك ان تساؤلات الكاتب الكبير كانت جديرة بالاهتمام ، وفي حاجة الى الافاضة في الاجابة عنها :

تساءل الكاتب الكبير :

* هل الفكر الاسلامي اليوم قابل لملاءمة العصر الحاضر ؟

* واذا كان ملاءما ، فمن الذي سيقوم بالتطور فيما يختص بالفكر الاسلامي ؟

* وهل الفكر الاسلامي صالح كما هو بالضبط ــ اي على حالته التي كان عليها يوم ان كان الناس يعانون ما يعانون في الجاهلية ــ ام هو صالح لكل عصر مع التطوير ؟

حاول الاستاذ توفيق الحكيم عضو مجمع اللغة العربية ، الذي حرص على ان يطرح اللغة العربية جانبا في كلماته المعدودة ، حتى بدا بعض تساؤلاته كما لو كان الغازا في ثوبها العامي ــ حاول ان يقول شيئا مع الحفاظ على صياغته في تساؤلات :

« اذا نحن اعترفنا بأن الفكر الاسلامي صالح لكل عصر مع التطوير ، فمن الذي سيقوم بالتطوير ؟ اذا قلت لي مثلا : رجال الدين .. عندما جاء

محمد عبده يقول : ان استثمار الاموال ضروري ، علام تقوم الدولة العصرية ؟ على استثمار الاموال ، اموال اجنبية وغير اجنبية ٠٠الاموال لها فوائد ٠٠ ماذا نعمل ؟ أنعطي اموالنا لأجنبي يستثمرها ويربح منها ، ونحن نحرم هذه الارباح ؟ قالوا : هذا كافر « يعني الامام محمد عبده » كل واحد من رجال الدين يقول لك اليوم : « نحن مقيدون بالنص» لكن هذا التقييد من يرفعه ؟ يقولون لك ــ اي رجال الدين على حد تعبيره ــ « نفتح باب الاجتهاد » لكن من الذي يفتح باب الاجتهاد ؟ هذه مشكلة كبيرة جدا أمام الفكر الاسلامي اليوم ، من الذي يقوم بالتطوير ، هذه اهم مسألة يجب ان تكون موضوع الحوار ٠٠٠ » ٠

الحقيقة ان الاستاذ توفيق الحكيم لم يتخل في عباراته المحدودة عن أسلوب الحوار الشيق الذي تمتاز به قصصه ، وربما كانت كلماته عن الامام محمد عبده كلمات اجتهادية منه في الفاظها ، فقد استقر في اذهان العامة او المثقفين الذين لم يقرأوا شيئا عن تاريخ الامام وفكره ، او قرأوا اقل القليل ، ان الامام كان عنوانا في عصره لكل محاولة اصلاحية ، وان علماء الدين ــ الا اقلهم ــ من المعاصرين له ، كانوا عنوانا على التزمت والجمود ، ومن حملة الهراوات للتصدي لكل محاولة له من محاولات الاصلاح في رحاب الفكر الاسلامي ٠٠

لا ريب في ان ما اثاره الاستاذ توفيق الحكيم كان جديرا بأن يكون محور نقاش مستفيض ، ويبدو ان تصدي الرئيس معمر القذافي للكلام حال دون ذلك ، ولا سيما انه قال ردا على الاستاذ توفيق الحكيم : هذا سؤال لاحق ، تتفق اولا على الاسلام والبديل ، قبل ان تتفتح قضايا اخرى ٠٠ » وكان ان انتقل الحوار الى مسألة التكييف الاقتصادي للدولة ، وبقيت اسئلة الاستاذ توفيق الحكيم او تساؤلاته تنتظر الاجابة ٠٠

كنت اود ان يحدد الاستاذ الكبير مفهوم التطور عنده ، والى اي مدى يكون ، فالانسانية مثلا بلغت اليوم شأوا من التقدم العلمي لم يسبق له مثيل ، فهل يعقل مثلا ان يأبى الاسلام مسايرة هذا التقدم العلمي، ولا سيما اذا كان لخدمة السلم واسعاد البشرية قاطبة ؟

والانسانية مثلا بلغت ايضا شأوا من التقدم في مجال استثمار المال، فهل يعاب على الاسلام اذا كانت له مبادىء يجب التمسك بها حين تستثمر الأموال ؟ ولست ادري من اين للاستاذ توفيق الحكيم ان الاسلام لا يسمح باستثمار رؤوس الاموال الاجنبية في ديار المسلمين ، او استثمار رؤوس اموال المسلمين في بلاد غير اسلامية ، ما دامت الانظمة الاقتصادية وظروفها تسمح بذلك ، كل ما نعرفه من دراساتنا الاسلامية، ان رأس المال حر في الاسلام ، ما دام في استثماره بعيدا عن شبهة الربا ، وما دام ايضا لا يستثمر فيما حرم الله ..

واذا كانت القوانين الوضعية مثلا تحرم استثمار رأس المال فيما هو محظور ، كتجارة المخدرات مثلا ، فكيف يلام الاسلام اذا هو حرم استثمار الاموال فيما حرمه الله ، حتى وان لم تحرمه القوانين الوضيعة ؟

ان البعض يتوهم ان التطور في الاخلاق لون من التقدم الحضاري في القرن العشرين، فهل يطلب من الاسلام ان يساير هذا التطور الاخلاقي، فيسمح للمرأة المسلمة ان تراقص الاجنبي ، وان يفتح باب الحرية على مصراعيه ، للفتاة المسلمة لتخالط من تشاء من الشباب بدون رقابة عليها او حساب ؟

المرأة المسلمة او الفتاة المسلمة من حقها ان تعمل في كل الميادين ، لكن من ذلك الذي يلوم الاسلام اذا هو وقف حائلا دون ان يسمح لها بالعمل مضيفة في صالات القمار او «جرسونة» في البارات و «الكباريهات»

او مرافقة رخيصة لسائح اجنبي تشجيعا للسياحة او « موديلا » في كليات الفنون الجميلة تقف عارية امام الشباب ليرسموها ٠٠؟؟

لقد قال الاستاذ توفيق الحكيم في نهاية تساؤلاته: انها مشكلة كبرى امام الفكر الاسلامي اليوم٠٠» واعتقد ان المشكلة الكبرى ليست قصورا في الاسلام ولا عجزا فيه عن ان يكون منطلقا ثوريا ، ولكن المشكلة هي ان نحاول ـ نحن المسلمين ـ الضغط على الاسلام حتى نفرض عليه مسايرة كل شيء ، والا اتهمناه بالرجعية والتخلف ، والمشكلة ايضا بالدرجة الثانية ، هي ان كثيرين ممن يطيب لهم الضغط على الاسلام ليسوا على جانب من الثقافة الاسلامية الواعية ، ولا على درجة ـ ولو صغرى ـ من الصلة بالله ، والا كانوا يرون انه من الخير لنا ان نحاول ان نطوع امورنا جهد المستطاع لكي تدور في فلك الاسلام ، لا ان نضغط على الاسلام لنطوعه ، حتى يدور في فلك اتجاهاتنا ، حتى ولو كانت بعض هذه الاتجاهات يحقق مصلحة ذاتية لقوة من القوى ، او لفرد من الافراد ٠٠

اما المشكلة بالدرجة الثالثة ، فهي العقليات العجيبة التي منحت نفسها حق احتكار الاسلام بدعوى التخصص ، وهذه العقليات هي التي تقف بالمرصاد لكل جديد في حياتنا وهي تحمل هراوات تغنيها عن ان تحمل فكرا ٠٠٠

* *

يبدو ان الدكتور لويس عوض كان حريصا على ان يأتي دوره قبيل النهاية ، ليقوم بمهمة المعقب على ما دار في الحوار ، ونحن لا ننكر ان الدكتور لويس عوض انسان له قدر من الثقافة يليق به وبمكانته ، فهو من القلائل الذين تستوعب دراساتهم شتى الآداب العربية والاجنبية

قديمها وحديثها ، والدكتور لويس عوض من المؤمنين اعمق الايمان بأن الادب يجب أن يكون انسانيا مجردا حتى يكون ادبا ، ولكنا مضطرون ان نتحفظ قليلا ازاء ايمانه بأن يكون الاديب انسانيا مجردا حتى يكون اديبا ..

في هذه الندوة لم نر فيها الدكتور لويس عوض الاديب كما ينبغي ان يكون عليه الاديب الذي من اخص خصائصه ان يكون مجردا ، وانما رأينا الدكتور لويس عوض المفكر الذي يرتدي ثوب الاصلاح بلا منهج، وعمامة المجتهد بلا فقه ، وطيلسان السلطان بلا دولة ، ويحمل هراوة العملاق بلا منطق ، ومصباح الهداية بلا ضوء ، ومسبحة المتبتل بلا ذكر ..

انه يرفض التراث الاسلامي جملة وتفصيلا ، ويعتبره من المعوقات لنهضتنا الثقافية ، لا لشيء الا لانه مرتبط بالاسلام ، لكنه لا يرفض التراث الاغريقي او الروماني او — حتى — التراث الفرعوني ، لا لشيء الا لانه غير مرتبط بالاسلام ، وهو ايضا يرفض الادب العربي لا لشيء الا لانه مرتبط بالعرب ، والعرب عنده ليسوا اهل حضارة ولا ادب ، لكنه لا يرفض الادب الاغريقي او الادب اللاتيني لا لشيء الا لانه ادب غير مرتبط بالعرب ..

وانه مثلا يمنح نفسه حق الوصاية على الادب والفكر ، ويرفض منح المفكرين الاسلاميين حق القيادة الفكرية ، وهو مثلا يرحب بالاجتهاد للعامة حتى في النصوص الاسلامية الراسخة التي لا مكان للاجتهاد فيها، ولكنه لا يرحب باجتهاد رجال الفكر الاسلامي حتى فيما لا نص فيه ..

وانه مثلا يعتقد اعتقادا راسخا ان الاسلام لا كهنوت فيه ، ولا

رجال دين لهم طابعهم المميز ، فكل مسلم مفكر من حقه ان يتحدث عن الاسلام الى جانب العالم الازهري الذي قضى شطر عمره بين جدران الازهر ، ومع ذلك يصر على ان الكهنوت والاحتكار قائمان في حضن الاسلام ، ليجد لنفسه مبررا لان يحمل هراوته او عصاه او عمامته السوداء ليطارد الاسلام والفكر الاسلامي ، كلما سنحت له فرصة يطمئن فيها الى خلو الميدان من الرجال ..! الدكتور لويس عوض يهتم اهتماما كبيرا بمسألة الوصاية او القوامة على تجديد التراث او تجديد الدين ـ والكلام بالطبع على الاسلام والتراث الاسلامي ـ برغم ان الدكتور اشار الى ان الحديث عن الاسلام يشمل الدين كله ، فيتساءل مزكيا بعض تساؤلات الاستاذ توفيق الحكيم، والفرق بينهما ان الاستاذ توفيق الحكيم اكتفى بالتساؤل اما الاستاذ الدكتور لويس عوض فقد ادلى برأيه حين تساءل : من الذي سيبقى وصيا على اكتشاف الاسلام .. وتجديد الاسلام .. والدين عامة ؟

وقبل ان يطرح الدكتور لويس سؤاله ، اشار الى ان هناك انفصالا حضاريا حصل في المنطقة بين العرب والعصر الحديث ، والى ان بلادنا كانت تسير في سبيل التطور الى ان جاء المماليك والاتراك فقتلوا كل حاجة لمدة الف سنة ... »

ويبدو ان الدكتور لويس عوض ، العلامة والبحر الفهامة ، يتوهم وهو يدلي بمثل هذا الكلام العجيب ، ان الناس جميعا ومنهم من اشتركوا في الندوة اميون ، وانه ـ وهو يتكلم ـ توهم نفسه ابا حنيفة رضي الله عنه ، في هيأته حين قال : « آن لأبي حنيفة ان يمد رجله .. والقصة يحفظها العوام ، فالمماليك اولا حكموا مصر منذ ١٢٥٤ ـ ١٥١٧ م قرنين ونصف قرن ، وقد جاءوا الى مصر منذ اقل من ٧٢٠ عاما ، والمؤرخون المنصفون ان لم يسمع بهم الدكتور يقررون ان الحضارة لم تتوقف في عهد

هؤلاء المماليك ، وآثارهم باقية تدل عليهم ، فكيف قتلوا كل حاجة لمدة الف سنة ؟ ان هذا تطاول على التاريخ لا يجرؤ عليه الا مثل الدكتور العلامة ..

وحين يتصدى الدكتور لويس للاجابة عن تساؤله ، يرى انه اذا لم يفرض العالم العربي معركة التعليم ، فلا يمكن ان يتصدر الفقهاء لمسئولية اكتشاف الدين او تجديده على المستوى الشعبي ، وطالما ان بلدنا تبلغ الامية فيها ٩٠ ٪ او ٨٥ ٪ فهذه الوصاية مرفوضة منذ البداية، فهؤلاء الناس — اي جماهير الشعب سيكونون اسرى لمفاهيم وتفسيرات ومعتقدات سابقة من عصور ورثناها عن الانفصال الحضاري الذي سبق الكلام عنه ... وحتى اذا قام اليوم بيننا مجتهدون ، فسيبقى امام حيز من الزمن ، وسوف نكون محتاجين الى ضوابط تحول دون الانحراف الفكري في تفسير الدين ، هذه الضوابط تنحصر اولا : في انتشار التعليم بصورة حاسمة ، ثم الاستقلال الاقتصادي للفرد بصورة حاسمة ..

لست ادري ماذا يقصد الدكتور باكتشاف الدين وتجديد الدين ؟ هل الاسلام بعد اربعة عشر قرنا من ظهوره لم يستكشف بعد ؟ فالاسلام ليس طلاسم ولا الغازا في حاجة الى الحل ، فمصدره الاساسي — وهو كتاب الله — آيات بينات ، لا يعجز انسان عن ادراكها لأول وهلة ، قد تختلف افهام الناس في مدلولات الفاظها ، لكنهم لا يختلفون في ان لكل لفظ منها معنى ومدلولا ميسرا ادراكهما لكل انسان ، وهذا سر من اسرار البلاغة القرآنية يعرفه المبتدىء في مراحل التعليم الاولى .

اذا نحن سلمنا جدلا بأن الاسلام في حاجة الى استكشاف ، يجب ان نسلم ايضا ، بأنه حتى رسول الله واصحابه من الرعيل الاول لم يستكشفوا الاسلام ، فكانوا مبلغين وحسب : الرسول عن طريق الوحي ، وأصحابه عن طريق كتاب الله وسنة رسوله — صلوات الله عليه وسلامه » .

ولست ادري ايضا ، ماذا يقصد الدكتور بقوله : تجديد الدين ؟•

فلا اعتراض على لفظ التجديد ، ولكن الاعتراض على مغزاه كما يريده الدكتور لويس عوض ، ربما كان الدكتور يعتبر الدين كالادب والفن هما في حاجة دائما الى تجديد او تطوير ، يؤدي الى هدم قواعد او الغاء مقاييس ، ولا يحاول ان يعتبر ان مفهوم التجديد المتداول بين فقهاء المسلمين ومفكريهم يعني الاجتهاد ، وان لفظة « مجدد » مرادفة للفظة « مجتهد » وان مجال الاجتهاد حيث لا يوجد نص ، او تفسير النص نفسه ••

والعجيب ان الوصاية التي يتوهمها الدكتور وامثاله ويعلن على الملأ رفضها ، لا وجود لها ، ويبدو ان شهوة الرفض عنده تدفعه الى ان يتوهم اشياء حتى يعلن رفضها ، فان احالة البرلمان مسألة قانونية الى اللجنة القانونية به لا تعني الاعتراف بالوصاية لهذه اللجنة ، وان استرشاد المحكمة برأي الطب الشرعي في قضية من القضايا المعروضة عليها ، لا يعني الاقرار بالوصاية للاطباء الشرعيين ، وكذلك ، فان الاستنارة برأي الدين في امر من امور الدين او الدنيا ، لا تعني ان لعلماء الدين القوامة على الدين ، ان القرآن يقول : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » واهل الذكر هم الخبراء ، يتمثل فيهم علماء الدين كما يتمثل فيهم الاطباء الشرعيون ، والاطباء البشريون ، ورجال القانون ورجال الاقتصاد ، سواء بسواء •• ومع ذلك فلا يسعنا ــ انصافا للحقيقة ــ الا ان نقر الضوابط التي ارتآها الدكتور لتكون واقية من الانحراف الفكري في تفسير الدين ، وتنحصر هذه الضوابط في ضابطين اساسيين هما : مكافحة الامية ، والاستقلال الاقتصادي للفرد •• وللضابط الآخر اهمية بالغة ، اذ لا يتصور في كل الناس المثالية التي

تحملهم على ايثار الموت جوعا ، على ان ينحرفوا عن كلمة الحق .. كما لا يتصور في انسان مهدد في لقمة العيش ان يكون حرا ..

وهناك ضابط ثالث ، هو ضمان الحرية، اذ الحرية وحدها لا تكفي، فمن السهل على انسان ان يعبر عن رأيه بحرية تامة بلسانه ان هو عجز بقلمه ، لكن من الصعب عليه ان يطمئن بعد ذلك الى مصيره ومستقبله، ما لم تكن هناك ضمانات من القانون والدستور ، بشرط ان لا تكون هذه الضمانات حبرا على ورق ، كما هو الحال في معظم الدول العربية والاسلامية ..

لقد نسي الدكتور لويس عوض نفسه في فورة حديثه ، فتوهم انه يجلس على كرسي الاعتراف لاستكشاف عقيدته الدينية، او ربما اراد ان يقحم في الموضوع شيئا ذاتيا خاصا به لشيء في نفس يعقوب ، فالدكتور له رأي خاص في الدين – اي دين بالطبع – فهو عنده مجموعة من المعطيات « كالبوذية وبعض الفلسفات الاخرى مثلا » بعضها اخلاقي ، وفي حدود ان الدين – كما يقول – يعطي ويدعم ، فهذا لا غناء عنه لاي مجتمع من اي نوع كان ، وفي حدود ان الدين يحاول ان يوجد الحاجة التي يتصورها هو وحدة الكون ، فهذه محاولة اجتهادات ميتافيزيقية لتعليم الناس انهم ليسوا « لقطاء » في هذا العالم ، ان لهم في النهاية مرجعا ، يعني اكبر منهم و « يمكن » اكبر من الانسانية ..

هذا الاحساس الميتافيزيقي لم تستطع الفلسفة ولا العلم دحضه ، لكنه – اي الدكتور – لا يقبل جميع المعطيات الدينية او مفترضاته على انها حقائق علمية ...

ويواصل الدكتور عملية الاستكشاف النفس ، فيصرح قائلا :

« طوال عمري لم انظر الى الدين ككتاب تشريع ، او كتاب طبيعة أو كتاب كيمياء ، يعني الكتب المقدسة لم تعمل لهذا ، انما عملت لتنقية الضمير الانساني من حيث هو فرد ، ومن حيث هو عضو في الجماعة ٠٠»

كلام كثير حاول فيه الدكتور استعراض عضلاته ، يرفض اشياء من الدين رفضا لا مرونة فيه ، ويقبل منه اشياء قبولا محوطا بكثير من التحفظات ، واكرر هنا اننا لسنا نهدف الى الرد على كل قول ، ولا تفنيد المفتريات والتطاولات ، وانما نهدف الى مجرد تعرية لهذه الافكار ، فالدكتور مثلا يترنم بأن اوربا في عصر ظلماتها ثارت على الكنيسة وفصلت الدين عن الدولة ، لان الدين كان عاملا مساندا للاقطاع ، وكذلك فعلت الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، ثم يحاول ان يوهمنا بأن الصراع الذي قام من قبل بين المفكرين الاوروبيين وبين الدين موجود على ارض المنطقة العربية ، وان الاشتراكية التي تتطلع اليها المنطقة العربية سوف تصطدم بالدين لا محالة ٠٠٠ وهذا كلام قد يبدو عجيبا ، لكن يزول العجب اذا صدر من « مفكر كبير » كالدكتور لويس عوض ٠٠ الذي حاول ان يلف ويدور كثيرا ٠٠

ان الدكتور لويس كان يتوهم نفسه قائد ثورة ، او مفكرا كبيرا وكل اليه رسم مستقبل لهذه الامة ، فأراد ان يضع النقط على الحروف ، لكنه فشل في ان يكبت حفيظته على الاسلام ٠

« ان السؤال الذي يواجهنا الآن ، هو كيف نعيش هذا العصر ــ كما يجب ــ مستكملين شروط الرفاهية ؟ سنجد مثلا ان هناك حاجة اسمها الاشتراكية والرأسمالية ، كما ان لدينا الاسلام ، انا اعتقد اننا نملك كل هذه القيم : **الاسلام بالوراثة** ، والاشتراكية والرأسمالية بالانسانية ٠٠ بالرابطة الانسانية ، فأي قيمة او اية وسيلة مادية او روحية

تحقق زائدا كما نريد فهي صالحة ، واية قيمة تؤخرنا فهي غير صالحة سواء أكانت من هذه ام من تلك ..!

وبهذه القسمة الضيزى جرد الاسلام من رابطة الانسانية حيث انعم بهذه الرابطة الانسانية على الاشتراكية والرأسمالية، وحسب الاسلام انه لدينا بالوراثة اي اننا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ..!

وآسف لاني لا استطيع ان اسجل هنا كل ما فاه به لسان الدكتور لويس عوض ، فقد كان نصيبه من الحوار النصيب الاوفر ، بالاضافة الى انه زج بنا في متاهات لا اول لها ولا آخر ، وقد كانت فرصة سانحة له لا تعوض ..!

❋ ❋

ان الدكتور لويس عوض كان يتوهم نفسه قائدا سياسيا لثورة ، او ابا روحيا لحركة اصلاحية ، فوض في رسم مستقبل لهذه الأمة ، فأراد ان يتكلف الجرأة ، ويضع النقط على الحروف ، لكنه فشل في ان يكبت حفيظته على الاسلام وتراث الاسلام ، ولم يكن اهماله للغة العربية في حواره عن عجز وحسب ، بل ايضا لان اللغة العربية عنده من المؤسسات المتخلفة التي ورثناها ..

وآسف لاني لا استطيع ان اسجل هنا كل ما فاه بالسانه ، فقد كان نصيبه من الحوار النصيب الاوفر ، بالاضافة الى انه دخل بنا في متاهات لا اول لها ولا آخر ، وكانت الندوة ــ اقصد ندوة الاهرام هــذه ــ فرصة بالنسبة له ، لا تعوض ..



اما الاستاذ نجيب محفوظ ، فقد حرص على ان يمنح سمعه كل ما

دار في الندوة من حوار ، لكنه قبيل نهايتها اراد ان يقول شيئا •• اي شيء ، لكن لو كان الله قد اراد به خيرا لكان قد التزم الصمت حتى النهاية ، والاستاذ نجيب محفوظ كاتب قصة من طراز له تأثيره ، وفي حياته الخاصة انسان محافظ ، وفي حياته العامة انسان متحفظ ، ولم يكن عجيبا منه ان يشترك بالصمت في حوار مفتوح ، لكن العجيب منه أن يشذ عن طبيعته فيدلي بدلوه في الحوار ولو بالكلمات المعدودة كما حدث ، وفي موضوع يمس العقيدة الدينية ، والذين يتابعون قصصه يدركون انه يلوذ بالتحفظ في هذا المجال • اذا استثنينا : « في دنيا الله » و « اولاد حارتنا » ويبدو ان ظاهرة التهكم على التدين، والغمز في الدين شيء اصبح لازما لكتاب القصة والمسرح حتى تسلط عليهم الاضواء التي يملك مشاعلها حفنة من ادعياء النقد احمرهم واصفرهم على السواء ••

فماذا قال الكاتب القصصي اللامع الاستاذ نجيب محفوظ ؟

انني مضطر الى نقل كلماته من العامية الى العربية التي اهملت اهمالا عجيبا في هذه الندوة ، قال :

« اعتقد ان السؤال الذي يواجهنا الآن هو :

•• كيف نعيش هذا العصر — كما يجب — مستكملين شروط الرفاهية ••؟

سنجد مثلا ان هناك حاجة اسمها الاشتراكية والرأسمالية ، كما ان لدينا الاسلام ، وانا اعتقد اننا نملك كل هذه القيم : **الاسلام بالوراثة ••** والاشتراكية والرأسمالية بالانسانية •• بالرابطة الانسانية •• فأية قيمة واية وسيلة مادية او روحية تحقق زائدا كما نريد فهي صالحة ، واية قيمة تؤخرنا فهي غير صالحة ، سواء أكانت من هذه ام من تلك ••! »

وبهذه القسمة الضيزى جرد القصصي اللامع الاسلام من الرابطة

الانسانية حيث انعم بها ــ وحسب ــ على الرأسمالية والاشتراكيــة ، وحسب الاسلام في تقديره انه لدينا بالوراثة اي اننا : وجدنا آباءنا على امة •• وانا على آثارهم مقتدون » اما مقياس التفاضل بـين هذه القيم الثلاث فهو فائض الربح كمنهج الرأسمالية في ميدان الاقتصاد •• وكان خيرا للقصصي الكبير لو سكت ••!

❋ ❋

لقد اجلت الحديث عن الاستاذ احمد بهاء ، لانني سأتناول رأيه في مجالين ، في هذه الندوة الاهرامية ، وفي احد احاديث الاحد التي كـان يكتبها في الاهرام كل اسبوع ، واقصد الحديث الذي سجل فيه علـى صفحات الاهرام في ١٢/٣/١٩٧٢ لقاء له مع الرئيس القذافي•• والاستاذ احمد بهاء ــ قبل الدخول في الموضوع وللحقيقة وحدها ايضا ــ مـن الكتاب القلائل ــ والقلائل جدا ــ الذين يحترمون عقولهم حين يفكرون ويحترمون اقلامهم حين يكتبون ، واحترامهم لعقولهم واقلامهم ، ليس مصدره ذاتيا وحسب، بل مرده ايضا احترامهم للقارىء ، فلا هم يصرعون رأسه بالتناقض في تفكيرهم ، ولا يصدعون عقله بالتلفيق في كتاباتهم ، ولا يصدعون نفسه بالتزلف الذي لا يشوه التاريخ ــ وحسب ــ بـل يبيح ازدراء القارىء وامتهانه ••

ليس معنى هذا ان كل يكتبه الاستاذ احمد بهاء ويعتقده مما يتصل بالفكر الاسلامي او الايديولوجية الاسلامية •• لا غبار عليه ، ولكـن الذي اود ان اقوله : ان آراءه نابعة من ذاته ، ليس عليهـا ضغوط مـن مؤثرات خارجية ، ولا مرغبات من مكاسب داخلية ، لذلك فهي ــ فوق انها جديرة بالمناقشة ــ جديرة ايضا بالتقدير ••

ولنعد الى حديث الاستاذ احمد بهاء الذي لخص لنا فيه لقـاءه مع

الرئيس القذافي ، ولم يكن الاستاذ احمد بهاء مدعوا الى هـذا اللقـاء وحده ، بل كان هناك غيره كثيرون من كتاب ومؤلفين ومفكرين ، لبـوا الدعوة من مصر واقطار عربية اخرى .

كان تعقيب الكاتب على الندوة التي دعا اليها الرئيس القذافي في طرابلس والتي هي شبيهة الى حد ما بندوة الاهرام ، كان تعقيبه جديـرا بالاهتمام ، حين قال مثلا :

« ان الظاهرة الجديرة بالدراسة هي مرحلـة انحلال الحضـارة الاسلامية العربية . ولماذا حـدث هذا ؟ المؤلفون المسلمـون في الاغلب الاعم يفرون من تحليل هذا الاضمحلال ، والتفسير السهل : ان نقول : ان الاستعمار هو الذي حطم هذا الازدهار ، ولكن ما كان للاستعمـار ان ينجح بمفرده ما لم تدب عوامل الانحلال من الداخل ، وقد دبت عوامل الانحلال بالتحديد مع اقفال باب الاجتهاد ، ومـع تفرق المسلمين الـى احزاب سياسية ألبسوها ثياب مذاهب دينية ، حتى شرقت ارض العرب بالدم حين اختفت الشورى وحلت نظـم الاستبداد ، وتسلل العسكر من العرب اولا ، ثم من غير العرب الى مواقع السلطة ، وتغير دور العلماء ، فلم يعودوا مجتهدين ، ومفكرين ، بل صاروا مفسرين ومبررين لرغبات السلطان مهما كان لقبه ...!

وعبء هذه التركة عبر قرون طويلة ، ما زال يثقل كاهـل المسلمين والعرب حتى الآن ، وما زال هو الذي يحجب عن العيون جوهر الاسلام الاصلي ، الذي دعا الى الاجتهاد والعدل ..

ويرى الكاتب الكبير انه يجب ان نواجه بعض المهمات اذا عقدنـا العزم على ان يعود للاسلام مكانته اللائقة به ، من هذه المهمات تصفيـة الانشقاقات الدينية القائمة اليوم على قدم وساق ، ثم اعادة كتابة التاريخ الاسلامي ، ثم تنقية التراث القديم ، على ان هذا كله يجب ان يتم بالاسلوب

السليم •• والاسلوب السليم ــ كما يقول : هو فتح باب الحوار والنقد الحر لأنفسنا ، ثم جذب اكبر عدد من المواطنين الى دائرة الحوار ، ذلك ان ابقاءهم خارج الدائرة يبقيهم في نطاق السلبية ويؤخر عملية تطويرهم وتغيير حوافزهم ومثلهم ••!

ان ما ارتآه الكاتب الكبير حق ، كذلك فان اسلوب العلاج الحاسم هو فتح باب الحوار والنقد الحر لأنفسنا ، لكن ايــن الارض الطيبــة ــ سواء في البلاد العربية ام البلاد الاسلامية ــ التي تتقبل عــن رضا وطيب خاطر مثل هذا الحوار الحر المفتوح ••؟

هل نسي الاستاذ احمد بهاء ان بعــض الظواهــر السياسية او الاجتماعية قد فرضت على بعض الشعــوب العربية ، ولم تترك اية فرصة لمناقشتها ، كل ما سمح به ــ ليس الا ــ هو تمجيدهــا والثناء عليهــا ، وابراز عديد من المزايا الجديدة لها ، لم تكن هذه المزايا تدور بخلد الذين فرضوها عندما ارتضوها وقرروا فرضها ••؟

ثم هل نسي الاستاذ احمد بهاء ان بعض الدساتير في البلاد العربية او الاسلامية ، كان ولا يزال ينص على ان بعض الاشخاص ذوات مصونة لا تمس ، لانها فوق النقد او فوق القانون ••

ان الاسلام مثلا لا يعترف لانسان ــ كائنا من كان ــ بأنه فــوق النقد او فوق النصوص الشرعية ، حتى الرسول نفسه اعتبره القرآن بشرا قابلا للتوجيه والتصويب لبعض سلوكه الشخصي ، ولعل قصة المجادلــة التي حدثت بين امرأة من عامة المسلمين ورسول الله ــ صلوات الله عليه ــ ابرز مثل على ذلك ، حيث ايد القرآن موقف المرأة ، ولم ينقص ذلك شيئا من قدر الرسول عليه السلام الذي امره الله ان يشاور اصحابه في الامر ، ولعل الله سبحانه اراد بقصة المجادلة حيث انصف رأي المــرأة المسلمــة العادية لانه كان على صواب ، لعل الله اراد ان يغلق الباب في وجه مــن

يحاول من حكام المسلمين بعد الرسول ان يدعي حصانة مقدسة ضد النقد لانه ظل الله في أرضه ..

وهنا مسألة جديرة بالاهتمام ..

فالاسلام مثلا يواجه اليوم عديدا من التحديات السياسية والفكرية في عقر دياره ، هذه التحديات تساندها السلطة وكل وسائل اعلامها ، حيث لا سلطة اليوم للاسلام ولا وسائل اعلام له ، فاذا كان من حق الاستاذ احمد بها أن يرى المبادرة بتصفية الانشقاقات المذهبية والطائفية التي تتشبث بالاسلام زورا ، واعادة كتابة التاريخ الاسلامي من جديد ، ثم تصفية التراث الاسلامي مما علق به ، ورأيه هو الحق الذي لا جدال فيه ، فان من حقنا ان نضيف الى مبادراته الثلاث هذه المبادرة الرابعة ، وهي تصفية التحديات التي لا تزال تواجه الاسلام عن طريق اسلوب الحوار الحر المفتوح ، بشرط ان لا يمثل الاسلام في الحوار علماء موظفين، لوظائفهم تأثيرها على آرائهم ، أو علماء للرغبة أو الرهبة تأثيرها على أفكارهم ، بل يمثل الاسلام في طرفي الحوار الحر المفتوح مفكرون اسلاميون مجردون من الرغبة أو الرهبة ، للكلمة عندهم قداستها ، وهؤلاء المفكرون الاسلاميون يجب أن يكونوا من ذوي الآفاق الواسعة ، والعقليات الناضجة ..

ولعل الاستاذ أحمد بهاء لا يذكر ان في مطلع حركة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، كتب عالم ديني ــ وهو يومئذ في مركز مرموق ، كتب في جريدة يومية يقول ما مضمونه : « ان الاسلام لا يقر النظام الملكي الوراثي ... » وكان ان احتجت دولة عربية ملكية على ما كتب ، فما كان من العالم الديني المرموق المنصب ان عاد فكتب في جريدة يومية ايضا ما مضمونه : « ان الاسلام يقر نظام الحكم الملكي الوراثي كما يقر نظام الحكم الجمهوري، فالنظام الاول بدأ به معاوية بن ابي سفيان والنظام الآخر كان سائدا في

عصر الخلفاء الراشدين ، وهؤلاء جميعا أصحاب رسول الله ، ورسول الله صلوات الله عليه يقول : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

ولا حاجة بنا الى التعقيب ..

والاستاذ الكبير قد يذكر ان الاستاذ محمد خطاب قبل عام ٩٠٠ تقد مبشروع الى مجلس الشيوخ يومئذ ، خاص بتحديد الملكية ، ولقي معارضة عنيفة ، وصرح بعض علماء الدين ومنهم من وصل الى المراكـز الدينية المحسوسة ، صرح هذا البعض بمخالفة المشروع للاسلام ، ولو آن هذا البعض ظل ثابتا على موقفه لم يتغير والرأي المتخلف أو المغرض وجد يوم أن تخلى الحكم عن مبادىء الاسلام، وأصبح هذا الحكم لسيف الحجاج أو ذهب المعز . .

ومع ذلك فلا جدال في أن التفسير المتخلف للاسلام وجد في عصر الاضمحلال مجالا خصبا في عقليات بعض المتفقهين دون ان يؤثر في هذه العقليات سيف الحجاج أو ذهب المعز ، وما يزال الاسلام حتى يومنا هذا يعاني الأمرين من أمثال هذه العقليات ، والفرق بين العقليات السابقـة والعقليات المعاصرة ، هو فارق زمني ليس الا ، وان كان لا بد من فرق كيفي ، فهو ان العقليات السابقة كان لها تأثير أكبر على العامة التي كانت تتمتع بقسط وافر من الامية الدينية ..

المهم آن هذه العقليات قديمها وحديثها تسند الى قوة من حملة الامية الدينية ، فالامام المصلح الشيخ محمد عبده منذ اكثر من ثلاثة ارباع قرن، لم تكن آراؤه التقدمية تطاردها عصي العلماء المتزمتين وحدها ، بل كانت جماهير العامة تؤيد حملة الهراوات ، بينما لم يكن يستجيب لآراء الامام الا بضعة نفر ممن يتمتعون بوعي ديني ناضج ..

وفي يومنا هذا مثلا ، تزدهر دعوة جادة الى تنظيم النسل ، ينفـق

عليها بالألوف من الجنيهات ، ولا تدخر وسائل الاعلام جهدا في الدعاية لها ، لكن النتيجة لا تزال مؤسفة ، ولا سيما في الريف لأن مأذون القرية أفتى بأن تنظيم النسل مما يحرمه الاسلام وأيده في ذلك شيخ المسجد ..

ولسنا هنا بصدد مناقشة مسألة تنظيم النسل ، وانما بصدد القوة التي تسند التفسير المتخلف للاسلام ، سواء أكانت قوة رسمية أم قوة غير رسمية .

ويرى الاستاذ احمد بهاء الدين ان هناك تحديا ثانيا للاسلام ، وهو احترام القيم الحضارية وتقديرها . تلك القيم التي تسمح لنا بأن نتقدم بمجتمع انساني ..

اذا كان الاستاذ احمد بهاء يرى هذا الرأي ، فعليه ان يقيم الدليل أولا على أن الاسلام لا يحترم القيم الحضارية ويقدرها ، الاسلام كمنهج لا الاسلام كسلوك افراد ، وقد أقر سيادته فيما قال وفيما كتب بأن مبادىء الاسلام ذات قيم حضارية ، ولا مجال هنا لمناقشة مفهوم الحضارة لأنه جدد لها مفهوم يعتبر جامعا مانعا ، وهي التي تؤدي بنا الى ان نتقدم بالمجتمع الانساني . وان كنا في حاجة الى أن نحدد مفهوم التقدم وأسلوبه ... فالتقدم اما أن يكون فكريا ، أو اجتماعيا ، أو ماديا ، والاسلام لا يمكن أن يكون عائقا للتقدم الفكري ، فالثقافة الانسانية المجردة يرحب بها ويفتح لها صدره ، ولا يجادل انسان في أنه كان لمفكري الاسلام في عصوره الذهبية الفضل الاكبر في ازدهار الفلسفات الاسلامية في ديار المسلمين ، وما احتواه بعض هذه الفلسفات الاجنبية من آراء مخالفة للفكر الاسلامي ، تولى المفكرون الاسلاميون مناقشتها والرد عليها .. أما ما احتواه البعض الباقي من نظريات ذات اصالة انسانية هادفة ، فقد تقبلها الاسلام بصدر رحب ، ومنهجه في ذلك قول الرسول :

« الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ـ خذ الحكمة أنى وجدتها ، لا يضررك أي وعاء خرجت منه » ..

والاسلام أيضا لا يمكن ان يكون عائقا للتقدم الاجتماعي أو بمعنى أدق « الرقي الاجتماعي » في التفكير والسلوك ، واذا كان من مظاهر الرقي للمجتمعات الغربية مثلا : دقة النظام ، وتقديس الوقت ، والحرص على النظافة ، وعدم التفريط في المال العام ، والاهتمام بكل ألوان الرياضة .. بالاضافة الى الوعي الناضج المؤسس على الأفق الواسع ..

لكن لا يفرض على الاسلام ان يعتبر رقيا اجتماعيا تحول الشباب الى « خنافس » أو « هيبز » أو تحول الفتيات الى نماذج عارية في الشوارع والأندية للفتنة والاغراء .. !

والاسلام ثالثا لا يمكن ان يكون عائقا للتقدم المادي ، فهو حريص على أن يرتفع مستوى الفرد المادي حتى لا يصاب بالقلق في حياته ، فالله سخر الارض والسماء للانسان ، لينقب فيهما كيف شاء ، في باطن الارض أو في جوف السماء ، كل ما يحرص عليه الاسلام هو أن لا يكون الثراء مطغيا مفسدا للفرد أو الجماعة أو الدولة .. وألا يكون من مصدر مشبوه لا يتفق والقيم الرفيعة ..

فالاسلام مثلا يرحب بازدهار التجارة والصناعة ليكون ازدهارهما مصدر رخاء للدولة ، لكنه لا يرحب بأن تنشيء الدولة اندية للعراة ، أو صالات للميسر بشتى ألوانه من أجل تشجيع السياحة لزيادة قيمة الدخل ..

* *

● بقي تعقيب سريع على ندوة الاهرام ..

فمما لا ريب فيه ان جريدة الاهرام حين تفسح صدرها لمثل هـذه الندوات التي تقوم على الحوار الحر المفتوح ، انما تتجه اتجاها حسنا لا غبار عليه ، ويا حبذا لو أن جريدة الاهرام قد عقدت في كل شهر ندوة لمناقشة موضوع من الموضوعات التي تهم الرأي العام ، وتدعو اليهـا خلاصة رجال الفكر من المتخصصين في الموضوع الذي تطرحه للمناقشة ••

لكن الملاحظ على هذه الندوة التي نحن بصددها ، أن جريدةالاهرام تنكبت سبيل العدالة حين حشدت لها كتابها ومحرريها ـ في موضـوع مرتبط بالاسلام ـ ومعظمهم من غير المثقفين ثقافة اسلامية ، بـل ولا اهتمام لهم بالدراسات الاسلامية ، اذا نحن استثنينا الدكتـورة بنـت الشاطىء ؛ ولم يدع اليها من المثقفين الاسلاميين أو من لهم اهتمامـات بالفكر الاسلامي من خارج الاهرام سوى الدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف • وكان العدل يقتضي شيئا من الموازنة ، اذ كان الممثلونللطرف الاسلامي ثلاثة في مقابل بضعة عشر شخصا باعتبار ان الرئيس القذافي ممثل للجانب الاسلامي ••

ثانيا : ان ما نشر على صفحات الاهرام كان ملخصا لما دار فـي الندوة ، واذا كانت صفحات الاهرام لم تتسع لنشر ما دار فيها كاملا ، فقد كان في استطاعة الاهرام ان تصـدر كتابا ، يستـوعب النـدوة بأكملها ••

ثالثا : كثير من المفكرين الاسلاميين كانوا على استعداد لأن يبعثوا للجريدة بتعقيباتهم على ما دار في الندوة من حوار ، وما دفعهم الىالاحجام عن الكتابة الا لاعتقادهم ان الجريدة لن تكون مستعدة للنشر •• ولا يمكن ان يكون السبب راجعا الى ضيق المكـان ، وحسب ، بـل ان الامبراطورية التي تتمتع بها الجريدة تجعلها تتعمد الاستعلاء على مـن

يحاولون الخروج على آراء محرريها أو اصدقائها ، فواحد من محرريهــا كالدكتور لويس عوض في كثير من كتاباتــه ينهش في تراثنــا الفكري والتاريخي ، وليس من المعقول ان لا يرد عليه احد ، وانما من المعقــول بالتأكيد أن لا ينشر الرد على صفحات الاهرام ، وان تنشر ردود في بعض الصحافة الاسلامية الذائعة في بلاد الله الأخرى ..

صحيح ان التكافؤ غير متوافر حين تنشر آراء في جريدة يومية ذائعة الانتشار يوزع منها عشرات الالوف ، وأن يرد عليها في مجلات أو كتب لا يوزع منها الا بضعة الاف ، لكن هذا هو كل ما يمكن ، وليس فــي الامكان أبدع مما كان ، كما يقولون .. ! !

* *

تراثنا في مواجهة التحدي

لم يتعرض تراث فكري لمواجهة التحديات ، كما تعرض ويتعرض له التراث الفكري الاسلامي والعربي من التحديات عن قصد أو غير قصد ، ومن مهتم بالدراسات الاسلامية من المسلمين ، ومن غير المسلمين الذين يحلو لهم التطاول ، طالما يملكون أقلاما ، ويجدون ترحيبا في صحف ، لا يهمها في قليل أو كثير أن يتطاول على الاسلام أو على تراثه الفكري ، سياسيا كان أم اجتماعيا أم اخلاقيا أم عقائديا • •وهؤلاء وبعض اولئك يرفضون ان يعترفوا للتراث الاسلامي الفكري كله بأدنى علاقة بالتراث الحضاري الانساني ، معنى ذلك ان التراث الاسلامي في نظرهم ليس الا ترفا ذهنيا ، شغل به واضعوه أوقاتا شاسعة من الفراغ ، لم يكن لهم بد من أن يشغلوها ••

ونحن نقرر هنا :

● أولا : لسنا بصدد الدفاع عن التراث المنسوب الى الاسلام ككل بحكم المفهوم التاريخي للفظ تراث •• لأننا نكون عندئذ بعيدين عن الانصاف ••

● ثانيا : يجب أن نعترف بأن التراث الاسلامي الفكري ضم الغث

والسمين ، والجيد والرديء ، لذلك لم يكن من الانصاف الدفاع عنه ككل ، وايضا لن يكون من الانصاف أن نحمل الاسلام عبء الغث والرديء منه ، وتتجاهل السمين والجيد منه ..

● ثالثا : ان المتطاولين على تراث الاسلام الفكري والحضاري والانساني ، يتجاهلون عن عمد ، أن بعضا من التراث الاسلامي لا يزال يدرس في جامعات اوروبا وامريكا ، وأن بعضا آخر منه لا تزال المكتبات الكبرى العالمية تحتفظ به ، وان بعضا ثالثا منه ، نقل الى اكثر من لغة اجنبية منذ قرون ولا يزال الى يومنا هذا ، وهؤلاء المتطاولون يتعمدون تجاهل كل هذه ليجردوا التراث الاسلامي من حضارته وانسانيته ، ليبدو أمام المثقفين وأنصاف المثقفين كما لو كان مجرد جهد ضائع ، وأجدر به أن يودع فوق أرفف الاهمال أو في زوايا النسيان ...

● رابعا : لا يليق بنا ان نضيع الوقت لنناقش الاقلام الحمر أو الصفر فيما تتطاول على التراث الاسلامي ، فهؤلاء يعملون لحساب مخططات مدروسة ، لا تهدف الى الاقلال من شأنه وحسب ، بل الى ازدرائه حتى يقبع في مكان الهوان ..

● خامسا : يجب ان نعترف بأن التراث المنسوب الى الاسلام يمثل اليوم مشكلة معتقدة ، ليس من السهل حلها ، أو من السهل حلها ، ولكن من العسير تنفيذ هذا الحل ، اما لاسباب مادية ، واما لاسباب غير مادية وهي كثيرة ..

هناك حل واحد ، هو الحل الأمثل ، وحتى هذا الحل هو ضرب من السراب ، فنحن لا نود ان يوكل الى هيئة دينية في أي بلد من بلاد المسلمين أمر هذا التراث لتصدر احكاما عليه بالرفض أو بالقبول ، لأن ذلك يقتضي

توافر علماء يتوافر فيهم الاخلاص والتجرد من المذهبية وأهوائها ، ولا أظن ان ذلك يسير •• اذن فالحل هو تقدم الوعي الديني لدى القـراء المسلمين ، وهذا الوعي هو الذي سيملك الحكم على بعض التراث بالموت وبعضه الآخر بالحياة ، لكن هذا الوعي الذي نريده يجب ان يؤسس على ثقافية اسلامية خالصة لوجه الاسلام ، ويبقى أن أمامنا مئات السنين أو عشراتها ــ اذا تواضعنا ــ لكي يكون لدينا مثل هذا الوعي •

● سادسا : لو ان الذين يشهرون اقلامهم في وجه التراث الاسلامـي اتجهوا الى المطالبة بتنقية هذا التراث لما حفظنا لهم الا كل تقدير ، لكنهم يرون في هذا التراث عبئا ثقيلا على كاهل التاريخ ، لذلك يـرون الغاءه نهائيا من التاريخ •• وهؤلاء جديرون بالمناقشة أو على الآقل بالنظر ••

ان بين يدي كتابا جديدا للعالم الاديب الدكتور زكي نجيب محمود ، عنوانه « تجديد الفكر العربي » قامت بنشره في بيروت « دار الشروق » والدكتور العالم زكي نجيب محمود غني عن التعريف ، وغني عن أن نقول عنه : انه من العلماء القلائل الذي يتسم علمهم بالعمق وتتسم آراؤهـم بالاتزان ، قد يرى البعض ان هذا الكتاب الجديد للدكتور زكي نجيب محمود من شأنه ان يحدث اهتزازا فيما عرف عنه من عمق علمه واتزان رأيه ، لكن الانصاف يفرض علينا ان نعترف بأن الكتاب تضمـن آراء لها قيمتها ولها تقديرها ••

ان المجال هنا لا يتسع لمناقشة كتاب في زهاء أربعمائة صفحة ، حتى ولو اتسع المجال لمناقشته ، فان هذه المناقشة تحتاج الى اجهاد ذهنـي ، لذلك اكتفي بتسليط بعض الاضواء على الكتاب ، وهو جهد المقـل من أمثالي ••

المشكلة الحقيقية لدى أستاذنا تتركز في الاجابة عن هذا السؤال :

« كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الـذي بغيره تفلت منـا عروبتنـا أو نفلت منها ؟ » .

وقد أعاد السؤال في صيغة أخرى :

« كيف السبيل الى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والاصيل في نظرة واحدة ؟

واذا كان مثل هذا السؤال في صيغتيه المترادفتين تقريبا انما يمثـل المشكلة الاساسية التي يقوم عليها بناء هذا الكتاب ، فان المؤلف يثيـر في بداية الفصل الاول من كتابه تساؤلا جديدا ، فهو يقول :

« قد يبدو للوهلة الاولى ان بين العربية والمعاصرة تناقضا أو مـا يشبه التناقض ، ولذلك يجيء السؤال الذي يلتمس طريقا يجمع الطرفين في مركب واحد ،وكأنما هو سؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نار ، فهل بين الطرفين مثل هذا التعارض حقا ؟ أو أن ثمة طريقا يجمع بينهما ؟ ذلك هو السؤال ..

هذا هو السؤال الذي حير أستاذنا الدكتور ، ولم يجد مفتاحـا للموقف كله الا في عبارة قرأها نقـلا عن « هربرت ريد » مؤداها : أن تأخذ من تراب الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقا عمليا ، فيضاف الى الطرائق الجديدة المستحدثة . فكل طريقة للعمل اصطنعها الاقدمون ، وجاءت طريقة جديدة أنجح منها ، كان لا بد من اطراح الطريقة القديمـة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعنى به الا المؤرخون ..

والمدار عند استاذنا هو العمل والتطبيق ، أي ما يعاش به ، هو ما يستطاع سلكه في جسم الحياة كما يحياها الناس ، وتصبـح الاجابـة السديدة عن السؤال المطروح : البحث عن طرائق السلوك التي يمكـن

نقلها عن الاسلاف العرب بحيث لا تتعارض مع طرائق السلوك التي استلزمها العلم المعاصر ، والمشكلات المعاصرة ..

الى هنا ويمكن ان نقول : ان مظهر هذه الآراء يبدو كما لو كان معقولا ، معقولا والى حد ما ، فالتراث الذي لا ينفعنا في حياتنا العملية أحرى به أن يودع أرفف النسيان ، ويقصد بحياتنا العملية ... حياتنا المادية ، أما حياتنا الذاتية والروحية فيبدو من سياق حديثه أن التراث الروحي نطرحه جانبا ، ما دام لا يؤدي خدمات لنا في المصنع والمعمل والطب والاقتصاد والفلك .. وما الى ذلك . . ومعنى هذا ان شطر الفقه الاسلامي المتصل بالعبادات ، وعلم التوحيد ، والألوهيات وما الى ذلك يجب أن يصبح تراثا ملغيا من حياتنا المعاصرة ..

ان الدكتور يرى أنه لا مانع من أن يكون المصدر الاول الذي يستقي منه الانسان مبادىء المعرفة والعلم ، وحيا من السماء أو مشاهدات شاهدناها بحواسنا للاشياء من حولنا ، أو لمعات حدسية اهتدت بها البصيرة الى حقيقة العالم أو حقيقة الانسان ، لكن للانسان أن يسلط على هذه المبادىء قوته الاستدلالية ــ وذلك هو « العقل » ليستخرج كل ما يجد في وسعه أن يستخرجه من احكام وافكار . ومهما يكن ذلك المصدر الأول ..

معنى هذا اننا نخضع الوحي السماوي للعقل كقوة استدلالية ، ما دام ليس هناك فرق بينه وبين غيره من مصادر العلم والمعرفة ، ومثل هذا القول يجرنا الى قضية اخرى منفصلة ومن الخطورة بمكان ، ولست ادري ما الذي زج بهذه القضية القديمة قدم الانسان في هذه الدراسة ، الا اذا كان الدكتور يهدف الى جعل العقل ــ غير المنزه عن الخطأ ــ قيما على تراثنا في مجال معتقداتنا ..

وليس عجيبا ان يشير الدكتور الى أن في تراثنا العربي عوامل القوة ، وانما العجيب أن يؤجل رصد هذه العوامل حتى يسرد لنا العوامل الاخرى التي تعمل فينا — على حد تعبيره — كأبشع ما يستطيع فعله كل ما في الدنيا من اغلال واصفاد ، وانه لمن العبث ان يرجو العرب المعاصرون لأنفسهم نهوضا أو ما يشبه النهوض ، قبل ان يفكوا عن عقولهم تلك القيود .. انه لا بناء الا بعد ان نزيل الانقاض ، ونمهد الارض ونحفر الاساس القوي المكين ..

ويبدو أن في ذهن الدكتور استاذ الفلسفة اكثر من عامل معوق ، ولكنه رحمة بالتراث العربي ، اكتفى بسرد عوامل ثلاثة :

● الأول : أن يكون صاحب السلطان السياسي هو في الوقت نفسه ، وبسبب سلطانه السياسي ، صاحب « الرأي » لا أن يكون صاحب «رأي» — بغير أداة تعريف — بحيث لا يمنع رأيه هذا ان يكون لغيره من الناس آراؤهم ...

ونحن لا يسعنا الا تأييد الدكتور في هذا القول تأييدا مطلقا ، بلا حدود ولا تحفظات ..

● الثالث : الايمان بقدرة الانسان — لا كل انسان بل المقربون منهم — على تعطيل قوانين الطبيعة عن العمل كلما شاءوا ، على غرار ما يستطيعه القادرون النافذون — على صعيد الدولة — أن يعطلوا قوانين الدولة في أي وقت أرادت لهم اجواؤهم أن يعطلوها ..

وموقفنا من هذا القول ايضا ، هو موقفنا ذاته من القول السابق ، مع قليل من التحفظ ، فليس من الانصاف ان نحمل تراثنا الفكري ما كتب عن الخوارق والعادات المعطلة لسنن الطبيعة ، وان ايمان القلة الساذجة بها لا يقوم دليلا على انها من صميم العقيدة ، وأما ما أجراه الله على ايدي

الانبياء والرسل من امور خارقة ، فليس فيها أولا ما يشير على انها مـن قدرة الانسان ، ولم تكن ثانيا معطلة لسنن الكون •••

● الثاني : وقد اخرته لأن لنا فيه مقالا :

ان يكون للسلف كل هذا الضغط الفكري علينا ، فنميل الى الدوران فيما قالوه وما أعـادوه ألف مرة ومرة ، لا أقول : انهم أعـادوه بصور مختلفة ، بل أعادوه بصورة واحدة تتكرر في مؤلفات كثيرة ، فكلما مات مؤلف لبس ثوبه مؤلف آخر ، وأطلـق على مؤلفه اسما جديداً ، فظـن ان الطعام الواحد يصبح اطعمة كثيرة اذا تعددت له الاسماء ••

ان الذين يحصلون على أدنى قدر من الثقافة الاسلامية ، لا يخامرهم ريب في أن الدكتور يبالغ ـ بل ويسرف في المبالغة ـ ازاء هذا الرأي الذي يتعصب له ، وفي ان سيادته ـ طوال بضع السنين التي ازدرد فيها الكثير من كتب التراث ، كما يقول ـ كان حريصا على مجرد التقاط كتاب من هنا وسفر من هنـاك ، باحثا وحسب ـ على ما يقيم عليه الدليـل على تفاهة تراثنا الفكري •

لسنا بصدد عرض احصائيات تنقض ما ارتآه الدكتور ، فيكفي ان تعرض بعض النماذج لتكون كفيلة بعملية النقض من الاساس ، لا من مجرد السطح ، ولدينا للقاضي ابن عبد الجبار المعتزلي ، كتابه المشهور « المغني » ويقع في عشرين جزءا ، ومؤلفه من علماء القرن الثالث الهجري، فليدلنا الدكتور على صورة له أو اثنتين على مدى أحد عشر قرنا مضت منذ تأليفه ؟

وفي مجال تفسير القرآن مثلا ، هل يعتبـر ان تفاسير : القرطبـي والزمخشري والألوسي وأبي حيان التوحيدي والفخر الرازي تفسيـرا واحدا له عدة أسماء ؟

وفي مجال الفقه الاسلامي •• هل يرى الدكتور ان الام للشافعي ، والمدونة لمالك ، والمحلى لابن حزم ، والمغني لابن قدامة ، والمبسوط للسرخسي ، أسماء عديدة لطعام واحد ؟

من الانصاف ان نعترف بأن بعضا يسيرا مما رآه استاذنا موجود في تراثنا ، أعان عليه العجز او الافلاس الفكري ، لكن ليس من الانصاف في شيء أن يجني هذا النذر اليسير على الكثير الوافر ليجرده من كل قيمة ، وليس من الانصاف في شيء أيضا ، ان يذهب وقت يسير استهلكه العاجزون في النقل والتقليد ، بسنوات طويلة أفناه كل عالم مجتهد مجيد في تأليف كتاب جيد أو أكثر ••

*　　*

كم كنت أود ان يتسع المقام هنا لمناقشة كل ما جاء في الكتاب الذي بين أيدينا « تجديد الفكر العربي » من آراء هي جديرة بالمناقشة ، وأن يتسع الوقت للاطلاع الواسع الذي يمكن من المناقشة ، وأؤكد أولا ، أن هذا الكتاب ثروة فكرية وثورة ايضا ، ومن الخير لكل مثقف أو طالب ثقافة اسلامية أو عامة ان يستوعبه لا ان يكتفي بمجرد قراءته ، لكن مع ذلك فينبغي ألا ينسينا ذلك أن من بعض آراء الكتاب ما يحتم علينا الوقوف عنده ، وأول ما ينبغي الوقوف عنده ، أن استاذنا الدكتور زكي نجيب محمود كثيرا ما يصر على أن يحمل المنهج ـ ولو كان اصيلا وعظيما ـ مسؤولية التطبيق ولو كان سيئا أو معدوما •• بل كثيرا ما يصر أيضا على أن تراثنا خلو من هذا النهج السليم •• فقد عرض الدكتور لمشكلة الحرية السياسية ، بعد ان مهد لها بما يضفي على انظمة الحكم الديموقراطي المغربي من عظمة وجلال ، فأشار الى ان مشكلة « الحرية السياسية » على رأس مشكلاتنا المعاصرة ، ولن يجد « هو » في تراثنا حلولا لها ، لا ، بل انها

انما نشأت أساسا بسبب الفجوة الفسيحة العميقة التي تباعد بين أنظمة الحكم في العصر الحديث ، والصورة التي ورثناها عن الحاكسين وما يحيط بهم من جاه وسلطان وهيل وهيلمان ..

ثم يقول :

« واصعب من هذه الحرية السياسية منالا حرية اخرى يقتضيها عصرنا ، ولم تكن معروفة ولا مألوفة — في صورتها الحديثة — عند اسلافنا ، وأعني الحرية الاجتماعية التي تكفل الحياة المادية للمواطنين ، حتى لا يجدوا رقابهم في أيدي من يوفرون لهم سبل العمل والعيش ... ولم نكن نجد حلا لهذه المشكلة الجديدة اذا نحن ارتددنا الى التراث.. لأننا اذا وجدنا في هذا التراث مبادىء نظرية تكفل لنا الحرية الاجتماعية المنشودة ، وجدناها من جهة أبعد ما تكون عن التطبيق الشامل ، بحيث تهبط الينا ، وكأنها العرف الذي ليس من سيادته مناص .. ووجدناها من جهة اخرى أقرب الى التوصية بالصدقات ، يتصدق بها الغني على الفقير ، فان فعل كان له الجزاء عند ربه ، وان لم يفعل كان له الجزاء كذلك عند ربه ، وفي كلتا الحالين لا شأن للدولة بالامر ..!

ان الانسان ليحار امام هذا الجزء الاخير من كلام الدكتور ، الخاص بالعدالة الاجتماعية ، وليس مصدر الحيرة ، هو أن كلاما كهذا ، كان يجب ان ينزه عنه قلم استاذ كبير له تقديره في نفوس المثقفين ، وانما مصدر الحيرة ، بأي الاتهامين يتهمه : أبالقصور ازاء المنهج الاسلامي السياسي — وهو العالم الذي يعد من خيرة علمائنا القلائل — أم بالمغالطة التي قد يكون الدافع اليها عقدته من تراثنا وهيامه بتراث الغرب — وهو من عرف عنه اعتزازه بالنزاهة والانصاف فيما يكتب وفيما يقول ؟

فمن أين للدكتور ان مشكلة الحرية السياسية ليس لها حلول في تراثنا ؟

ان الدكتور احيانا يترك القارىء يتوهم بأن لفظ التراث هنا عام ، أي التراث العربي في شؤون الدين والسياسة والحكم والفلسفة والاجتماع مثلا ، ونحن هنا انما ندافع عن التراث الاسلامي ، أي نتاج الفكر الاسلامي في كل شؤون الحياة ، لان سياق الحديث ـ عندما يتحدث عن التراث ـ والشواهد العديدة التي يستشهد بها ، مرتبطان ارتباطا وثيقا بالتراث الاسلامي .

والحرية أولا لم تكن مشكلة في عصر الخلافة الراشدة ، اذ كان في مقدور أدنى شخص أن يصيح في وجه الخليفة : أنت أخطأت ، ولعل الدكتور لم يقرأ ان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب : اشترى أعراض المسلمين من الحطيئة الشاعر المعروف بالهجاء المقذع ، حتى يمتنع عن الهجاء ...

واعجب من ذلك ان يقول الدكتور عن مشكلة الحرية الاجتماعية : ولم نكن لنجد حلا لهذه المشكلة الجديدة اذا نحن ارتددنا الى التراث.. ونعل الدكتور لم يقرأ شيئا عن بيت المال في الدولة المسلمة ، اذ هو المتكفل بأرزاق الناس اذا عجزوا عن العمل ، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم ، فلا امتيازات حتى للحاكم نفسه ...

اما ما هو مثير للغاية فاعتبار الدكتور ان تراثنا خال من حل للمشكلة الاجتماعية ، ولنفرض جدلا ان سلمنا بهذا الرأي فمن المحال ان نأخذ برأيه فيما ارتآه سيادته بعد ذلك من أنه حتى اذا وجدنا في التراث مبادىء نظرية تكفل لنا الحرية الاجتماعية المنشودة ، وجدناها اقرب الى التوصية بالصدقات ... !

أكل ما يعرفه الدكتور عن العدل الاجتماعي في الاسلام ، مسألة التوصية بالصدقات ؟ وهل النص القرآني الذي يقول : والذين في أموالهم

حق معلوم للسائل والمحروم ، أو الذي يقول : وآتوا حقه يوم حصاده •• كل ما يشير اليه هذا او ذاك انما هو مجرد التوصية بالصدقات ؟

والخليفة أبو بكر أول خليفة بعد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أصر على قتال مانعي الزكاة ، وانما أصر على ذلك لأن الزكاة ليست حقا مفروضا وانما هي صدقة مندوبة لا أكثر ولا أقل ؟ أهذا منطق ؟

أشك أن يكون الدكتور قد قرأ شيئا عن فقه الاسلام في زكاة الاموال ، وهي الركيزة الاولى في تمويل العدل الاجتماعي ، أو قرأ شيئا عن بيت المال في الاسلام ، الذي يعتبر مسؤولا عن تحقيق العدل الاجتماعي ••

انه لكثير على عالم كبير كالدكتور زكي نجيب محمود ـ الذي حبس نفسه بضع سنوات على التراث الاسلامي يلتهمه التهاما أو يزدرده ازدرادا ـ أن يلتبس عليه الامر فيخلط بين الزكاة التي هي من حق مفروض في الاموال ، وبين الصدقات المندوبة التي دعا اليها الاسلام لتنمية أحاسيس الموسرين ، ومشاعر المقتدرين ••

ان المرأة المسلمة البدوية التي لم تدخل كتابا فضلا عن مدرسة أو جامعة كانت تفقه ماهية بيت المال في مسؤوليته عن تحقيق العدل الاجتماعي ، والقصة مشهورة قرأناها ونحن في مراحل التعليم الاولى ، فقد كان عمر يعس بالليل ، فسمع صبية صغارا يتضاغون ، والأم جالسة توقد النار على اناء ليس فيه الا الحجارة والماء ، لتوهم اطفالها بأنها انما تعد لهم الطعام حتى يغلب عليهم النوم ، فلما سألها ، أجابته على الفور ثم قالت له : والله بيننا وبين عمر •• ! قال لها : وماذا يدري عمر بكم يا أمة الله ؟ فردت عليه : كيف يتولى أمور الناس ثم يغفل عنهم •• وعندما أسرع

يحمل اليها الدقيق والسمن ، ويجلس بنفسه يوقد النار على الطعام حتى استوى ثم اكل الاطفال ، ودعته المرأة البدوية ــ وهي تجهله ــ بعبارة أصبحت منقوشة في صفحات التاريخ ، قالت له : « والله انك لأحق بالخلافة من عمر •• !! » •

وانه لمن نافلة القول ان نقول : ان منهج الاسلام تضمن حلولا حاسمة لا لمشكلة الحرية في أوسع معانيها وحسب ، بل للمشكلة السياسية برمتها ، وأعني بالمشكلة السياسية نظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بالاصطلاح الاسلامي بين الراعي والرعية ، وهي علاقة لا تقوم في منهج الاسلام السياسي على سلطة او سيطرة أو اسلوب الفرد المطلق ، وانما على الحق والحرية والمساواة ، وقد يلمس القارىء المبتدىء لتاريخ الاسلام تطبيقا شاملا لهذا المنهج السليم في عصور الخلافة الراشدة وعلى فترات متقطعة من تاريخ الاسلام السياسي ، لقد لقي عمر بن الخطاب قاتل أخيه زيد بعد أن أسلم ، فقال له : أغرب عني فوالله اني لا أحبك••! فقال الرجل في شجاعة : أويمنعني ذلك حقا يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر بصوت جهوري : لا ، فقال الرجل في هدوء : اذن فلا يأسو على الحب الا النساء •• !

وعمر بن الخطاب نفسه سألوه وهو يجود بنفسه بعد ان طعنه أبو لؤلؤة المجوسي كهدف لمؤامرة دبرها الهرمزان الفارسي الذي تظاهر بالاسلام ، سألوه في لحظات الاخيرة التي كان يجب ان تشغله عن كل شيء :

ماذا نفعل بقاتلك ؟

وأجاب : « ان عشت فالامر لي ، وان مت فضربة بضربة ، وان عفوتم فهو أقرب الى التقوى » •

وقتل أبو لؤلؤة قصاصا ، لكن أحد أبناء عمر عز عليه أن يفلت من القصاص الهرمزان الرأس المدبر للجريمة النكراء ، فاقتص منه بنفسه ؛ فلما ولي عثمان بن عفان أمر المسلمين بعد عمر ، كان أول ما طولب به من عامة المسلمين وخاصتهم هو القصاص من ابن عمر لدماء الهرمذان ، وأعلن الخليفة الجديد استجابته ، وظل دماء ابن عمر في نظر الحكم الاسلامي مباحا ...

سقت مثل هذه القصة وهي ثابتة ثبوت الارض ، ومثلها كثير في تاريخ الاسلام ، لنؤكد ان منهج الاسلام في شتى شؤون الحياة منهج لا مثيل له ، وقد أوشك العالم أن يقف على مداخل القرن الواحد والعشرين ، ولا يزال منهج الاسلام يتفوق على شتى المناهج الوضعية في كل بلاد الله ؛ هناك فرق يجب ان نعترف به ، أن المنهج وجد تطبيقا في البلاد التي ازدهرت في مجال الحرية والديموقراطية ، وذلك ليس راجعا الى مجرد عظمة الحاكم وسمو نفسه ، بل ايضا الى وعي الشعوب واصرارها .. ولم يجد منهج الاسلام شعوبا حية واعية ، في نفس الوقت الذي تحول الحكم الى ملك عضوض ، ووجد حاكما أوتقراطيا لم يتفنن في العمل على رفاهية الشعب ، لأنه استهلك كل طاقته الفنية في اذلال الشعب ..

كان جمال الدين الافغاني يقيم الدنيا ويقعدها بمفرده ، ولا يملك في قلبه سوى ايمانه ، ولا يملك على جسده سوى جلبابه وقلنسوته وخفه ، ولا يملك في يديه سوى سبحته وعصاه ..

ان جمال الدين الافغاني الذي كان لا يملك من حطام الدنيا شيئا كان يتهدد الملوك الجالسين على عروش من صنع الهوس والجبروت والطغيان ، وعندما وقع خلاف بينه وبين شاه ايران يومئذ ، وسط الشاه سلطان تركيا ليرجو الافغاني في تخفيف الحملة عليه ، وكان أن قبل وساطة السلطان قائلا له : « من أجلك عفوت عنه » !

بل ان العز بن عبد السلام سلطان العلماء ، استطاع بمفرده أيضا أن يقيم الدنيا ويقعدها ، وأن يتهدد الملوك وهو لا يملك الا ايمانه ، بينما كان الملوك يملكون القوة والمال معا ، ويوم وفاته في القاهرة ، قصد المعز لدين الله الفاطمي وهو الخليفة يومئذ ـ قصد بيته ، وأمام الباب دق بعصاه الارض وهو يقول : « الآن استقر ملكي » !

لعل استاذنا الدكتور لم يقرأ شيئا عن موقف هيئة كبار العلماء ابان احتلال الانجليز لمصر اثر ثورة عرابي ، فقد اعتبر العلماء الكبار الخديوي توفيق خائنا خارجا على الاسلام ، وطالبوا بعزله في عريضة وقعوا عليها ورفعوها الى القصر ، وحين استدعى احد العلماء من قريته لاستجوابه في شأن العريضة ، قال امام المحكمة :

« انه لم يكن لي شرف التوقيع على هذه العريضة ، ومستعد الان للتوقيع عليها لتبدأ المحاكمة » ..

اذن ، فالدكتور حين يلوح في اكثر من موضع بأن تراث الاسلام ليس فيه حلول للمشكلات السياسية أو الاجتماعية ، انما يقيم حجته على غير اساس ، وحين يعترف احيانا وبغير حماس ، ان منهج الاسلام يتضمن بعض المبادىء التي لم تجد تطبيقا شاملا لديكتاتورية الحاكم ولضعف الشعب ، فليس من الانصاف ان نحمل الاسلام مسؤولية التطبيق ، والا كان منطقنا كمنطق الذئب في قصته المشهورة مع الحمل الوديع .. !

وبعد ..

فليس الهدف من تناول هذا الكتاب ان نتعقب كل ما فيه من آراء تفرض علينا مناقشتها ، وكان من اليسير علينا ان نكتفي بمجرد الاكتفاء بقراءته ، ولكن رأيت ضرورة الاشارة اليه ، لسببين رئيسيين :

الاول : ان للمؤلف العالم الاديب منزلة في نفوسنا ، وأن آراءه ربما

كان سيادته أرادها محاولات متواضعة للاصلاح ، والا فهنـاك عشرات الكتب ومئات الآراء تهذي محاولة ازدراء تراثنا الاسلامي ، ومع ذلـك فلا اهتمام بها ولا اكتراث لها ، لان اصحابها لم ينقصهم الحقد والهوس •

الثاني : ان بعض الاقلام المشبوهة النهازة للفرص ، وجدت في الكتاب فرصتها لتحمل بين السطور على تراث الاسـلام ، في حقـد مصبـوغ بالتشفي ••

ففي العدد الثامن ــ أغسطس ٩٧٢ ــ طالعتنا مجلة الطليعة التـي تصدرها دار الاهرام بالقاهرة بمقال عن هذا الكتاب بقلم الاستاذ غالـي شكري • والاستاذ غالي شكري كاتب ناعم الملمس يتكلف الشفافية على الرغم من انه يعتبر نفسه كاتبا تقدميا •• المهم انه كاتب من السهل عليه ان يقنعك بدماثة خلقه ورقة اسلوبه ، ولكن من الصعب عليك ان تقتنع به كاتبا ليس ملتزما •• فالطلاء الذي طلا به قلمه من التقدمية ــ التي أصبح لها سوق رائجة اليوم ولا سيما بعد نكسة ١٩٦٧ ــ لا يلبث ان يتلاشى ليشف عما تحته من ارتباط وثيق بعقيدته التي آمن بها ونشأ عليها ••

لقد رحب الاستاذ غالي شكري ترحيبا حارا بالكتاب ، لأن المؤلف أعلن في صفحاته ارتداده عن آرائه القديمة التي تضمنت تقديره للتراث العربي ، ومع ذلك فالكاتب الناقد لم يكتف من المؤلف بهذا الارتـداد ما دام لم يرفض التراث جملة وتفصيلا : فزكي نجيب محمود ــ كما يقول الناقد ــ برغم عباراته الجادة القاطعة ، لا يرفض التراث جملة وتفصيلا ، وانما هو يركز ما عاناه من الداعين الى •• احياء التراث وكأنه ميت يحتاج الى بعث ، بينما المشكلة الحقيقية تكاد تكون على النقيض من ذلك ، لأن التراث كمجموعة من القيم والتقاليد والعادات والمبادىء ، ما زال ساريا في دمانا يعرقل نمونا الحضاري ويعوق نهضتنا الانسانية ، فالذي يحتاج

حقا الى احياء هو بعض المواقف النادرة في التراث ، نأخذ منها القيمة والشكل وزاوية النظر ـ أي المنهج ـ دون المضمون الذي لا علاقة له بعصرنا وانسانيتنا » •• !

واذا كان الناقد قد تحمس للمؤلف في حملته على التراث العربي ، وشد على يديه ، وطالبه المزيد من الهدم لا من مجرد النقد ، فانه بنفس الحماس ، بل أشد ، عارض النقد الذي وجهه المؤلف للماركسية حتى وضعها في قفص الاتهام ، لانها تغفل ارادة الانسان وترشح قدرا جديدا على مصادر البشر هو « التطور التاريخي » ولأن الماركسية ثانية سجلت اخفاق نبوءة ماركس في الدول المتقدمة •• وهنا يحاول الناقد ان يضع المؤلف في قفص الاتهام مكان الماركسية التي وضعها المؤلف في قفص الاتهام ، فهو يرى ـ أي الناقد ـ أن المؤلف انما يوجه للماركسية الاتهام التقليدي في التفكير الغربي ، وكان الواجب عليه ان يتحقق من خطأ هذا الاتهام بنفسه من المصادر الاصلية الماركسية ، لا فيما جاء عنها في الادبيات الغربية ••

ويرى الناقد « المبجل » ان من اخطر ما يؤخذ على المؤلف : الدعوة الى فلسفة عربية ، لأنها تتجاهل ما هو مشترك وعام بين جميع البشر ، ولا يكتفي الناقد من المؤلف ما يدعو اليه من حريات سياسية واجتماعية ، لا لأنها غامضة الملامح ناقصة التكوين •• كما يدعي الناقد ، بل لأن تجارب البلدان الاشتراكية التي كانت مثلا على التخلف في يوم من الايام ، ينبغي ان تكون دليلنا الى التقدم والعصرية والديموقراطية ••

والعجيب ان الناقد ـ بعد ان استعرض افكار المؤلف السياسية ـ أشار الى أنه ـ أي الناقد ـ يبدي رأيه في هذه الافكار على الصعيد الفكري المعاصر ، بعيدا عن الأثر السياسي والاجتماعي المباشر •• ومثل هذا التلويح بالنزاهة انما يؤكد احساس الناقد ، بأن احدا لن يصدقه اذا هو تكلف اللاالتزام فيما يكتب وفيما يرى ••

الاخلاق في مواجهة التحدي

كان من الممكن أن أتجاوز الحديث عن التحديات التي تواجهها الاخلاق في أيامنا هذه بصورة شرسة ؛ لولا أن هذه التحديات تحاول ـ في سفور او في مواربة ـ الدعوة الى تحطيم القيود التي وضعها الاسلام ـ على حد ـ زعم هذه التحديات ـ على الاخلاق ، وينال المرأة او ما أسموه « بقضية المرأة » نصيب موفور من هذيان التحديات •• بل ان عالما أديبا كبيرا كالدكتور زكي نجيب محمود في مؤلفه الذي سبق الكلام عنه في الصفحات السابقة « تجديد الفكر العربي » يعتبر أن حرية المرأة جزء من مشكلة الحرية الام ، ومن أجل ذلك يدعو الى أنه يجب أن يتغير مفهوم « القوامة على المرأة » بعد أن احتلت المرأة سائر المراكز المرموقة ، فهل يعقل ـ كما يقول الدكتور ـ أن يقال لها ـ وهذا هو كيانها الجديد ـ ما كان يقال لسالفتها من قوامة الرجال عليها بالمعنى القديم ؟ وهل من حق الرجل في أمثال العاملات العالمات المثقفات القائدات منهن : مثنى وثلاث ورباع ؟

ثم يقول : هذه اذن احدى المشكلات الفرعية التي تفرعت من المشكلة الام : مشكلة الحرية بمعناها المطلق العام في دنيا السياسة والاجتماع ، وان امرأة عصرنا لتجد نفسها في أزمة حادة ، تلمسها في كل من تعرفهن من ذوات القربى ومن الزميلات ، في مجال العلم والعمل ،

لانها تجد نفسها مشدودة بين قطبين متناقضين ، فمن هنا تقاليد تضعهـا موضعا لم يعد يصلح لها ، ومن هناك مشاركة في نشاط العصر وثقافتهـا تجذبها جذبا الى أن تقف مع الرجل الزوج والاخ والزميل في صف واحد، فأين عساها أن تجد منافذ الخلاص ؟ ان ذلك لن يكون في تراث عربـي قديم •• مهما نشط المتحذلقون في جمع قول من هنا وقول من هنـاك ، وحكمة من هنا وحكمة من هناك ، ومثل من هنا ومثل من هناك ، ليدلـوا بذلك على ما كان للمرأة العربية من مكانة يمكن أن تكون مطمعا لزميلتها المعاصرة •• ومرة أخرى لن تجد للمشكلة حلولهـا الا في حضارة الغرب الحديث !••

يؤسفنا أن يصدر مثل هذا الكلام من عالم وأديب كبير له منزلـة في قلوبنا ، فمفهوم القوامة ـ أي قوامة الرجـل على المرأة ـ في الاسلام لا يجعل من الرجل ذا سطوة وسلطان على المرأة يجردها من كيانها كانسان، أو يجعل منها مجرد دمية يلهو بها ، انما مفهومها أن يتحمل الرجل أكبـر قسط من المسئولية في البيت ، المسئولية التي قد تنوء بحملها المرأة بحكم طبيعتها وتكوينها الخلقي ، واذا كان غير المنطقي أن نقر بالمساواة المطلقـة بين الرجل وبين جنسه من الرجال بالرغم من المساواة في التكوين الطبيعي بينهما ، أفيكون من المنطقي اذن أن نقر بالمساواة بين الرجل والمرأة مـع اختلافهما في التكوين الطبيعي لهما ؟••

واذا كان الاسلام بنص القرآن جعل أسباب هذه القوامـة منحصرا في هذا التفاضل ، وفي مسئولية الرجل عن الانفاق على المرأة ، فهـل اذا أصبحت المرأة عاملة كالرجل ، يجب أن نجرد الرجل من هذه القوامـة أو هذه المسئولية ؟

وهل اذا ألقى الاسلام المسئولية في البيت على عاتق الرجل ، أفيكون

هذا مانعا من أن تشترك المرأة معه في الرأي في كل ما يهم حياتهما معا ؟

ان القرآن حين قال : « ولهن مثل الذي عليهن •• وللرجال عليهن درجة » أقر المساواة أولا وهي الاصل ، ثم ثنى بأحقية الرجل في المسئولية وذلك الفرع ، فالى أي مدى يريد الدكتور زكي نجيب محمود تغيير مفهوم القوامة ؟ هل يريد مثلا أن تنعكس الآية فتصبح المرأة هي القوامة على الرجل ؟

ان أشد الدعاة تعصبا لحق المرأة يرفض هذا المنطق بالنسبة له ، الا اذا أحس في أعماق نفسه بأنه ليس أهلا لان يكون رجلا •• وغمز الدكتور مسألة تعدد الزوجات في الاسلام ، وكأن هذا التعدد فرض حتمي على كل مسلم ، فالمسألة ليست الا أمرا مباحا يلجأ اليه المضطر مع اشتراط القدرة على العدل ، بالاضافة الى أن الاسلام لا يجبر امرأة على الزواج من رجل متزوج ، فاذا كانت مسألة التعدد مشكلة فان حلها بيد المرأة وحدها ••

ان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قال : «النساء شقائق الرجال » وكان آخر كلماته وهو يجود بنفسه : « استوصوا بالنساء خيرا » وعندما نزل عليه الوحي بالنبوة والرسالة ، كان أول من لجأ اليه، يستشيره الرأي في أخطر الامور ، هي زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها ، ولم يستعن بمالها ــ وحسب ــ على نشر الدعوة ، بل استعان ايضا برأيها وجاهها حتى لحقت بربها فسمى العام الذي توفيت فيه « عام الحزن » تقديرا لمكانتها كزوج وفية •

وفي أدق مرحلة وأخطرها من مراحل الدعوة ــ وأعني بها الهجرة ــ سمح عليه السلام ــ لفتاة شابة هي أسماء بنت أبي بكر أن تقوم بعمل ايجابي ، فتحمل الطعام والشراب الى الغار الذي انزوى فيه وابوها معه ،

وتقطع الاميال في الفيافي والقفاز وهي تعلم أن عيون الاعداء ترصدها .. كما سمح للمرأة في المعارك التي خاضها أن تسهم فيها مساهمة ايجابية تحث المجاهدين على النضال من أجل العقيدة ، وتوفر الطعام والشراب للجميع ، وتعالج جرحاهم .. بل وتشهر السلاح اذا اضطرت الى ذلك .

وسجل القرآن قصة المرأة المسلمة « خولة » التي جادلت الرسول الرأي في مسألة عرضت بيتها للانهيار ، ونزل الوحي مؤيدا لها ، كما سجل التاريخ قصة المرأة التي جادلت عمر بن الخطاب وهو على المنبر في مسألة « المهر » حين دعا الى عدم المبالغة في المهور ، فردت عليه كيف ذلك يا أمير المؤمنين والله تعالى يقول : « وان أتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ؟ فما كان من عمر — وهو من هو عمر — الا أن يحني رأسه قائلا : أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

واحتج النساء على رسول الله ، لان الرجال غلبهن في كثرة الاسئلة بالمسجد ، وطالبن بأن يجعل للرجال يوما ولهن يوما ، وأجابهن الرسول الى طلبهن ..

أكل هذه لا تقوم دليلا على أن للمرأة مكانها المحفوف بالتقدير في الاسلام عند استاذنا الدكتور زكي نجيب محمود ، حتى يقول : ان مشكلة المرأة لا تجد حلولها في التراث العربي — أو بمعنى أدق — الاسلامي ، وانما تجد حلولها في الفكر الغربي ..

ان بعض الدول الغربية المتحضرة لا يزال يحرم المرأة حقها السياسي، وبعضا آخر لم يمنحها حقها السياسي الا منذ أعوام قلائل .. الغرب الذي لا يزال يفتتن به كاتبنا الكبير ..

واذا كان بعض الفقهاء القدامى ، باجتهادات ذاتية لا تعتمد على

نص صريح أو مقبول ، قد سجلوا في كتبهم ما يعتبر قيودا على حرية المرأة ، بقصد صيانتها ، واقصائها عن الشبهات ومظان الفتن ، فهل من الانصاف أن نحمل الاسلامية مسئولية تخلف المرأة ••• بناء على مثل تلك الاجتهادات الذاتية ؟

* *

ان الداعين الى حرية المرأة معظمهم محترف لهذه الدعوة ، فهل يمكن أن تستقيم حياة المجتمع ــ بوجه عام ــ وتستقر حياة الاسرة ــ بوجه خاص ــ اذا نحن أجزنا للمرأة حرية مطلقة ؟

وما يقال عن الحرية المطلقة بالنسبة للمرأة ، هو ما يقال عن الحرية المطلقة بالنسبة للرجل ، واذا كان الحديث هنا ينسحب على المرأة ، فلاننا بصدد مشكلة الحرية بالنسبة للمرأة ، وأعود فأكرر أن الاقلام والالسنة التي تشيع للمرأة ، وتنفعل من أجلها ، وكأن المرأة في الشرق لا تزال تحيا حياة الاماء في غير قصور الخلفاء المنحرفين ، هذه الاقلام وتلك الألسنة انما تحترف التزلف الى المرأة ، وترتدي أزياء الرياء والنفاق وبالرغم من أن المرأة تعمل اليوم وتتعلم وتشغل أدق المناصب ، وتباشر حقوقها السياسية كاملة ، ولم يقل أحد : ان الاسلام يقف ــ أو يجب أن يقف ــ عقبة في سبيلها ، الا أن بعض الاقلام ــ وأقلام أدعياء التقدمية بالذات ــ تصر على أن تقاليد الاسلام لا تزال عقبة تتصدى لنهضة المرأة ، ويبدو أن مثل هذه الاقلام لديها فراغ شاسع تريد أن تشغله ، فتبني من الاوهام مشكلة ، ثم تشهر أقلامها وتخرج ألسنتها لا لتعالج مشكلة المرأة ــ ان كان ثمة مشكلة ــ ولكن لتتطاول على الدين ، باعتبار أن التطاول على الدين أول مؤهلات التقدمية المزعومة ••

ان المرأة في الشرق تنافس بنات جنسها في الغرب ، في مجال الازياء،

ولكن لا أثر لهذا التنافس في الوعي الاجتماعي والسياسي والثقافي ــ ولا أقصد بالثقافة « المؤهلات » ولكن أعني بها المعرفة ..

لقد دفعت الاقلام الرخيصة المرأة الى أن تنطلق ، والاقلام المعتدلة حاولت أن تقر في ذهن المرأة أن حقها السياسي غاية .. وليس وسيلة الى غاية : هي أن يفيد وطنها من هذا الحق المكتسب ..

ما أكثر الجماعات النسائية في بلادنا ، ما أكثر الثرثارات الناطقات باسم المرأة في كل ميدان ، ولكن هؤلاء وأولئك حصرن نشاطهن ــ او نضالهن في دائرة مفرغة ، فلا يكاد يشغلهن غير الطلاق وتعدد الزوجات ، وبيت الطاعة ونحن واثقون من أنهن لو أجبن الى كل مطالبهن في هذا الصدد ، لاختلقن مشاكل فرعية لهذه المشكلات على حد زعمهن ، لان ليس في جعبتهن مشروعات تنهض بالمرأة النهضة الحقيقية .. كأم وكربة بيت وكعضو أساسي في بناء المجتمع ..

* *

ومع كل ما وصلت اليه المرأة من انطلاق لا حدود له ، الا أن ذلك لا يرضيها فهي تطلب المزيد ، والصحافة تقوم بدور فعال الى جانب وسائل الاعلام الاخرى ، ففي عدد من جريدة الجمهورية تاريخ ١٩٧٢/٨/١٧ قرأت تحقيقا لمحررة تدعى « منى ذكر الله » تحت عنوان « مزيدا من الحرية تطالب به فتاة الجامعة »

● لقد استطلعت المحررة آراء بعض فتيات الجامعة بالنسبة لشغل أوقات الفراغ في العطلة الصيفية ، ويهمنا في هذا التحقيق رأي فتاتين : احداهما ــ وهي طالبة في كلية الفنون الجملية ــ قالت :

« ان لديها وقت فراغ كبيرا جدا خلال الدراسة ؛ وهي تتغلب عليه بالتردد على المعارض ، وزيارة المكتبات ، وقراءة بعض الكتب عن الديكور ورسم اللوحات ؛ وقراءة القصص •• وهي تقضي الصيف في الاسكندرية أو بلطيم •• وتزور الاصدقاء •• وتذهب الى النادي •• وتتردد على السينما •• ولكنها برغم ذلك •• غير راضية » •• تصوروا ••

أما الاخرى ـ وهي طالبة بقسم الفلسفة في كلية الآداب ـ فتقول :

« انها تقضي معظم وقتها في الاعمال المنزلية لمساعدة ماما المريضة ؛ وتذهب الى السينما مرة في كل أسبوع مع شقيقها ؛ وتقرأ القصص الفرنسية ، وما تبقى من الوقت •• في شغل « الكانافا » وهي ايضا •• غير راضية !••

وترى المحررة أن السمة البارزة في آراء فتيات الجامعة ، أن طالبة الجامعة غير راضية عن أسلوب قضاء العطلة ، وأن مقترحاتهن تتركز في خمسة مقترحات يهمنا منها هذا الاقتراح :

« ألا يتمسك أولياء الامور بالتقاليد ، ويتركوا لهن الحرية ـ اذا كانت الثقة متبادلة ؛ والسماح لهن بالسفر بمفردهن !•• » •

● والتربية الجنسية أو الثقافة الجنسية ـ تبدو على السطح في صحافتنا العظيمة ، كما لو كانت مشكلة مستعصية تتضاءل أمامها مشكلة الشرق الاوسط منها ، بل كما لو كانت قضية من أدق قضايانا ، تتضاءل أمامها قضية وجودنا ••

وليس عجيبا أن تثار مثل هذه القضايا الصغيرة لتشغل في الاذهان عن أهم قضايانا •• قضية الحياة أو الموت بالنسبة لنا ؛ وانما العجب أن نحمل هذه المسألة من الاهمية ما لا يثير الا الضحك ••

ففي العدد الاسبوعي من جريدة الجمهورية الصادر في ١٩٧٢/٧/٦ قرأنا مقالا في صفحة المرأة الذي تقدمه المحررة : « حورية جلال » عنوانه: « لماذا ندفن عقولنا في الرمال ، ونرفض ادخال مادة التربية الجنسية في التعليم ؟ » تقول المحررة المفاضلة :

« اذا كانت الدولة تصرف الاموال الكثيرة في سبيل تدعيم ونشر خطة تنظيم الاسرة •• واذا كانت هذه الخطة تتعثر •• فمرجع ذلك — أساسا — الى عدم تدريس مادة التربية الجنسية في المدارس الاعدادية والثانوية للبنين والبنات •• ان كل الدول المتحضرة ، تضع في برنامج تعليم جيلها الجديد هذه المادة الحيوية عن ايمان منها بأن نسبة كبيرة من الطلاق وفشل الحياة الزوجية يرجع الى الجهل بأصول التربية الجنسية •• ! » •

ولو أن المسألة وقفت عند هذا الحد ، بمثل هذا الاسلوب المهذب والنوايا البريئة لهان الامر ، لكن بعض المفكرين « المستنيرين » يرى في اباحة الجنس ضرورة من ضرورات المجتمع ، ففي ندوة المرأة التي عقدتها مجلة « الصحة » ونشرت في عدد يوليو ١٩٧٣ قال الدكتور عبد المنعم شوقي أستاذ الاجتماع بجامعة أسيوط :

« انا اتفق مع الدكتور صبري جرجس في ان الحرية شيء متكامل فعلا •• ولا نستطيع ان نقول : ان الانسان حر في شيء وغير حر في شيء آخر ، وحين يمنع المجتمع الشاب من ممارسة الملاقات الخاصة به والتي لها دوافعها في ذاته •• فانه يمنعه ايضا من ان يفكر بحرية •• انه يكبت رغباته •• ويكبت ايضا افكاره •• انه يكف عن العلاقات الجنسية ، ويكف معها عن أشياء اخرى كثيرة •• وهكذا فنحن نعطل عجلة المجتمع كله باسم الجنس والتقاليد » ••

ويبدو ان الاستاذ الكبير أحس بأن صراحته في حاجة الى مزيد ، فقال :

« كنت أسأل أحد الشباب في شمال أوغندة : ماذا تفعل حين ترغب امرأة ما ؟

فأجاب : أرسل اخواتي البنات ليحضرنها لي •• وسألته : هكـذا بدون زواج ؟ فأجاب :

نعم •• ! قلت له : هذا يحدث أيضا مع اخواتك ؟ فأجاب : نعم ••! اذا رغبت أختي رجلا أرسلت تطلبه •• ! » •

الحقيقة انني كنت على وشك أن احس بنفسي في مصحة للامراض العقلية ، أتصفح صحيفتها التي تصدر بأقلام نزلائها ، لكنني حين تابعت الندوة وقرأت آراء الشباب الجامعي الناضج ، زال عني هذا الاحساس المفزع ، وأيقنت انني أجلس الى مكتبي وفي بيتي ، أقرأ بامعان مجلة « الصحة » التي تصدرها « جمعية الثقافة الصحية والاعلام » وتـرأس تحريرها النابهة التقدمية الدكتورة « نوال السعداوي » •

قالت الانسة فوقية عبد الحميد الطالبة بكلية الفنون الجميلة :

« بالنسبة لجيلي من البنات •• فنحن لا نشعر بأي مشكلة •• أنـا أشعر بأني متحررة فعلا •• أنا مخطوبة •• ورأيي ان الجيل المتعلم مـن البنات يأخذ فرصته كاملة ، وليست عندي مشكلة •• واشعر بحريتي كاملة مع خطيبي » •

وأجابت الفتاة : « انني أقابله وأتحدث معه » •

وسألتها المجلة : أليس هناك شيء آخر ؟؟

وأجابت الفتاة : لا اني اعتقد أنه يجب على الفتاة ان تحافظ علـى نفسها حتى تتزوج ، وهناك وسائل كثيرة لتفريغ الطاقة الجنسيـة مثـل الرياضة ، والانشغال الشديد بالعمل وغيرهما •••

وسألت المجلة الطالب الثانوي ممدوح عطية رأيه :

فأجاب : أوافق الانسة فوقية على رأيها •• أنا لي صديقات أذهب

معهن الى السينما وأتحدث معهن ، ولكن لا تحدث بيننا علاقات جنسية.. بعض زملائي من الشباب يمارسون هذه العلاقات .. ولكن لا أحبذ ذلك وأعتقد أنهم منحرفون ..

وسألته المجلة : ألا تشعر بهذه الرغبة أحيانا ؟

وأجاب الطالب : « بالطبع أشعر ، وأقول لنفسي : انني يجب أن لا أنحرف ... » .

نسيت أن أذكر للقارىء ان الشعار الذي اختارته المجلة للندوة هو : صورة شاب يعانق فتاة ويرفعها عن الارض لتبدو ساقاها العاريتان معلقتين في الهواء .. !

لقد أصبحت الدعوة الى الحرية الجنسية التي تتزعمها الاقلام المشبوهة ، دعوة سافرة ! ويبدو ان الحياء أصبح في نظر الاقلام المشبوهة من رواسب التخلف ، فمنذ اعوام كتب محرر باحدى دور الصحف تحقيقا عن يوغوسلافيا ، وكان أهم ما أبرزه الحرية الجنسية هناك ، ونحن نعلم ان من حق المحرر على الدولة ان تنفق على رحلاته من العملة الصعبة ما شاء ليوافي صحيفته بانطباعاته عن المجتمعات التي يزورها ، لكن لست أدري اذا كان من حق مجتمعنا ان تنقل اليه الانطباعات التي يفيد منها أم أنه لا يملك مثل هذا الحق ؟ .

يقول المحرر الذي زار الدول الاوروبية التي تتميز بالانحلال الخلقي ، ولم يكتب لنا الا عن الجنس ، ويبدو ان احساسه بأنه برغم كتاباته الشاذة لا يزال يعيش في الظل ، هذا الاحساس يدفعه الى مزيد من الكتابات الشاذة طمعا في أن يخرج من مجال الظل لتسلط عليه الاضواء ..

يقول هذا المحرر : أحيانا نرى شابا وشابة ، بينما هما سائران في الشارع ، يتواريان خلف شجرة ضخمة يمارسان العلاقة الجنسية ، وتخرج

الفتاة مسرورة مبتهجة مرفوعة الرأس ايضا ، فالجنس هنا ليس عيبا ، ولا ماسا بكرامة الفتاة ، لأنه من القيم المباحة كالطعام والماء والهواء ••• !

ومنذ سنوات أيضا نشرت جريدة عربية يومية هذا الخبر :

« كانت الجائزة الاولى في اليانصيب الذي أصدره أحد أندية كوبنهاجن بمناسبة رأس السنة ، هي قضاء عطلة نهاية الاسبوع في جناح فاخر بجزيرة كناريا مع سيارة فاخرة ذات سائق خاص ، وفي صحبة ثلاث فتيات حسان •• » •

وعقبت الجريدة العربية بقولها :

« فاز بالجائزة •• السعيد الحظ » •

ولله في خلقه شؤون ••!

وللانسان ان يتساءل : أهذا هو مفهوم الحرية الشخصية في نظر الاقلام الرخيصة المشبوهة ؟ اما أن ينحل المجتمع واما ان يعتبر مجتمعا تعسا متخلفا لانه لا يزال متمسكا بالتقاليد ••

أذكر انني منذ سنوات قرأت قصة مثيرة من القصص التي لا تنشر بقصد الاثارة ، وانما بقصد تشجيع الحرية الجنسية ، واقناع الشباب المراهق بأن هذه الحرية حقه الطبيعي في الحياة ، وان المجتمع الذي يتصدى لهذا الحق الطبيعي ، لهو مجتمع متخلف ، أحرى بالشباب ان يتجاهله ••

نشرت القصة بقلم كاتبة قصصية على صفحات مجلة اسبوعية تدعي أن رسالتها هي الدفاع عن حقوق حواء ، ومؤدى هذه القصة في ايجاز ، ان فتاة جامعية كانت تؤثر العزلة برغم انها على جانب من الجمال ، وعز على زميلات « السوء » اللائي يحترفن الحب ويطلقن لأنفسهن العنان بين أحضان الهوى ، عز عليهن أن توجد بينهن فتاة تتعالى عليهن بحصانتها ، وتشمخ بأنفها لأنها استطاعت أن تذل الشباب اللاهث خلفها ، فرأين أن يثرن الشك في نفسها ، قلن لها :

« ان السر في حصانتها المتكلفة هو أن جمالها من اللون البـارد ، وأن السبب في اعراضها عن الحب هو لأنها غير واثقة في أنوثتها ، وأن الشباب اللاهث خلفها متأكد من ذلك ، وهو يلهث خلفها ليؤكد لها حقيقة نفسها ، وأنها عاجزة عن أن تسايرهن في الحب لحرمانهـا من الانوثـة والجاذبية •• وعز على الفتاة المخدوعة ، فقررت ان تفند مزاعم زميلاتها الحاقدات ، وتؤكد لهن أنها تتمتع بأكبر طاقة من الانوثة والجاذبية ، وأنها قادرة — بمجرد الاشارة لشاب من طلابها — علـى أن تجعله يقـع في حبائلها ، ويخر ساجدا تحت قدميها ، وفي فورة التحدي قررت أن تمارس الحب مع شاب ، وكان ان سقطت ، وهرب منها الذئب البشري ، وعندما تحركت ثمرة الخطيئة في احشائها لجأت مذعورة الى زميلات السـوء ، فأحسن استقبالها ، وخففن من حدة فزعها ، وأكدن لها ان المسألة أتفه من أن تثير أدنى فزع ، فقد تعرض على طبيب يرحب بعمليات الاجهاض ، عن طريق كاتب صحفي يعتبرنه رائدا لهن ، فان له فلسفة يقدرنها ، فهو يرى أن حضارة العصر تفرض على الانسان المتمدن ان يقترن بفتاة زلت مع غيره ثم هرب منها •• بل وان يغفر لزوجه زلتها ان هي زلت مع غيره ••

وكان من بين هؤلاء الفتيات « المنحرفات » فتاة تتزعم الدعـوة الى حرية الفتاة المطلقة ، وكان الكاتب يهواها ويلاحقها لكنها تماطلـه وتتبرم به ، فأرادت ان تختبر مدى اخلاصه لفلسفته ، والتقيا في مكـان هادىء ، وكان الدنيا لا تتسع لسعادته بلقائها ، ولم يمنحها فرصـة لأن تتكلم ، بل طلب الزواج منها ولا ينتظر منها الا كلمة واحدة : نعم أو لا •• وابتسمت له ابتسامة الرضا •• لكنها قالت له رواية من تأليفها :

« قبل أن نرتبط يجب أن ابوح لك بسر ••• لقد زللت مع غيرك ، فأنا لست عذراء ! » •

وغمرت الدهشة وجهه وأحنى رأسه والتزم الصمت ، وألحت عليه

في ان يتكلم ، فرفع رأسه راجيا اياها ان تعطيه فرصة يفكر ، فقالت له :

« اذن فأين التزامك بفلسفتك ؟ أكنت تخدعنا بمقالاتك وآرائك المتحضرة ؟ كأنك ترفض الزواج مني » ؟

وأجاب في هدوء :

« كان عليك يا عزيزتي ان تدركي أن آراء الكاتب التي يسجلها على الورق شيء ، وان ايمانه بآرائه شيء آخر •• » •

ثم نهض وتركها وحيدة تتجرع جرعات الخيبة والأسى ••

أما الفتاة الضحية ، فلم تنجح عملية الاجهاض بالنسبة لها ، فتعرضت للموت ، فحملها زميلات « السوء » الى منزلها ، وادعين امام أبويها . أنها اصيبت بارهاق شديد ــ وهذا رأي الطبيب ــ نتيجة لاسرافها في المذاكرة واستيعاب المواد الدراسية الصعبة •• وصدق الابوان الطيبان ، وأسلما امرهما لله وحده ، وابنتهما تلفظ انفاسها الاخيرة بين أيديهما وأمام أعينهما ••

وانتهت القصة أو المأساة ، ولكن بقي شيء مهم ومهم جدا ، انه تعقيب الكاتبة القصصية ، فبعد ان أضفت على بطلة المأساة لقب «الشهيده» لم تصب جام غضبها على أولئك الطالبات الشريرات اللاتي دفعن بالضحية دفعا الى هوة الرذيلة ، ولا على نفس الضحية التي ألغت شخصيتها واستجابت لنزعات الشيطان الممثل في زميلات السوء ، ولا حتى على ذلك الذئب البشري الذي أوقعها في حبائله ، ثم تركها وحدها تهوي الى قاع الضياع ، أو على ذلك الكاتب المحترف الذي بذر بذور السوء في الفتيات، وانما صبت « الكاتبة الملهمة » جام غضبها على المجتمع المتخلف المكبل بالتقاليد البالية ، فلو أن هذا المجتمع كان مجتمعا عصريا متحضرا من شأنه

ان يفتح صدره للفتاة اذا زلت ، ويغفر لها كلما زلت ، لما اضطرت الضحية البريئة الى عملية الاجهاض التي أدت « بالشهيدة » الى الموت •• !

ومرة اخرى ، لا نملك الا ان نقول : « ولله في خلقه شؤون » !••

*　　*

لست أدري لمصلحة من نلح على مجتمعنا ان يهبط الى مستوى البهيمية ؟ ان المجتمع لا يكون مجتمعا قويا ناهضا بالثقافات العصرية وحدها ، بل لا بد من ان يقوم ايضا على ركائز من القيم الاخلاقية ، وفي مقدمتها الفضيلة والشرف ، لكن هؤلاء المحترفين للتقدم والمدنية الزائفتين انما يريدونه مجتمعا منحلا ، أقل ما يقال فيه : انه مجتمع فقد الاحساس بانسانيته ••

واذا كان أي مجتمع لا يخلو من قلة عابثة لاهية فقدت الشعور بوطنيتها ، فا نمن الواجب على هذه القلة العابثة اللاهية بمقدرات المجتمع أن تدرك ان الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد هي في مسيس الحاجة الى الحزم والجد • لنغرس في الشباب قيم الرجولة والمروءة بدل أن نغرس فيه رزايا الخنوثة والميوعة ، ولكن يبدو ان أولئك الدعاة المحترفين يحسون بكل شيء من حولهم •• الا الظروف العصيبة التي تمر بها بلادنا •• !

*　　*

••• وهذه الصحافة الحرة •• أقصد الحرة التي سلطات مطلقة في تحدي التقاليد والقيم الاخلاقية •

ففي اليوم الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٢ ظهرت مجلة « حواء » التي تصدرها دار الهلال بالقاهرة ، وفيها مقال بقلم رئيسة التحرير السيدة أمينة السعيد تحت عنوان : « هذه الظاهرة » ما معناها ؟ وكانت تقصد

بالظاهرة التي أثارت قلمها ، ظاهرة ارتداء الفتيــات الجامعيــات الزي المحتشم ، الذي لا يكشف عن مفاتنهن ، ولا يثير فضول أعين المراهقــين التي دأبوا على ترصد الغاديات والرائحات بنظرات نهمة زائغة ..

وربما لا يعلم الكثير من الناس شيئا عن دار الهلال أولا ، وقبل أن نعرض لمقال الكاتبة التي لا تحمل قلما بالمعنى المفهوم للقلم ، وانما تحمل هراوة غليظة تود من صميم قلبها ان تضرب بها كل من يتصدى لكتابتها ، باعتبارها ـ كما تزعم نفسها ـ رائدة من رائدات الاصلاح الاجتماعي المعصومات عن الخطأ والمنزهات عن الهوى ـ قبل ان نعرض لمقال الكاتبة الكبيرة ، يحسن بنا ان نشير الى ان دار الهلال في مصر اقيم مبناها الشاهق في شارع المبتديان بالقاهرة بأموال مشبوهة ، ليكون نافذة الى تحقيــق مخططات الاستعمار الصليبي في هذا البلد الذي لم يكن يملك يومهــا من أمره شيئا ...

وفي رأيي ان الاستعمار حين أراد لآل زيدان ان يؤسسوا دار الهلال، كان يضع في ذهنه أن تقوم هذه الدار بمهمتين أساسيتيــن مترابطتين : الاولى : توجيه الضربات العنيفة الى العقيدة الاسلامية ، عن طريق تشويه الفكر الاسلامي وتزييف التاريخ الاسلامي ، وقد أدى الخواجا جورجي زيدان دوره بنجاح في هذه المهمة الاولى ، بما كتب عن الاسلام من روايات وغيرها ، وقد دفعه ذكاؤه الى الحرص على استكتاب بعض حملة العمائم كلمات تشيد بما كتب هو ، متوهما بأنه بمثل هذه الكلمــات المأجــورة يستطيع أن يلقم حجرا كل فم يحاول ان ينفتح ليهاجم ما كتب ..

أما المهمة الاخرى ، فهي توجيه الضربات العنيفة الى التقاليد والاخلاق التي تمت ـ ولو بأدنى سبب ـ الى توجيهات الاسلام ، وقد أدت صحف دار الهلال دورها بنجاح في هذا المجال ، بنشر الصور الخليعة والقصص

الجنسية المسفه . وحملت مشعل الدعوة الى التحلل من القيم الاخلاقية ، والتقاليد الاسلامية ..

ولم تقف رسالة دار الهلال عند هاتين المهمتين ، بل كانت هناك مهمة ثالثة ، هي صنع جيل من الصحفيين يغذى بلبانها ليسهم بأوفى نصيب في نجاح مهمتيها الاساسيتين ، وكانت وسيلة الدار في صنع هذا الجيل ، هما المال والشهرة اللذان يسيل لهما لعاب كل انسان .

ولنعد الى مقال الكاتبة العملاقة الكبيرة السيدة امينة السعيد في مقالها : « هذه الظاهرة .. ما معناها ؟ » وقد صدرت مقالها بسطور ثلاثة تتضمن كلمات توحي بأنها مصلحة اجتماعية خطيرة ، قالت :

« ان الايمان بالقلب لا بالتقاليد .. والفضيلة بالسلوك والاخلاق وتحكيم الضمير فيما يحدث في الخفاء قبل العلانية . . أما هذه الثياب المعجوجة ، فمجرد قشرة سطحية لا تكفي وحدها لفتح ابواب الجنة أو اكتساب رضا الله » .

من قال لك يا سيدتي : ان هذا الزي المحتشم قد لجأت اليه فتياتنا المسلمات لتفتح لهن ابواب الجنة ؟ أو ليكتسبن رضا الله بلا سلوك مستقيم ؟

ثم قالت الكاتبة :

« أصبح من المألوف ان نرى فتيات في مقتبل الشباب يخرجن الى الشارع والجامعات والاماكن العامة بملابس قبيحة المنظر .. سامحك الله .. يزعمن أنها زي اسلامي » ..

ولست أدري كيف حكمت الكاتبة على هؤلاء الفتيات بأنهن يزعمن أن هذا الزي زي اسلامي ؟ ان الاسلام لا يفرض زيا معينا يلزم به المرأة المسلمة ، وانما يطلب فقط أن تكون المرأة محتشمة في ثيابها ، حتى لا تكون

متهتكة تشجع فضول الأعين على ارهاقها بنظرات زائغة نهمة ، كما تشجع ألسنة الشباب المائع على خدش حيائها بألفاظ نابية مخجلة ..

ثم قالت الكاتبة :

« ومع أنني قلبت هذه الظاهرة على مختلف وجوهها ، لم استطع الوصول الى نتيجة محددة تعطيني مبررا منطقيا معقولا لالتجاء فتيات على قدر مذكور من التعليم الى لف أجسادهن من الرأس الى القدمين بزي هو والكفن سواء » . لكن يبدو ان الكاتبة الكبيرة وجدت ألف مبرر ومبرر لالتجاء بعض الفتيات الى تقليد فتيات اوربا في ارتداء الازياء المتهتكة التي لا تغطي الا جزءا يسيرا من اجسادهن ، ويترك الباقي عاريا نهما لعيون الشباب المراهق ، كذلك وجدت ألف مبرر ومبرر لالتجاء الشباب المخنث الفاقد لرجولته في تقليد « الخنافس والهيبز » هذه الظاهرة الوقحة التي هبت علينا من اوروبا وأمريكا .. أما وصف الكاتبة هذا الزي المحتشم بأنه والكفن سواء ، فهو وصف حاقد هزيل يكذبه الواقع .. وكفى .

ثم اختلقت الكاتبة « المصلحة » قصة يعلم الله وحده أنه من نسج خيالها ، وذلك لتؤكد بها تجنيها على هذه الظاهرة المهذبة ، فادعت أنها رأت ومعها سيدتان فاضلتين في حي « جاردن سيتي » ثلاثا من أولئك الفتيات يقفن في احدى ليالي رمضان متفرقات في بعض الاركان المظلمة من الطريق وهن يتحدثن في مرح زائد مع شبان ، وكان واضحا من طريقة الوقفة ورنين الضحكات أنه لقاء عاطفي جدا ، اختيرت له هذه الاركان المظلمة بالذات تلافيا لمعرفة الاهل والجيران .. ومعنى ذلك ــ كما تقول الكاتبة ــ انه لقاء مسروق تعرف صاحباته انه غير مقبول في مجتمعهن ، واذا انكشف أمره فستكون غلطة فاحشة ، ولهذا لجأن الى التخفي تحقيقا للغرض العاطفي من خلف الظهور » .

وهذا المشهد ، جعل الكاتبة ـ كما تدعي ـ تشعر بمزيد من القلق ازاء ظاهرة الزي الجديد العجيب الذي بدا واضحا فيما شاهدته « بجاردن سيتي » في ذلك المساء ، انه يتنافر في بعض الاحيان مع الغرض الذي أريد اظهاره للناس •• !

أهذا كلام معقول يا سيدتي الكاتبة القصصية المبدعة ؟ أعتقد انه كلام لا يصدر عن كاتبة تحترم قلمها وتحترم عقول الذين يقرأون لها ••

كذلك تدعي الكاتبة انها وجدت من الحكمة ان تتباحث مع غيرها في أمر هذه الظاهرة في حقيقتها ، وكان ان تحدثت مع مجموعة من الاصدقاء المعروفين بالتقوى والورع والتدين الاصيل ، وفيهم من يحرص على أداء فريضة الحج كل عام •••

انه لكلام عجيب تشم منه ـ بلا جهد ـ رائحة التلفيق المضحك ، فليس على المسلم ان يؤدي فريضة الحج الا مرة واحدة في العمر ، وليس كل عام ، ثم بأي قياس تعتبر الذي يحج في كل عام تقيا وورعا ومتدينا تدينا اصيلا ؟

ولندع الكاتبة الكبيرة تواصل حديثها :

« ••• فكانت تفسيراتها عجيبة ـ ان اولئك المعروفين ـ عندها ـ بالتقوى والورع والتدين الاصيل ـ بعضهم قال : انها تقليعة جديدة تلجأ اليها الفتيات من اجل لفت الانظار بعد ان استنفدت « الميني جيب » أغراضها •• وبعضهم الآخر قال : انه الرغبة في الظهور بمظهر المتدين سعيا وراء الزواج والتحاليل على أزمة الزواج » ••

هذه هي الاسباب المحزنة التي رفضت ان أقبلها وأصدقها احتراما لعقلية ونفسية الفتيات المتعلمات من بنات الجيل الجديد الذي يعقد الوطن

عليه آماله الكبار في تحقيق مستقبل افضل من الحاضر الذي ساهمنا في صنعه نحن القدامى الوقورات المحتشمات المؤمنات بدينهن ، المتقيات لله الفاعلات للخير دون ادنى احتياج للظهور امام الناس فيما يشبه أكفان الاحياء ...

أمثل هذا الكلام الملقى على عواهنه يحتاج الى تعليق ؟ لا أظن ، والا أتهمنا في تفكيرنا ، وارتاح العقلاء في قوانا العقلية ...

وأعجب من هذا ان الكاتبة ختمت كلامها بهمسة وجهتها الى أمهات هؤلاء الفتيات اللائي ارتكبن جريمة الاحتشام .. قائلة لهن : ان الثوب ليس الضامن للفضيلة والوقار .. وما رأيته بعيني في « جاردن سيتي » يدل على ان نزوات الشباب لا تزدجر بالمظهر ... الى آخر مثل هذه الكلمات الوعظية ..

وترداد « جاردن سيتي » وما ادعت انها شاهدت في احدى ليالي رمضان ما شاهدت ، انما يدل على احساس الكاتبة في اعماقها بالاختلاق والافتراء .

وبعد ..

فهناك كلمة عتاب نوجهها الى أنفسنا ، اننا احيانا يدفعنا الحماس المتدفق الى التطرف في مواجهة اقلام نحس نحن في قرارة انفسنا بأنها أقلام تدين بالتبعية لمخططات الاستعمار الصليبي أو الغزو الماركسي ، فنحقق ــ بحسن نية ــ لحملة مثل هذه الاقلام نصف الهدف الذي ينشدونه ، وهو هدف ذو شطرين أساسيين : الشطر الاول يتضمن ارضاء سادتهم من الغرب أو الشرق ، والشطر الآخر يتضمن ارضاء ذواتهم ، فما ألذ لديهم من ان يهاجموا ، وأن تتعالى الصيحات من فوق المنابر في المساجد ، وصرخات الاقلام في المجلات السلامية المحدودة الانتشار ،

منددة بحملة هذه الاقلام ، وبما يكتبون ، لانهم لا يرون شهرتهم الا بمثل هذه الضوضاء ••!

وهذا ما حدث ، وسنحت الفرصة للكاتبة الكبيرة ان تستعرض عضلاتها مرة اخرى على صفحات مجلتها « حواء » بعد اسبوعين من مقالها الاول ، فقد كتبت تحت عنوان : « هذه الضجةالمفتعلة ما معناها ؟ » تقول :

« ولقد كتبت هذه الكلمة وأنا اعرف انها ستثير زوبعة من فئة معينة اعتادت دائما ان تتصدى لصوت الحق والاصلاح •• أجل لقد هبت الزوابع دائما بتحريض من أهل التخلف الفكري ، ولكن الذين صمدوا أمامها كتب الله لرسالتهم النصر في الوقت المناسب ••!

ان الكاتبة ما كتبت ، وستظل تكتب الى آخر لحظة من حياتها ، وهي واثقة تماما من ان قلمها مهما اتسم بالجرأة فلن يغير من الامر شيئا ، بل ان فتياتنا المسلمات المتحشمات لا يبالين بهذه الحملة المسعورة ولا باضعافها ، وهن يعلمن تماما ان هذه الكاتبة واضرابها لا مجال لاقلامهم الا في الشواذ من الافكار ، ولا نصيب لهم من كتاباتهم الا اشباع شهوة الغرور في نفوسهم ••

ما اكثر الاقلام الشاذة في مجتمعنا ••• هذه الاقلام التي تدعو – بلا حياء – الى التحلل من كل قيمنا ، فاذا تصدى لها متصد اتهمته بالتزمت والرجعية ، والتزمت صاغته الصليبية الحاقدة ، والرجعية من صياغة الماركسية الهابطة ، والصليبية من رواسب الاستعمار الغربي ، والماركسية أصبحت اليوم أسلوبا من أساليب الغزو الفكري في ديار المسلمين ، والصهيونية العالمية ترضع الجبهتين بلبانها أو بأفكارها •••

● ... وهذه السينما « المبجلة » ... !

ان لها شأنا وأي شأن ..

يجب ان لا ننسى اولا : ان لدينا مؤسسة « موقرة » تدعى « مؤسسة السينما » وعلى رأسها الاستاذ عبد الحميد جودة السحار .. الذي كان يحمل في يوم من الايام فكرا اسلاميا .. وله رصيد لا بأس به من المؤلفات الاسلامية ... كما تضم آلافا من الموظفين من كل من هب ودب ..

ويجب أن لا ننسى ثانيا ان هذه المؤسسة « الموقرة » خسرت في أقل من خمسة اعوام بضعة ملايين من الجنيهات ، وقد نوقشت المأساة في مجلس الشعب ، وأعلن في الصحافة ان هناك تحقيقا يجري في دقة وجدية لحصر المسؤولية .. وكانت زوبعة في فنجان ، سكنت الى الأبد ... !

وقد توقع الذين يحسنون الظن بالاستاذ السحار ، أن « مؤسسة السينما » في عهده سوف تتجه اتجاها طيبا ولو بعض الشيء ، وان باستطاعة رئيس مجلس ادارتها ان يحد — على الاقل — من شراهة الافلام الرخيصة الهزيلة التي تعتمد على اثارة الغرائز الجنسية ، ولا أثر فيها للجدية ولا للموضوعية في كثير او قليل . لكن الايام اثبتت ان حسن ظن الذين أحسنوا الظن لم يكن الا ضربا من السذاجة والبلاهة ...

ولندع جانبا القطاع الخاص الذي يعمل في حقل السينما ، فهذا القطاع بلغ حدا من الشراسة لا طاقة لعاقل باحتمالها ، فما يختص بترويج الجنس في افلامه ، فالذي يهم المنتج — وحسب — ايراد الشباك ، ولا أقصد ان الجميع متساوون في الشراسة ، فالمسألة نسبية الى حد ما ، بل ان عددا يعد على الاصابع من الافلام قد ظهر ولا يسع الانسان الا تقديره ، وبعضا من التقدير ..

ويجب ان لا ننسى ثالثا : ان هناك رقابة تدعى «الرقابة على الافلام» وهذه الرقابة تملك مقصا ، لكن يبدو ان هذا المقص « المبجل » حيي الى درجة تجعله يتعفف عن ان يمتد الى المناظر الجنسية المخجلة ، حتى لا يصيبه شيء من رذاذها ، هذا بالاضافة الى ان هذا المقص مصاب بعقدة الهلع ، فبعض المنتجين وبعض المخرجين ، مركز قوة يستطيع ان يعمل الكثير مما قد يزحزح المقص عن مكانه ..

لذلك ليس من المنطق ان نلقي المسؤولية على مقص الرقيب ، ولا على عاتق القطاع الخاص العامل في الحقل السينمائي ، لاننا لا نستطيع ان نكلف الرقابة شجاعة تعجز عن احتمال نتائجها ، ولا ان نفرض على امبراطورية القطاع الخاص ضمائر حية تجعلها تتقي الله في شبابنا ، أو عقائد وطنية تجعلها تتقي الله في هذا البلد ، وبالطبع ليس من العقل ان نلقي ادنى مسؤولية على مؤسسة السينما « الموقرة » لأن الايام أثبتت انها فوق النقد حتى الموضوعي ــ فضلا عن تكون موضع مسؤولية أو هدفا لمساءلة ..

اذن لم يبق الا أن نلقي شيئا من المسؤولية على عاتق النقاد ، والمسؤولية مجسمة على الجماهير التي تدفع الثمن ، وللحقيقة وحدها : يجب ان نشير الى ان الكثرة من النقاد تؤدي واجبها في جرأة ، وأن الجماهير الواعية مع الكثرة من النقاد استطاعتا ان تحمل مؤسسة السينما تلك الخسارة الفادحة التي منيت بها ، ومع ذلك ، فهل توقفت المؤسسة عن انتاج الافلام الرخيصة ؟

اذن فالمشكلة او بمعنى أدق فالمأساة أعمق من ان تعالج ما لم يكن هناك تخطيط جاد ، يحد من شراسة الافلام الرخيصة المثيرة للغرائز الجنسية ، ولا اعتقد ان انسانا يتهمنا بالتجني ، لأن هذا الانسان لا بد ان تكون عيناه قد وقعتا على اعلانات فيلم « أبي فوق الشجرة » وبطلاه

عبد الحليم حافظ ونادية لطفي ، اذ كانت هذه الاعلانات تشير بالخط الصارخ ، ان الفيلم يتضمن ثلاثا وخمسين قبلة ، وكان ان ظهر بعد هذا الفيلم فيلم آخر لنفس البطلة والبطل محرم فؤاد ، وكان ان اشارت اعلاناته الى ان الفيلم يتضمن خمسا وخمسين قبلة على ما أظن •• !

والذين شاهدوا مثل فيلم أنف وثلاث عيون ، أو فيلم السلم الخلفي، أو فيلم حمام الملاطيلي ، وغيرها ، يتأكد لديهم اننا لا تتجنى فيما نكتب ولا فيما نقول ، وقد وقعت عيناي في صحيفة الاهرام الصادرة في ٨ — ١ — ١٩٧٤ — على صرخة للاستاذ جلال الجويلي ، اتخذ لها عنوانا هادئا مهذبا : « مجرد ملحوظة » قال :

«ادعو رجال السينما عندنا الى مؤتمر عاجل يكون موضوعه الاول والوحيد هو ضمائرهم : أدعوهم ان يسألوا انفسهم : أي جرائم ترتكب في حق هذا الشعب من خلال موجة الجنس والاثارة والميوعة ، التي تجتاح الاغلبية العظمى من الافلام التي تعرض الان في دور السينما في بلادنا . والتي تحتوي على مشاهد فاضحة أقل ما يمكن ان يقال فيها : انها مشاهد رخيصة تستهدف استقطاب المراهقين حول شباك التذاكر ، وتسجيل ارقام قياسية في الدخول ، ثم لا شيء يهم بعد ذلك ••

ان مجتمعنا أيها السادة رجال السينما ، لم يكن في يوم من الايام هو تلك الصورة القاتمة في « السلم الخلفي » على سبيل المثال ، حتى لو أغضب هذا الكلام عاطف سالم •• الذي أكن له كل تقدير •• لم يكن أبدا هو تلك الرغبات المحمومة ، أو ارتعاشات الشفاه ، أو شبق العزاب وبنات الهوى متلبسات في غرف النوم •••

وفي هذه المناسبة : أدعو التليفزيون الى تطبيق الاجراءات التي يتبعها قبل عرض افلامه على الشاشة ، على نفس الاعلانات التي يعرضها عن افلام السينما المصرية •• ذلك اضعف الايمان •• الى ان يعود رجال

السينما الى ضمائرهم ، أو يتذكروا ان عندهم اولادا وبنات ، وأن العيب سمة من سمات هذا الشعب ، وأن معركة التعمير والبناء التي نخوضها تشمل تعمير النفوس وبناء الاجيال التي ستتسلم اعلام النصر .. ! » .

وليست هذه الكلمات في حاجة الى تعقيب ...

بيد ان المسألة تحتاج الى شيء من التريث ، فما جدوى مثل هذه الصرخة حتى وان أحسنا بكاتبها الظن ، ولم نحطها بشيء من الريبة فاعتبرناها دعاية تنعكس على الفيلم بالرواج .. ما جدوى هذه الصرخة ما دامت الا صرخة في واد سحيق تتلاشى مع ذرات الرياح ؟

* *

وهذا « التليفزيون » العربي الشامخ البنيان على « كورنيش » النيل ... ان عنايته بالتاريخ في شكل مسرحيات شيء سار ولا ريب في ذلك ، لكن الشيء المفزع هو العبث بتاريخنا ، ولا سيما ما يتصل بتاريخ الاسلام الذي اصبح لا يتمتع بشيء من الحصانة في مواجهة العابثين المؤهلين بكل مؤهلات الجهل والتطاول معا . .

وليس من اليسير ــ حتى على المتتبع لبرامج « التليفزيون » ــ ان يحصي هذا العبث بتاريخ الاسلام ، والنتيجة التي يستطيع الانسان ان يخرج بها هي ان يهمس الى نفسه : اما لا تكون هناك مراقبة على نصوص المسرحيات على الاطلاق ، واما ان تكون هناك مراقبة قائمة على قدم وساق لكنها أعجز من أن تكون لديها الثقافة التي تؤهلها حتى لقراءة النصوص ، وهناك احتمال ثالث : ان تكون هناك مراقبة واعية مستنيرة لكنها ذات سلطة محدودة ، تتركز في أن تبدي أعتراضها وكفى ، وليس من حقها أن تحترم آراؤها ..

منذ شهور عرض « التليفزيون » مسرحية اسمها « رجال ورجال » منتجها ومؤلفها ومخرجها وبطلها ، وكاتب « السيناريو » والحوار ، وواضع « الديكور » وربما هو المصور والملقن . انه الاستاذ « عبد الحليم خطاب » ويؤسفني اننا نعتبره من الرعيل الاول في المسرح المصري ، والقصة تصور فترة من تاريخ معاوية رضي الله عنه ، وهي تدور حول فتاة جميلة من فتيات الكوفة ، أحبت والي الكوفة من قبل معاوية، وفي نفس الوقت وقع في غرامها يزيد بن معاوية ، لكنها آثرت والي الكوفة وتزوجت منه ، وقبل ان يتم الزواج دفع الخليفة معاوية اشفاقه على ابنه يزيد ان يبعث بصحابيين جليلين الى الكوفة ليتوسطا في اقناع والد الفتاة بقبوله زواج ابنته من ابن الخليفة ، وكان ان فشلا في مهمتهما ، كان أحد الصحابيين الجليلين هو « أبو هريرة » اما الاخر فهو «الدرداء» رضي الله عنهما ، ولم يكن يهم المؤلف وهو نفسه المخرج عنصر الاستحالة ، اذ من الثابت ان أبا الدرداء رضي الله عنه قد توفي وعمر يزيد بن معاوية زهاء سبع سنين ...

ولو وقفت المسرحية عند هذا الحد لهانت المأساة ، الا ان الاستاذ عبد العليم خطاب كان حريصا على أن يقدم صورة مشوهة من تاريخ معاوية ، وهو جزء من تاريخ الاسلام في عصره الاول المزدهر ، حتى ليخيل الى الساذج الذي يوقعه سوء حظه ان يشاهد المسرحية ، ان الخلافة كلها ظلت مشغولة ردحا من الزمن بغرام ابن الخليفة ، وان حاشيةالخليفة لعبت أخس الادوار في تلفيق التهم ، ونسج خيوط المؤامرة للايقاع بالوالي الذي رفض باصرار ان يتنازل عن فتاة الكوفة لابن الخليفة وآثر اعتزال منصبه ..

ولا مجال هنا لسرد المغالطات الجريئة ، لكن الذي يثير الدهشة انني قد أبديت رأيي في المسرحية لمسؤول عن الشؤون الدينية ، فصارحني

بأنه هو نفسه ابدى اعتراضه عليها وطالب بايقافها ، ولم يستجب له بمبرر أقبح مئات المرات من الجريمة ••• جريمة التزوير في تاريخ الاسلام ، وهو ان عددا من الدول العربية سوف يشتري هذه المسرحية •• أي انها ستدر العملة الصعبة « رضي الله عنها » •• !

ومسرحية اخرى اسمها « القصاص » لا أذكر مؤلفها ولا مخرجها ، لكن المشهد الذي شاهدته منها جعلني في فزع حال بيني وبين متابعةفصول المسرحية المشؤومة ••• وقصة هذه المسرحية تدور حول احداث الفتنة التي قتل فيها الحسين سبط رسول الله ــ صلوات الله عليه وسلامه ••

أما المشهد الذي وقعت عيناي عليه ، فهو ان جماعة من أتباع الحسين ، وجلهم من اصحاب رسول الله ، قد وضعوا في قفص الاتهام ، ووقف ممثل الادعاء اثناء المحاكمة يشير بيده اليهم قائلا : هؤلاء متهمون بالخيانة العظمى ، وكان ان طالب برقابهم •• !

هذه لمسة عابرة •• ولا يسمح المجال هنا بأكثر من هذه اللمسة العابرة ، فالموضوع الذي نحن بصدده هو «الاخلاق في مواجهةالتحديات» ونحن نشهد شهادة حق بأن « التليفزيون » الموقر بعد حرب العاشر من رمضان أخذ بشيء من الاحتشام الذي فرضته الظروف ، ولكن كنا نعتقد انه من الممكن ان يصمد وقتا غير قصير لهذا الاحتشام الذي أكره عليه ، فالمعركة اولا لم تنته بعد ، وحتى لو قدر لها ان تنتهي ، فان امامنا مرحلة شاقة مضنية هي مرحلة التشييد والبناء ، وكان اعتقادنا دليلا على سذاجتنا في تقديرنا للامور ، فلم يكد يمضي على المعركة الا اسابيع معدودة حتى فوجئنا بحلقات « عزوز زوربا » تعود الى الشاشة ، وقد كان مقررا لها ان تعرض كاملة في شهر رمضان وما بعده •• لولا المعركة ، ونسينا شيئا مهما ، هو ان مخرج الحلقات هو الاستاذ محمد سالم الذي

يمثل في « التليفزيون » العربي « أخطبوطا » ضخما ، ومركزا من مراكز القوة التي لا يتصدى لها ، ويحسن ونحن بصدد هذا « الاخطبوط » الضخم ، أن نقرأ كلمات كتبها الاستاذ محمد صالح المحرر بجريدة الاهرام في الرابع والخامس من يناير الماضي « ٩٦٤ » تحت عنوان « سؤال يبحث عن اجابة » قال :

« مع بداية العام الجديد •• ومع بدء عودة بعض البرامج الاذاعية التي توقفت يوم ٦ اكتوبر المجيد •• ارجو ان تكون هذه العودة بحساب — وهي كذلك حتى الان — لتظل اذاعاتنا العربية بموجاتها المختلفة على المستوى الرفيع المتمشي مع أمة محاربة • وهو المستوى الذي حافظت عليه هذه الاذاعات منذ ان اندلعت « الشرارة » أتمنى هذا ••• خوفا على الاذاعة من ان تأخذها حمى منافسة « التليفزيون » خاصة بعد ان بدأ يواصل تقديم مسلسلة حلقات « عزوز زوربا » ••

أليس من الافضل بحث الارتفاع بمستوى الهابط من بعض حلقات الشاشة الصغيرة او فقراتها ، وهذا ما تفرضه الصحوة الجديدة بعد ٦ أكتوبر ؟ أليس من الافضل أن يفعل « التليفزيون » هذا بدلا من ان يبدو أمام جمهوره وكأنه لا يستطيع ان يكون أداة ترفيه — كما يجب — الى جانب دوره الاعلامي والثقافي الا بعودة عزوز ؟

••• ولنعد الى « الاخطبوط » الضخم السيد المخرج المبجل الاستاذ محمد سالم ، هذا المخرج الكبير •• والكبير جدا دأب منذ سنوات على تقديم ما أسماه « بفوازير رمضان » وتعرض — بالطبع — في شهر رمضان ، وهو يرصد لهذه الفوازير جيشا جرارا من الممثلين والممثلات الجميلات ، ولا يفوته أن يجد دورا في كل حلقة للراقصة القمة التي تدعى « سهير زكي » ••• ومحال ان نجد في هذه الحلقات أو

المسلسلات الهزيلةموضوعا أو قصة أو هدفا تربويا أو اجتماعيا، وما أكثر ما تشاهد صخبا وضوضاء وجلبة ، وما أكثر ما تسمع ألفاظا نابية تؤذي المسامع والمشاعر معا ، تتضاءل أمامها ألفاظ السوقة ، وأيضا ما اكثر ما ترى حركات مائعة تؤذي الاعين وتخدش الحيا ء، وتتضاءل امامها حركات بائعات الهوى وهن يلقين شباكهن لاقتناص الضحايا ..

وهذا ــ وحسب ــ هدية المخرج الوقور أو تحيته لشهر رمضان المبارك : بلا ضمير وبلا رقابة وبلا حساب ..

ويبدو أن المخرج اللبق أحس بقدر ضئيل من الحرج ، وهو يعيد الى الشاشة الصغيرة مسلسلة « عزوز زوربا » فراح يحشو عبارات وطنية يلصقها بالمعركة ، وهي عبارات تثير الضحك أكثر مما تنبه الاذهان الى أننا نعيش مع العدو معركة ضارية لم تنته بعد ..

وأرجو أن لا يظن بنا ظان ، أننا ضد البرامج الترفيهية ــ حتى في أيام المعركة ، ما دام الترفيه بريئا وذا هدف تربوي أو اجتماعي ، وانما نحن ضد البرامج الترفيهية التي لا تتضمن الا شبه اباحية متوارية حينا وسافرة حينا آخر ..

وليس من حقنا أن نتساءل :

لحساب من يعمل هذا المخرج العملاق الذي يدعى محمد سالم ؟

وكيف يترك له الحبل على الغارب ، ينفق من أموال الدولة ما شاء له أن ينفق بلا حساب وبلا محاسبة ؟ انه يبدأ في تصوير هذه المسلسلات أو الفوازير المسفة التافهة بعد شهر رمضان مباشرة ، ليستقبل بها شهر رمضان القادم ، كأن شهر رمضان المعظم فرصة سانحة له ليكشف عن عبقرية المدعو المعلم محمد رضا ، أو المدعو سيد زيان ، أو المدعو حسن مصطفى ، بالاضافة الى جورج وسمير وليلى جمال ...

* *

تاريخنا في مواجهة التحدي

ما أكثر ما واجه التاريخ الاسلامي ــ ولا يزال يواجهه ــ من التحديات التي استمرأت ــ ولا تزال تستمرىء ــ ضعف العالم الاسلامي المفكك ، وهو انه على نفسه كشعوب ، وعلى دينه كعقيدة ، وعلى ماضيه كتراث وتاريخ . فأعلنت ــ ولا تزال تعلن ــ حربا ضروسا محمومة على هذا التاريخ ، لا لطمس معالمه وتشويهها ، أو دفن أمجاده ووأدها ــ وحسب ــ بل أيضا لتحويله في أذهان الشباب المسلم الغض ثقافة اسلامية ، الى أوهام مضحكة ، أو حقائق مشوهة تسيء الى الماضي والى الحاضر والى المستقبل على السواء .

ومن الانصاف أن نقرر هنا ، أن المستشرقين الحاقدين ، أو المبشرين الموتورين ، أ والماديين الملحدين ، ليسوا وحدهم المسئولين عن التحديات العنيفة التي واجهت ــ ولا تزال تواجه ــ التاريخ الاسلامي، بل ان هذه المسئولية لتأخذ بتلابيب مفكرين وكتاب مسلمين نهلوا من الثقافة الغربية التي لا يحمل معظمها لتاريخ الاسلام والمسلمين السابقين الا كراهية وحقدا ، وتأثروا بها ، وساروا على نفس الدرب الذي بدأ مسيرته من قبل حثالة من المستشرقين والمبشرين والماديين ، متوهمين أنهم لن يكونوا أعلاما في بلادهم الا اذا قلدوا سادتهم ، ونفثوا سموم

العدوان على المقدسات الدينية في تمرد وجرأة ، بألسنتهم حين يتحدثون، وبأقلامهم حين يكتبون ، واذا كان الهوى والخسة وموت الضمائر طبيعة متأصلة في حملة سادتهم على تاريخ الاسلام ، فان التمرد والجرأة والصفاقة شعار هؤلاء العبيد الذين آثروا العبودية ، ما دامت ستحقق لهم مطمعا ، أو تشبع لهم رغبة ، أو ترضى لهم وجودا ..

فالاسلام دين عربي ، ومحمد نبي عربي ، والفتوحات الاسلامية فتوحات عربية ، والعلوم الاسلامية علوم عربية ، والعلماء المسلمون علماء عرب ، وحروب الردة كانت حروبا من أجل الحفاظ على القومية العربية .. وهكذا فالحضارة الاسلامية حضارة عربية، والدول الاسلامية دولة عربية ، والفلسفة الاسلامية فلسفة عربية ، والفكر الاسلامي فكر عربي ... وفي يسر يمكن أن تصبح الدعوة الاسلامية ، دعوة عربية ، كل مقوماتها الارض العربية ، والجنس العربي ، واللغة العربية ، وييسر للحاقدين على الاسلام أن يقولوا : ان محمدا لم يكن الا زعيما مغامرا ، أراد بدعوته أن ينقذ بني قومه العرب ، من حالة الهمجية التي كانوا عليها ، وحالة الفوضى التي كانت تدب في أوصال الجزيرة العربية ، وحالة المجاعة الرهيبة التي كانت تدفع الاب الى قتل فلذات كبده خشية املاقه ، متجردا من كل مشاعر الارض كانسان ، وقد ابتكر لهم فكرة الجهاد ، ليفتح أمامهم الآفاق مستثيرا فيهم ما طبعوا عليه من العنجهية والبسالة ، لينهبوا ما شاء لهم أن ينهبوا من كنوز فارس والشام !..

على أنه اذا كان مستساغا من المستشرقين الحاقدين ، أو المبشرين الموتورين ، او الماديين الملحدين أن يفتروا على تاريخ الاسلام ما شاء لهم أن يفتروا . فكيف يستساغ في بلد اسلامي كمصر ، أن تتسلل هذه الافتراءات على تاريخ الاسلام الى الكتب الجامعية المقررة على الطلبة ،

الذين ليست لديهم من الثقافة الاسلامية الواعية ما يجعلهم في حصن منهـا ؟

كيف يستساغ من أستاذ جامعي مسلم بحكم شهادة ميلاده ، أن يصب في أذهان الشباب المسلم الغض ــ وفي كتاب مقرر مفروض عليهم أن يحفظوا آراءه عن ظهر قلب ، لانهم سيؤدون الامتحان فيما تضمنه من آراء ــ أن يصب هذه الآراء المفتراة على الاسلام ونبي الاسلام وتاريخ الاسلام ؟

بين يدي مثل واحد ، ولكنه مثل صارخ مفزع ، ان دل على شيء ، فانما يدل على أننا ــ نحن المسلمين ــ نعيش في غفلة مطبقة عما يجري داخل جامعاتنا ، التي تستقبل في كل عام ألوفا من الشباب المسلم البريء لا من مصر وحدها ، بل من البلاد العربية والاسلامية على السواء ..

ولنقدم هذا المثل أولا ، قبل أن تجرفنا آلامنا ــ في ظل هذه الغفلة ــ الى الاسهاب في الحديث عن مظاهر الغفلة المطبقة التي نعيشها نحن المسلمين ..

الكتاب الجامعي الذي أقدمه مثلا ، هو « التاريخ السياسي للدولة العربية » والاستاذ الجامعي المؤلف ، هو الدكتور عبد المنعم ماجد ، أستاذ التاريخ بآداب عين شمس ، ولا يتسع المقام هنا لتشريح هذا الكتاب الجريء العجيب ، ولا يتصور عاقل واحد ، أن مستشرقا يهوديا مثل « جولد تسيهر » وهو من ألد أعداء الفكر الاسلامي، عداوة وحقدا، يرضى لنفسه أن يكتب كتابا كالذي بين أيدينا ، لان ذكاءه يحول بينه وبين أن يرمي الاسلام باتهامات ساذجة تثير الضحك .. ليس الا ..

بل سوف أكتفي هنا بموجز للتقرير الذي كتبه الاستاذ علي عبد

العظيم العالم المثقف الفاضل ، علما وأمانة وخلقا ، ورفعة الى مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف ، وذلك بتاريخ ١٩٧٢/١٢/٣٠ ، وقد أشار في تقريره أن الكتاب طبع في بيروت ، وهو مقرر على الطلبة منذ خمسة أعوام ، وهذا مما يدعونا الى تساؤلين :

● لماذا طبع الكتاب في بيروت ؟

والاجابة عن هذا التساؤل لا تخرج عن واحد من اثنين : اما أن يكون المؤلف قد عرضه على الرقابة على المطبوعات فلم تقره ، واما أن يكون احساس المؤلف بما اقترف في كتابه ، دفعه الى أن يؤثر السلامة ، ويطبع في بيروت ، وحتى لا يثير انتباه الرقابة حين يعود من بيروت ليتسلل الى القاهرة ، أما كيف دخل الكتاب المحشو بالافتراءات على الاسلام القاهرة برقابة أو بغير رقابة باعتباره كتابا علميا ومؤلفه أستاذ جامعي له من ثقافته ومركزه الادبي والعلمي ما يحول دون اثارة مسائل تصدم مشاعر المسلمين ••• وللحقيقة وحدها ، فالرقابة على المطبوعات هنا لا تزال تسير على منهج عجيب ••• فالرقيب الذي يوكل اليه أمر كتاب من الكتب الجديدة ، انما يؤثر السلامة لنفسه ، فقد يميز رأيا غير مقتنع به ، أو يجري قلمه الاحمر على رأي هو مقتنع به عن ثقة في ثقافته، لانه لا يفكر في الدفاع عن وجهة نظره اذا اعترض عليه رؤساؤه •

حدث منذ عام قدمت الى المطبعة كتابا لي عنوانه « القرآن والسلوك الانساني » وواضح من عنوان الكتاب أن موضوعه أخلاقي بحت لا صلة له بالسياسة من قريب أو بعيد ، وكنت مريضا ملازما فراشي أكثر من شهرين ، أشكو من مرض الحساسية التي شلت كلتا يدي عن الحركة ، وأدرك مدير المطبعة بلباقته أن الانفعالات النفسية قد تضاعف من مرض

الحساسية التي دهمتني فجأة وبلا مقدمات ، فلم يشأ أن يثير أعصابي بما تفعله الرقابة بكتابي ، مما يعتبر تجاوزا مفرطا لحدودها . ولم أشأ أنا أن أشغل نفسي بشأن الرقابة ، ولا سيما أن الكتاب حوّل الى موظف أعرفه ، وهو شاب حقوقي متدين دمث الخلق ، وصديق سوف يقدر الظروف التي أعيشها ..

وفوجئت بعد طبع الكتاب ـ ولا تزال أصوله تحت يدي ـ أن قلم الرقيب قد جاءت على الكتاب ، فأقصت أكثر من ثلاثين صفحة ، وليس في هذه الصفحات المبعدة عبارة واحدة لها صلة بالسياسة ، أو تمس جانبا من الجوانب المثيرة للامن الداخلي للدولة ، وكل ما امتدت اليه يد الرقيب ، كان نقدا اجتماعيا لسلوكنا ، دون التعريض بأحد من الناس مرموقا كان أم مغمورا . الا ما اقتضته ظروف النقد ذاتها ..

ففي مجال الصحافة عرضت للافلاس الذي تعانيه ، والا فما معنى أن تنشر صحيفة كبرى خبرا بالخط العريض ، يقول تحت عنوان : « اعلان حالة الطوارىء » ثم يتضح من التفاصيل أن حالة الطوارىء أعلنت في حديقة الحيوان بسبب أن قردة من القرد على وشك أن تضع مولودها ثم صورة كبيرة لصاحبة العصمة القردة ...

وما معنى أن تنشر جريدة كبرى أخرى خبرا بالبنط العريض ، يقول الخبر : ان المطربة فلانة وهي من مطربات الصنف الرابع ، ستسافر الى لندن للعلاج من مرض الحساسية ، ولهذه المناسبة ، فان آخر لحن كذا ألفه فلان ، ولحنه علان ، وان آخر أفلامها فيلم كذا ، كتب قصته زيد ، وأخرجه عبيد ، وصوره عمرو ، ولم يفت المحرر اللبق أن يتوسط الكلمات صورة كبرى للمطربة في وضع ملفت للانظار .. على الاقل ..

وفي مجال « التليفزيون » الموقر أشرت الى حلقة لبعض من طلبة مدرسة معروفة للمتفوقين ، وهم في سن المراهقة بالطبع ، وكان المتوقع أن تكون الحلقة الى آخر دقيقة فيها ، من الحلقات الجادة التي يتلقى منها سائر الطلبة دروسا في التفوق ، ولكن مقدم البرنامج سأل الطلبة واحدا واحدا عن مثله الأعلى في الحياة ، وكانت الاجابات مذهلة . فالمثل الأعلى لدى الطلبة المتفوقين هم على الترتيب ، ولست أدري أهو ترتيب تصاعدي أم ترتيب تنازلي : عبد الحليم حافظ .. بليغ حمدي .. نزار قباني .. محمد عبد الوهاب .. أنيس منصور .. وقلت تعقيبا على هذه الاجابات : لم أكن أنتظر من هؤلاء الطلبة المتفوقين أن يقولوا : ان مثلنا الأعلى : أبوبكر ، أو عمرو او علي ، او خالد بن الوليد ، بل كنت أتوقع أن يقول واحد منهم : ان مثلي الأعلى هو أبي ...

هذه بعض الامثلة التي امتدت اليها يد الرقيب بالحذف ، ولما لم يكن من حقنا أن نناقش السيد الرقيب ، ولما كان احساسي بأن الرقيب قد تجاوز حدوده وبافراط ، فكرت جادا في رفع دعوى على الرقابة ، وقيل لي : لا بد من ارسال تظلم الى السيد الدكتور عبد القادر حاتم باعتباره الرقيب الاعلى في مدى ستين يوما من صدور الكتاب ، حتى يمكن رفع دعوى قضائية ... وأذكر انني قلت للاستاذ مختار عبد الحليم المحامي الكبير : « انني مصر على رفع الدعوى ولو لم يكن احتمال كسبها الا واحد في المائة ، وحسبي انني لم ألتزم الصمت ازاء حق ضائع لي ... » .

وجاء الى منزلي موظف يحمل خطابا من السيد الاستاذ طلعت خالد وكيل الوزارة يحدد لي فيه موعدا للقائه ــ والخطاب رسمي على « السركي » وفكرت في أن لا أذهب ، لولا محادثة تليفونية من سيادته،

والحق أن الرجل كان كريما مجاملا في لقائه ، قال لي في بداية الحديث : يمكن أن تعتبرني المخطىء في حقك •• لقد قرأت الليلة الكتاب ، ورأيت ما حذف منه ، وأعتقد أن لك الحق في شكواك ، وأعدك أن أية طبعة جديدة للكتاب لن تمس بحال من الاحوال ، وكان السيد وكيل وزارة قد دعا الموظف الصديق الذي جار على كتابي ، وسمع رأيه أي رأي السيد وكيل الوزارة في الكتاب •• وانتهت المسألة عند هذا الحد •• معذرة للقارىء اذا كنت أشغله بأشياء تخصني ، لكنها تجارب لا تمسني وحدي ، بل تمس قضايا المجتمع الذي نعيش فيه ، وكل ما أود أن أقوله : ان الرقابة على المطبوعات رقابة يقظة ، بالنسبة للمطبوعات الداخلية أم للمطبوعات الخارجية التي ترد الى مصر ، فكيف نامت ازاء كتاب خطير كهذا ، والحق أنني دائما ضد مصادرة الآراء ، أيا بلغ مدى انحرافها ، لكنا كنا نود أن يحول مثل هذا الكتاب الى هيئة كمجمع البحوث الاسلامية ، لا ليطلب مصادرة الكتاب ، بل ليقف على ما فيه من انحراف ، ينبه اليه أذهان الطلبة عن طريق مطبوعاته أو نشراته ••

● أما التساؤل الثاني : فكيف ظل هذا الكتاب المتطاول على تاريخ الاسلام يدرس في كلية الآداب طيلة خمسة أعوام كاملة ، دون أن يتنبه اليه أحد ، وربما لولا المصادفة التي أوقعت الكتاب في يد الاستاذ علي عبد العظيم ، لما أحس به أحد ••

أليست هناك في جامعاتنا رقابة على الدراسات النظرية المقررة على الطلبة ؟

هل لو كان الكتاب قد تضمن ولو سطرا واحدا فيه مناقشة لاتجاه سياسي ولا أقول مجرد التطاول ، أكان يمكن السكوت عليه ؟

أكان في مقدور الاستاذ الجامعي الجريء على الاسلام أن يتعرض لاي اتجاه سياسي ؟

أشك في ذلك ••• فالنظام السياسي في أي بلـد شرقي لا يزال له حمى لا يدنو منه أحد ، أما الاسلام ••• فأمره الى الله وحده •••

*　　*

ماذا في هذا الكتاب الجامعي المقرر على طلبة كلية الآداب ؟

ان ما اختاره الاستاذ علي عبد العظيم في تقريره من تطاولات على تاريخ الاسلام ودعوته ، لم يكن الا أقل القليل ، ونحن لا نسرد هنـا الا جزءا من أقل القليل ، يقول التقرير :

ــ ان المؤلف في ص ١٩٨ الجزء الاول : « وفجأة في سن الاربعين يملك محمد موهبة النبوة » ومثل هذا الكلام يوحي بأن نبوة محمـد موهبة فطرية ككل المواهب الفطرية ، وليست اصطفاء من الله عز وجل له ليحمل رسالته الى الخلق كافة •

ــ يستبيح المؤلف لنفسه أن يسرد عبارات تصف القرآن الكريـم بأنه من صياغة محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ مثـل قولـه في ص ٩٩ ج ١ : « ومع ذلك فلم يرد على لسان محمد في القرآن ••• » •

ــ في ص ٢٥٠ يصدر المؤلف حكما غريبا يهدم الشريعة الاسلامية من أساسها ، حيث يقرر ان الوحي كان يتم في المنام ــ وكأنه أضغـاث أحلام ، فيقول عن الوحي : « انه كان ينزل عليه وهو نائـم » ويدعـي أيضا في نفس الصفحة أن النبي كان ينسخ بعض الآيات التي أملاها ويأتي بأخرى غيرها ••• » •

ـ في صر ١٢٧ ، ١٢٨ يقول المؤلف : « وهو ـ أي النبي ـ وان كان أرسل الى العرب، الا أنه اعتبر نفسه أنه مرسل الى كافة الناس ..».

ـ في ص ١٢٧ ـ يذكر المؤلف أن رسالة المسيحية عامة ، وليست كاليهودية مخالفا بذلك نص القرآن على لسان عيسى عليه السلام : ورسولا الى بني اسرائيل ، بل نص انجيل متى من العهد الجديد ، الاصحاح ١٥ : ٢٤ « لم أرسل الا الى خراف بني اسرائيل الضالة » .

ـ في ص ١٢٨ وما بعدها ، يتحدث المؤلف عن قضية البعث والحساب ، فيصفها في عبارات توحي بالسخرية والشك .

ـ في ص ١٢٣ ـ يقول المؤلف : الزكاة في الاسلام ليست نوعا من التضامن الاجتماعي ، كما في وقتنا ، وانما يفسرها بأنها حث على الشفقة والرحمة واستغلال في الجهاد ونشر الدين ...

ـ في ص ١٣٤ ـ ينفي المؤلف أن الاسلام عالج نظم الحياة بنصوص صريحة ، ويؤيد هذا الاتهام في ص ١٣٨ بقوله « والواقع أن الاسلام لم يدع أنه بنى مجتمعا في غاية التنظيم » ..

ـ في ص ١٣٦ ـ يذكر أن الاسلام حرم الربا ، لان معظم القائمين به كانوا من اليهود « وكأن التشريع الاسلامي يقوم على الاغراض الشخصية ... » .

ـ لاحظنا أن المؤلف يلتزم نقل آراء المستشرقين ويتحمس لها ، فاذا أنصفوا الاسلام في موقف ما ، سارع الى مخالفتهم ، وكأنه موكل بتشويه صفحة الاسلام ...

ـ في ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ : ينكر المؤلف آثار التسامح الاسلامي في تحرير الشعوب من أغلالها ، مخالفا آراء جميع المؤرخين العرب ، وجمهرة كبيرة من آراء المستشرقين ، ويكتفي برأي «يوحنا النقيوس» الذي انفرد

بذكر مقاومة الاقباط في مصر للفتح الاسلامي مدة اثني عشر عاما ، دون مناقشة أو دليل ، ليخلص من هذا أن الفتوح الاسلامية : كانت قائمة على السلب والنهب واشباع شهوة سفك الدماء .

ازاء هذه التحديات السافرة المتعمدة ، ماذا يقول الانسان منا ؟..

الذين يتحدون انما يتحدون وهم مطمئنون كل الاطمئنان الى أن أحدا ــ كائنا من كان ــ لا يقوى على اعاقة مسيرتهم . واذا حاول كاتب مثلي ــ المغلوبين على أمرهم أن يناقش هذه التحديات في مقال باحدى المجلات الدينية المتواضعة ، أو على صفحات من كتابه نخرجه الى القراء بشق الانفس .. واذا حاول خطيب من خطباء المساجد أن يغمز هذه التحديات بكلمات انفعالية ، كل هذا وأكثر منه ، لا يغير من الامر شيئا ، بل اننا نحن الذين نتصدى لمثل هذه التحديات نتهم بالتعصب والرجعية، كأن الهجوم على الاسلام حق طبيعي لكل تافه وهزيل ، أما الدفاع عنه فهو الغوغائية ذاتها .. والمأساة بعد ذلك في حاجة الى العلاج .. والعلاج الحاسم لا يتأتى الا بوجود وعي ناضج ورأي اسلامي متيقظ .. لا يشغل نفسه بالشكليات ، ويترك الجوهريات المرة التي تضرب في بناء الاسلام بمعاول من فولاذ !...

وكم أسفت وأنا ألقي محاضرة اسلامية على الجماعة الدينية في أحد مدرجات كلية الزراعة بجامعة القاهرة ، حيث ضاع زهاء ساعة من الوقت في مناقشة تتصل بزي الفتاة المسلمة ؛ وقد دهش بعض الطلبة وأنا أصرح بأن الاسلام لا يشترط زيا محددا للمرأة المسلمة ، لانه يهتم بالجوهر قبل الشكل ، وليس الجوهر وسيلة الى الشكل ، بل يجب أن يكون الشكل مجرد مظهر من مظاهر الجوهر ، والجوهر الذي يهتم به الاسلام هو الحصانة الخلقية التي تنبع من ذاتية المرأة ... والحصانة الخلقية تأتي عن طريق التربية الدينية السليمة من التزمت والتقوقع ، والتي لا

تصطدم بواقع المجتمع الذي نعيش فيه •• ان معظم الاسئلة التي وجهت الي كانت حول زي المرأة المسلمة ، وهذا مما يدعو الى الاسف المرير ••

* *

ليس كتاب الدكتور عبد المنعم ماجد هو اليتيم من بين الكتب الجامعية التي تتحدى الاسلام ، فهناك ـ في الكليات النظرية ـ الكثير، لو أننا كلفنا أنفسنا مشقة المراجعة ، ومن السذاجة أن نلقي الاعباء كلها على الازهر أ وبعض فروعه كمجمع البحوث الاسلامية ، أو حتى نلقي بعضها على المؤسسات الاسلامية التي لا يكاد يحس الانسان هنا وفي أي دولة اسلامية الا بمبانيها الضخمة ، وشعاراتها الفخمة ، ونشاطاتها التي لا تتعدى الاحتفال بالمواسم الاسلامية ، أو النشرات الدينية التي لا تتضمن في معظمها الا موضوعات مستهلكة معادة مكررة •••

أقول : من السذاجة أن نلقي الاعباء كلها على عاتق الازهر أو عاتق بعض المؤسسات والهيئات الدينية التي لا تملك الا مباني ضخمة ، ولافتات عريضة ، ولا يملك رؤساؤها الا ألقابا عجيبة فخمة ، وتملك مع هذه وتلك أموالا طائلة لا تؤدي شيئا في مجال الواجب الجاد ••• ونسقط من الحساب قيمة الرأي العام اليقظ الواسع الافق ، لكن يبدو أن الرأي العام الاسلامي ، كتب عليه أن يكون وهما لا وجود له •• أو أن يظل أملا يداعب أذهاننا ، أو سرابا يداعب أبصارنا •• وكفى ••

من حق متسائل أن يتساءل :

لماذا نركز على ضرورة ايجاد رأي عام اسلامي ؟

والرد على مثل هذا التساؤل ، لا يكلفنا جهدا ذهنيا ، لاننا سنضرب بعض الامثلة من واقع تاريخنا المعاصر ولا أقول تاريخنا الماضي المشرق ، وفي هذه الامثلة الرد الموضوعي على التساؤل الذي نحن بصدده •••

منذ سنوات قام مثال امريكي بصنع تمثال للنبي محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ووضع التمثال في معرض لذلك المثال الامريكي ، والشعب الوحيد من بين الشعوب المسلمة في العالم ، الذي ثار على مثل هذا العمل الجريء الذي يتحدى عواطف مئات الملايين من المسلمين ، هو الشعب الباكستاني ، حيث أعلن سخطه أمام السفارة الامريكية في كراتشي ..

ولولا اعلان هذا السخط المسالم ، لما تدخل الرئيس الامريكي بنفسه ، لرفع التمثال من المعرض ، وبالرغم من ان الفنانين هناك أحرار بكل ما تملك كلمة الحرية من معنى ، الا ان الرئيس الامريكي ــ تفاديا للمشكلة ــ قرر ان يشتري التمثال من صاحبه كحل حاسم .. والدافع وراء هذا الحل ، هو يقظة جزء من العالم الاسلامي ...

ومنذ عشرين عاما تقريبا ، أنتج الاستاذ حسين صدقي فيلما سينمائيا وقام ببطولته ، كان عنوانه « ليلة القدر » ومضمون الفيلم ، محاولة لدفع شبهات حول الاسلام ، يعتمد على الحوار بين الممثلة ليلى فوزي البطلة واليونانية الاصل ، وبين حسين صدقي الطالب الازهري المستنير ، ولم يكن في هذا الحوار ولو عبارة واحدة تمس العقيدة المسيحية من قريب أو بعيد ، مع ذلك فقد اعلن لفيف من الطلبة في احدى كليات الجامعة احتجاجهم على هذا الفيلم في منشورات ، وكان أن تطورت المسألة بعد أن اتهم الفيلم بالتبشير ، وتفاديا للازمات تقرر وقف عرض الفيلم ، واضطر الاستاذ حسين صدقي الى اللجوء الى بعض المشتغلين بالاسلام ، وشهدت الفيلم بنفسي ضمن مجموعة كان من بينها المرحوم الشيخ محمود شلتوت قبل ان يكون شيخا للازهر بالطبع ، شهدنا الفيلم في عرض خاص ، وألححت بنفسي على المسؤولين الاسلاميين أن يتوسطوا

لا ان يتدخلوا ، وأطلق سراح الفيلم بعد حذف بعض مشاهده ، وتغيير اسمه الى « الشيخ حسن » وهو نفس اسم البطل ••

وأصبح من حقنا أن نتساءل نحن :

لقد عرض في مصر عديد من الافلام الامريكيه الدينية التبشيرية ، وما أكثر ما فيها من مخالفات للعقيدة الاسلامية ولا أقول تحديات لها •• عرضت هذه الافلام لا في مصر الاسلامية وحدها ، بل في معظم الدول الاسلامية ، فهل سمعنا ان هناك شيئا اسمه الرأي العام ابدى مجرد الاعتراض فضلا عن ابداء سخط عملي ؟

ولندع الافلام الاجنبية جانبا ، هذه الافلام التي تغزو ديار المسلمين لتؤدي رسالة التبشير ، التي لا يزال لها مكان في ميزانيات امريكا وبعض الدول الاوروبية المتحضرة ••

لندع جانبا مثل هذه الافلام والمسرحيات اليسارية المترجمة التي نمثل فوق أرض اسلامية لحما ودما ، ولنتحدث قليلا عن داخلنا ، فما اكثر افلامنا ومسرحياتنا التي تهبط بالمستويات الاخلاقية الى الحضيض ، ولكن ما أقل اهتمامنا بمثل هذه الافلام والمسرحيات •••

هناك مسرحية لنجيب الريحاني اسمها « حكاية كل يوم » وبعد الريحاني مثلت مرة اخرى ببطولة عبد المنعم ابراهيم ، والذي يهمنا من التعرض لهذه المسرحية ، عبارة وردت على لسان البطل :

« قالوا لنا خذوهم فقراء يغنكم الله من فضله ، فأخذناهم فقراء فنزلنا الى الحضيض » مع تحوير بسيط في نطق الالفاظ ، لان المسرحية باللغة العامية بالطبع •• والمشاهدون يضجون بالضحك ••

والمسلم العادي يدرك ان في هذه العبارة تعريضا بآية كريمة من كتاب الله ، بل وسخرية وقحة •• والجمهور المسلم الذي دفع الثمن نيضحك ويرفه عن نفسه ، في بلادة تامة •••

لنفرض ان في المسرحية عبارة فيها أدنى تعريض بآية من الانجيل ، أكان من المنتظر ان تمر هذه المسرحية بسلام •• ؟ لا اعتقد ••

وفي مسرحية « رجال ورجال » التي عرضها التلفزيون العربي هنا ، ومؤلفها ومنتجها ومخرجها وبطلها « عبد العليم خطاب » عدوان صارخ على تاريخ الاسلامية ، وتشويه لعهد خليفة من اصحاب رسول الله « معاوية » أحداث المسرحية مفتعلة ، الى جانب الاخطاء التاريخية التي تكشف عن جهل مطبق ••

كذلك في مسرحية « القصاص » التي عرضها التلفزيون العربي ، « عدوان صارخ على تاريخ الاسلام ، وتشويه للحركة التي قام بها الحسين رضي الله عنه ، ومن مشاهد هذه المسرحية مشهد يثير الألم المرير : أصحاب رسول الله الذين وقفوا الى جانب الحسين ، في قفص الاتهام • وممثل الاتهام يشير اليهم صارخا : « هؤلاء متهمون بالخيانة العظمى ، لانهم حاولوا تفريق كلمة الامة » ••

ويبدو ان الاذاعة الموقرة أصابتها عدوى العبث بتاريخ الاسلام ، عن قصد وعن جهل معا ،حتى في البرامج الدينية التي تقدمها ، واذا استباح لنفسه عالم أن يردد في احاديث الصباح الدينية : قال نبي القومية العربية ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا سيما اذا كان هذا العالم استاذا سابقا في دار العلوم وعميدا سابقا ايضا لها ، اذا استباح هذا العالم لنفسه ان يقول مثل هذا اللغو ــ دون ان يتصدى له أحد ، فماذا يمنع ان يجيء على لسان خالد بن الوليد في احدى المعارك : ايها العرب •• نحن نجاهد من أجل

القومية العربية . وذلك في بعض التمثيليات الاذاعية عن خالد ؟ ومادا يمنع ايضا من ان تكون حروب الردة لم تهدف الا الى الحفاظ على القوميه العربية ، ولم يكن هدفها الحفاظ على العقيدة الاسلامية ؟

وقد يكون مثل هذا الكلام لغوا يثير السخرية حتى لدى العوام ، فضلا عن المثقفين او انصاف المثقفين ، لكن مما يثير المرارة في النفوس ، ويستفز الاعصاب ، ليس الجهل المطبق المتفشي في كثير من برامج الاذاعة ـ بتاريخ الاسلام ـ وانما الضغط على تاريخ الاسلام لاشباع عاطفة وطنية أو لتحقيق حق سياسي ، ولو كان هذا الضغط يباشر على مراحل متأخرة من تاريخ الاسلام ، لهان الامر ، حيث يجد المؤلف اللبق ثغرات ينفذ منها ليحقق غرضه ، فالتاريخ المتأخر في حاجة الى مراجعة ، ولقد وجدت هذه الثغرات بعد ان تحولت الحكومات الاسلامية الى انظمة ترهب بالسيف أو تلوح بالذهب ، وتحولت الشعوب المسلمة الى رعايا تتقن فن الطاعة والولاء ، ولكن هذا الضغط يباشر احيانا على المرحلة الخاصة بالسيرة النبوية ، وهذا مركز الخطر ...

* *

العقيدة العزلاء في مواجهة التحدي .. أيضاً

من الانصاف ان نعترف بأن العقيدة الاسلامية تواجه اليوم العديد من التحديات في شتى ألوانها واتجاهاتها ..

تواجه هذه التحديات في كل مكان : حيث توجد القلة المسلمة المضطهدة ، أو حيث توجد الكثرة المسلمة المغلوبة على أمرها ..

حيث توجد الدولة العلمانية ، وحيث توجد الدولة التي أعلنت أن دينها الرسمي هو الاسلام ..

أجل : اذا كان الانصاف يدعونا الى الاعتراف بأن العقيدة الاسلامية تواجه اليوم كل ألوان التحديات ، فان الانصاف يفرض علينا الايمان بأن العقيدة في مواجهة التحديات تقف عزلاء أو شبه عزلاء .. وأقول تواضعا شبه عزلاء .. لان اصواتا كثيرة ترتفع احيانا تدافع عن الاسلام ، واقلاما عديدة يعلو صريرها ذودا عن الاسلام ، ومؤتمرات لا حصر لها نعقد من وقت الى آخر تدعو الى الوقوف الى جانب الاسلام في محنته..

ثم ماذا تكون النتيجة .. ؟

لا شيء .. !

فالاصوات العالية التي ترتفع أحيانا ، سرعان ما تخبو دون ان تترك أي صدى حتى في جبين الرياح ...

والاقلام التي يدوي صريرها احيانا ، سرعان ما يذوي صريرها دون ان يترك أي أثر حتى في اذهان القراء ••

والمؤتمرات التي لا حصر لها ، والتي تعقد من آن الى آخر ، انما تنعقد وتنفض ، وسيان لديها الانعقاد والانفضاض ••

نحن لا ننكر ان هذه المؤتمرات تبلغ قمتها في الغضبات المضرية ، والانفعالات الاستفزازية ، والخطب الرنانة ، واصدار القرارات أو التوصيات العنيفة الحاسمة التي يستهلك عنفها في قوة اللفظ ، ويتبخر حسمها في بلاغة العبارة ••

اننا نبلغ ذروة النجاح في اعداد المؤتمرات الاسلامية وفي الدعاية لها ، ولكنها في النهاية مؤتمرات بلا شعوب قادرة على الضغط على ولاة امورها ، ليستجيبوا لقراراتها وتوصياتها ••

والمؤتمرات التي هي بلا شعوب ، كالبناء بلا قاعدة •• كالجعجعة بلا طحن•• كالسراب بلا حقيقة•• وأقل ما توصف به، انها جهد استهلاكي ليس الا ••

ان هناك سؤالا حائرا في مسيس الحاجة الى الاجابة ، والحقيقة ان الاجابة عنه كأنها ضرب من المحال ، لا لأن السؤال من العمق بحيث تتعذر الاجابة عنه ، بل ان سؤالا مثل هذا لا يحدد من المسئول الموجه اليه ، لذلك كان من الممكن ان يظل سؤالا بلا اجابة عنه •• الى الابد ••

وقبل ان ندخل في هذه المتاهات ندلي بصيغة السؤال :

لماذا لا توحد المؤتمرات الاسلامية العديدة في مؤتمر اسلامي دولي، لنحول دون بعثرة الجهود بلا فائدة ؟

ان كل مؤتمر من هذه المؤتمرات الاسلامية ــ بلا استثناء ــ يلح

في الدعوة الى وحدة شاملة للمسلمين ، حتى لا تكاد تخلو قراراته من الدعوة الى هذه الوحدة الاسلامية الشاملة ..

ويعجب المسلم الذي يتولى الأسى على مشاعره ، ويتساءل :
لماذا لا تبدأ هذه المؤتمرات بنفسها ؟
فاذا كانت قادرة ، ولم تفعل ، فهي اذن مؤتمرات أقوال لا أفعال ..

واذا كانت عاجزة عن ان تحقق وحدة بينها وهي تملك امرها فكيف تحمل الدعوة الى وحدة كبرى بين الدول الاسلامية التي لا تملك هي من أمرها شيئا ؟

الحقيقة المرة التي لا مفر من التصريح بها ، هي ان هذه المؤتمرات الاسلامية ، انما قامت وتقوم على اساس من ارادة حكومات لا على أساس من انتفاضات شعوب ، والتفكير في وحدة لهذه المؤتمرات ، ربما يذهب بالغرض الذي من اجله ارادت حكومات لهذه المؤتمرات ان تقوم ، وأضيق معنى لهذا الغرض ، هو الدعاية أو الذر للرماد في العيون .. !

وهناك مسألة ليست على الاقل على هامش الموضوع ، فأحيانا يمثل هذه المؤتمرات — التي تنعقد باسم الاسلام والمسلمين — رسميون موفدون من حكوماتهم ، يفترض فيهم « الدبلوماسية » ليس هذا وحسب بل وتجنب المسائل التي قد تثير الخلافات السياسية أو المذهبية ، لكن الذي يحدث غالبا ، هو ان الهدف الرئيسي من انعقاد المؤتمر ينسى تماما امام زحف الخلافات العريقة بين الدول الاسلامية ، فيتحول المؤتمر الى مباريات صارخة في الجدال والمهاترة ، ولا يكاد الهدف الرئيسي يذكر الا في اتخاذ القرارات والتوصيات التي تصدر براقة فضفاضة . وكفى ...

وأحيانا يمثل هذه المؤتمرات غير رسميين ، بمعنى انهم ممثلون لدولهم وليسوا ممثلين لحكوماتهم ، ومع ذلك فأغلبهم يحرص على ان يكون

رسميا أو شبه رسمي ، أي يتحفظون في أقوالهم وتصريحاتهم حتى لا يصدر منهم ما يؤخذ عليهم اذا هم عادوا الى ديارهم ..

أقول : الغالب منهم ، ولا اقول : جميعهم .. لان الممثلين للاقليات المسلمة في دولهم ، يبدون الى جانب من الصراحة والجرأة المنطلقتين... لكن النتيجة في النهاية .. هي ان تتلاشى هذه الاصوات ، فلا تكاد تبلغ الا مسامع الاعضاء ، فضلا عن الرأي العام الاسلامي ، فليس لدى المسلمين ــ والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ــ ليس لديهم وكالات أنباء اسلامية عالمية بالمعنى المفهوم لوكالات الانباء ، وليس لديهم ايضا صحافة اسلامية على مستوى عالمي ..

واذا كنا نرى ان العمل على ايجاد وحدة للمؤتمرات الاسلامية التي لا حصر لها ، ضرورة تقتضيها ظروف الاسلام والمسلمين اليوم ، حتى يمكن لهذه الوحدة ان تؤدي لقضايا الاسلام والمسلمين أي شيء .. ولا نقول كل شيء .. فان هذه الوحدة تكون في مسيس الحاجة الى خطوة حاسمة ..

انه لا امل على الاطلاق في مؤتمر ترعاه دولة ، أو يرعاه فرد ، لأن امكانيات الاستقلال لهذا المؤتمر تصبح ضربا من العجز ، ولا أقول : ضربا من المحال ..

فليس من المعقول ان ينعقد مؤتمر في دولة اسلامية دون ان يعمل حسابا لهذه الدولة الداعية المضيافة ، سواء فيما يمسها هي أو يمس دولا صديقة لها أو حتى دولا غير صديقة ولا غير معادية ..

لذلك ينعقد المؤتمر في دولة مسلمة ، فيفرغ جل طاقته ضد الصهيونية الآثمة ، باعتبار ان الصهيونية عدو مشترك ، ولانها في مثل هذه المؤتمرات الاسلامية لا يمكنها الحصول على صوت واحد يرجو

المؤتمر ان يخفف من حدة الغضب عليها ، فضلا عن ان تحصل على اصوات تدافع عنها ..

قد يكون بعض اعضاء المؤتمر على استعداد لأن يفضح السلبية التي يأخذ بأسلوبها بعض الدول المسلمة تجاه قضايا الاسلام ومأساة شعوبه ، لكنه يضع في اعتباره ان لا يثير شيئا يسبب الاحراج للدولة المضيفة ..

واستقلال المؤتمر يحتاج الى ارض مستقلة به وأعضاء عاملين يتوافر فيهم الاستقلال الذاتي ، مجردين من المذهبية والطائفية والتبعية السياسية ، الى جانب الثقافة والمعرفة والاخلاص للدعوة والوفاء للعقيدة، كما يحتاج المؤتمر أيضا الى تمويل تقوم به الافراد والشعوب لا الحكومات ولا الدول ، فلا يزال في المسلمين أثرياء حسبنا منهم ان يدفعوا زكاة أموالهم الى المؤتمر ..

منذ سنوات قلائل جال بذهني هذا المشروع . واصطدم بمسألة التمويل ، وأمسكت بمجموعة من الصحف القديمة والحديثة أتصفحها ، وكان ان قرأت خبرين على جانب من الاهمية :

الاول : ان أميرا مسلما تزوج بفتاة هي شقيقة لاحدى الممثلات الصغيرات الجميلات ، ولكنه توفي في منتصف ليلة الزفاف في اكبر فنادق احدى العواصم العربية الكبرى .. والخبر الى هذا الحد ليس مثيرا ، لان الاثارة تكمن في نهايته ، الخبر يفيد ان مؤجل المهر ثلاثون ألف جنيه ، وأن « الشبكة » كانت خاتما ثمنه ستة عشر ألفا من الجنيهات ..

اما الخبر الثاني فمؤداه ان حرم احد وزراء دولة عربيةمسلمة احدثت تغييرا في أثاث منزلها الذي ستستقبل فيه مطربة كبيرة ، فكلفها هذا التغيير ربع مليون دينار .. قد تكون الصحيفة مبالغة في الرقم ، لكن

مهما أخذنا بهذا الاعتبار ثم جردنا الرقم من المبالغة ، سيظل الرقم بعد ذلك مثيرا •••

المهم هو ان قراءة الخبرين بعث الطمأنينة في نفسي ، فأيقنت ان في المسلمين أثرياء لن يبخلوا على مشروع المؤتمر الاسلامي المستقل بشيء من أموالهم •••

ما معنى ان يكون للمؤتمر الاسلامي مجتمع مستقل وأرض يستقل بها ، ثم اموال من خاصة أموال الافراد والشعوب لا الدول ولا الحكومات ؟

هل معنى ذلك ان يتحول المؤتمر الاسلامي الى دويلةمسلمةمستقلة، تعني بشؤون الاسلام والمسلمين الروحية والسياسية والاجتماعية ؟؟

ولم لا ؟ بل يجب ان تكون دويلة معترفا بها ضمن اعضاء هيئة الامم، وأن يكون لأعضاء بعثاتها حصانة دبلوماسية ايضا ، وأن يكون لافرادها المنتمين اليها جنسيتها ، وان تكون ارضها حرما آمنا •• وان يكون لها وسائل اعلام قوية من اذاعة وصحافة وما الى ذلك ••

قد اكون كاتبا خياليا صنعت منه الآلام التي يحس بها ازاء محنه الاسلام ، شاعرا يحلم ، ولكن يبقى ان المشروع جائز ممكن لولا اصطدامه بعقبة كبرى •• هي الارض •• فمجرد البحث عن الدولة المسلمة التي يمكن أن تتبرع بمساحة من أرضها لدويلة المؤتمر الاسلامي ، يحتاج الى جهد ذهني مضن مثير ••

ان الفاتيكان وجدت في ايطاليا المسيحية دولة ترحب بها وتمنحها أرضا ، دون ان يكون لها حق التدخل في شأن من شؤونها ، بل على العكس ، فان دولة الفاتيكان تملك الحق في التدخل في شؤون ايطاليا وكل دولة مسيحية ••

ونحن بالطبع ـ لا نتمنى ان يصبح المؤتمر الاسلامي المقترح ، بل الذي لا يزال حلما ـ لا نتمناه ان يتحول الى دولة روحية او كهنوتية ، وانما نريدها دويلة لها نفوذ سياسي قبل ان يكون لها نفوذ ديني ، تهتم بشؤون الاسلام وشعوبه الفكرية والسياسية ، وتدلي برأي لـه وزنـه الدولي في مشكلات العالم وقضايا الشعوب الانسانية ...

* *

شاء الله وأنا اكتب الفصل الاخير من هذا الكتاب (١٩٧٢ م) ان أشهد بنفسي انعقاد المؤتمر السابع لمجمع البحوث الاسلاميـة بالأزهـر الشريف الذي شهده اكثر من ثمانين عالما ممثلين للعالم الاسلامي في زهاء اربعين دولة وبلدا ، ولقد شهدت من قبل المؤتمر الاول والثاني في عامي ٩٦٤ و ٩٦٥ م ، ولم أشهد المؤتمرات : الثالث والرابع والخامس والسادس حيث كنت في معزل عن الحياة ، لكن قرأت عنها كل ما جادت به وسائـل الاعلام ..

وقبل ان نعرض لمناقشة المؤتمر الذي ينعقد كل عام يجب ان نقول عن المؤتمر السابع والاخير كلمة حق لا تزلف فيها ولا رياء .

فهذا المؤتمر السابع ـ على غير ما سبقه من مؤتمرات ـ ارتفعـت فيه درجة الحرارة الى شكل ملحوظ، والسبب في ذلك ليس ـ وحسب ـ تطور الاحداث التي تمس كيان الاقليات المسلمة في الفلبين وغيرهـا ، ولكن لأن هذا المؤتمر ـ وربما لأول مرة ـ تجـاوز عقبـة الحساسيات الخاصة ، هذه الحساسيات التي كانت في المؤتمرات السابقة تحرمه طاقات الحرارة التي تليق باسم المؤتمر الذي يشهـده علماء مـن شتى بـلاد المسلمين ، المفروض فيهم ان يجعلوا كلمة الحق نصب اعينهم ، وكلمة الحق

وحدها ، وان لا يقيموا أدنى وزن لاي لون من الحساسيات الخاصة ..

ولن أكون مبالغا اذا قلت : ان كلمة شيخ الازهر الدكتور الفحام يومئذ التي القاها في الجلسة الافتتاحية . كانت بمثابة الشرارة الاولى التي أشعلت ما بعدها من كلمات ، كانت كلمة صريحة قوية تليق بجلال المنصب وجلال المؤتمر ، ولقد قلت يومها لفضيلة مدير مكتبه : حسبنا انها كلمة حسبت له ، وما اكثر الكلمات التي حسبت عليه » ..

فالحق ان الكلمة كانت صريحة في المطالبة بوضع حد لتغرير فئة من الناس بعض الشباب المسلم البعيد عن الثقافة الاسلامية ، لاخراجه من الاسلام بشتى المغريات ، مستغلة الفاقة والحرمان ومراهقة هذا الشباب..

وكانت الكلمة حاسمة في المطالبة باقامة حدود الله وفي مقدمتها حدود السرقة ، كما كانت الكلمة صارمة في المطالبة بوضع حد لعمليات الابادة التي يقوم بها الكاثوليك في مسلمي الفلبين ..

كذلك كانت كلمة الاستاذ مصطفى رفعت مفتي المسلمين في قبرص بمثابة قنبلة مدوية ، فجرت حقيقة المأساة المحزنة التي لا يزال المسلمون الاتراك يعيشونها ، والتي ليست في الحقيقة الا وصمة عار في جبين المسلمين عامة ..

كذلك تحدث في أسى وجرأة معا : فضيلة الاستاذ محمود صبحي مدير الدعوة الاسلامية في ليبيا عن « دور الاستعمار في تمزيق الكيان الاسلامي » والمرحوم الاستاذ صالح بويصير وزير خارجية ليبيا السابق من الزحف الصليبي والصهيوني على العالم الاسلامي ، والاستاذ امام رزكن مندوب اندونيسيا عن « المخطط التبشيري الصليبي لتحويل اندونيسيا عن دين الله » .

اما الدكتور محمد البهي وزير الاوقاف وشؤون الازهر الاسبق ،

فقد قدم بحثا عن : « الاسلام وحل مشكلات المجتمع » • والحقيقة ان أي تقدير لهذا البحث لن يوفيه حقه كما ينبغي ، لا لأن الدكتور البهي — كعادته دائما — استطاع في جرأة وصراحة ان يضع النقط على الحروف •• وكفى ، بل لأن الدكتور البهي أيضا قدم بحثا موضوعيا ترفع عن الوعظ والارشاد ، وهتك ستر المعوقات الخفية التي تتصدى للاسلام وتعوق نهجه الاصلاحي •• ويكفي ان يقال بعد ذلك ان الدكتور البهي قد احترم نفسه كعالم ومفكر ••

ثم ماذا بعد ذلك ؟

أيتسع صدر المؤتمر لكلمة حق أخرى ليست له ، وانما هي عليه ؟

● على هامش هذه الكلمة ، كنا نود ان يتضمن برنامج المؤتمر تخصيص جلسة للرأي العام بعد انتهاء الفترة الاولى واصدار القرارات والتوصيات، وأفضل من ذلك ان تسبق هذه الجلسة اصدار القرارات والتوصيات ، حتى يتمكن الرأي العام من الاسهام فيها — ولو بجهد المقل •• والرأي العام الذي نقصده هو — بالطبع — من غير الاعضاء ، من الكتاب والمفكرين والذين لهم القدرة على الحوار والمناقشة • ويا حبذا لو ان الرأي العام كون لجنة يسجل لها المؤتمر تقريره التقييمي عنه ••

ومثل هذا الاسلوب يمكن ان يكون نواة لانشاء رأي عام اسلامي للمؤتمر وهو ما ينقص المؤتمر دون جدال ••

● لنراجع معا قرارات المؤتمر وتوصياته منذ بدايته حتى المؤتمر السابع والاخير ، ولنتجاوز أولا عن القرارات لأنها تقييم للفكر الاسلامي وأحوال الاسلام والمسلمين ، وذلك ما لا يكاد يختلف عليه اثنان ، كأن يكون الاسلام دينا ودولة ونظاما ، أو كأن الكتاب الكريم والسنة النبوية هما المصدرين الاساسيين للاحكام الشرعية ، وأن الاجتهاد لاستنباط

الاحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقررة ، وكان اجتهاده في محل الاجتهاد •• أو كأن يكون حق التملك والملكية الخاصة من الحقوق التي قررتها الشريعة الاسلامية وكفلت حمايتها ، أو كأن يكون الاستعمار واعوانه هو الخطر الاول الذي يجب على المسلمين افرادا وجماعات ودولا ، أن يجاهدوا بالمقاومة الجادة المستمرة ••

وهكذا الى آخر مثل هذه القرارات التي يراها بعض المراقبين ليست الا تحصيل حاصل ، فما اكثر ما يقال مثل هذا الكلام من فوق منابر المساجد ، وما اكثر ما يكتب على صفحات المجلات ، لذلك سنترك جانبا مثل هذه القرارات ، ولنعرض لمسألة التوصيات التي يتخذها المؤتمر في كل اجتماع له ••

ويهمنا ان نسجل هنا ان المؤتمر الاول الذي انعقد في شوال عام ١٣٨٣ هـ مارس ١٩٦٤ م قد أصدر توصيات سبعا :

● وضع خطة ايجابية لتكوين الشخصية المسلمة على أساس من المبادىء الاسلامية التي تدعو الى العزة والحرية والكرامة •••

● تعريف المسلمين في مختلف انحاء العالم بخطر قيام اسرائيل على الاسلام والمسلمين ••

● وضع خطة حكيمة للدعوة الى سبيل الله ومقاومة التحديات التي تواجه الاسلام ودحض الشبهات التي تثار حوله •••

● تشخيص مواطن الضعف في المجتمعات الاسلامية والعمل على علاجها ••

● العمل على اصدار الفتاوي والاحكام المستمدة من أصول الاسلام وتعاليمه في المشكلات التي جدت وتجد في حياة المسلمين •••

● اتخاذ الوسائل الكفيلة بزيادة عناية الشعوب الاسلامية جميعا باللغة العربية لغة القرآن .

● العمل على دعم الروابط بين المسلمين وتوثيق صلاتهم بمجمع البحوث الاسلامية الذي انشىء ليكون ملتقى لقادة الفكر الاسلامي ..

هذه هي التوصيات التي أصدرها المؤتمر الاول فاذا تتبعت كل التوصيات التي صدرت في المؤتمرات الستة بعده لم تجد فارقا كبيرا في الاتجاه ، وان كنت تلمس احيانا صياغة جديدة في الاسلوب أو ألفاظا مستحدثة في العبارة ، لكن انصافا للحقيقة ، لقد طرأ جديد على المؤتمر السابع ، حيث التحمت القرارات مع التوصيات ، وتداخل بعضها في بعض ، وأضيف الى لفظي ــ يقرر ويوصي ــ لفظ ــ يؤكد .

لكن للمراقب لمسار هذا المؤتمر السابع ان يتساءل :

هل جاءت القرارات أو التوصيات او التأكيدات التي صدرت بنفس الحرارة التي اتسمت بها الكلمات القوية العنيفة التي ألقيت ، والمناقشات الجادة الحاسمة التي دارت في جلسات المؤتمر ؟

لقد لفتت الاذهان حرب الابادة التي يشنها الكاثوليك في الفلبين ضد المسلمين ، حتى لقد اشار الى هذه الكارثة شيخ الازهر في كلمة الافتتاح وتلاه الكثيرون من الاعضاء في الجلسات التالية بنفس الحرارة التي بدأت بها اشارة الامام الاكبر .. ومما ألهب المشاعر والمؤتمر منعقد ، وصول برقية من الفلبين الى المؤتمر وتليت اثناء انعقاد الجلسة ، مؤداها ان الكاثوليك احرقوا بالامس الجامعة الاسلامية اليتيمة هناك ، ودمروها عن آخرها ...

كذلك فجر مفتي قبرص في المؤتمر قنبلة مدوية أزاحت الستار

عن المأساة الأليمة التي يعيشها المسلمون الاتراك في الجزيرة ، وقدم صورا تسجل الوحشية الصليبية التي لا يكاد يحس بها العالم الاسلامي فضلا عن ان يتحرك من اجلها •• ثم وردت برقية من بلغاريا وتليت اثناء جلسة المؤتمر ، ملخصها ان الكاثوليك في بلغاريا الحمراء يشنون حرب ابادة على الاقلية المسلمة في بلغاريا ، مقتدية بأخت لها في الفلبين •

واتنظرنا ان تأتي التوصيات بنفس القوة التي عرضت بها مآسي هذه الاقليات المسلمة ، لا أقل ان تتضمن هذه التوصيات لفظ الاحتجاج أو لفظ الاستنكار ، ولا نقول : تتضمن دعوة حارة للعالم الاسلامي ليتحرك حتى يوقف مثل هذه المذابح البشرية ، وتحميل المسلمين افرادا ودولا وحكومات مسؤولية التقصير امام الله والتاريخ • • لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وهذا هو نص التوصية كما جاء في الشطر الاول من البند السادس :

« يوصي المؤتمر بأن يؤلف المجمع لجنة دائمة تعنى بشؤون المسلمين التي تعيش في دول غير اسلامية عموما ، وتستعين في ذلك بكل من يمكن الاستفادة به في هذا السبيل ، من اعضاء المجتمع أو من غيرهم •

وأن تكون الصدارة في اعمال هذه اللجنة لاحوال المسلمين في الفلبين وقبرص وبلغاريا وزنجبار واريتريا » •••

ولحروب الابادة والاعمال الوحشية والاساليب الهمجية التي تشن على الاقليات المسلمة في اكثر من دولة ، أن تطمئن ، وتردد قول جرير الشاعر :

••• ابشر بطول سلامة يا •••

هذا وقد أثيرت مسألة الغزو الفكري الاجنبي لعقــول شبابنــا المسلم ، أثيرت هذه المسألة على أشدها في المؤتمر ، لكنها اختفــت أو كادت في توصياته وقراراته وتأكيداته ••

ولوجه الحق مرة اخرى ، نقول : ان المؤتمر يوفق دائما في صياغــة القرارات والتوصيات والتأكيدات ، وفي اقتراح اللجان والتخطيط لها ، وهذا جهد مشكور ولا ريب ••

لقد ذكر السيد الدكتور بيصار الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية في المؤتمر الصحفي الذي عقده قبيل انعقاد المؤتمر •• ذكر ان المجمــع والمؤتمر السنوي له ، لا يملكان الا اصدار التوصيات ، وهذه كلمــة صريحة ، وواقعية أيضا ، لكن المتابع لتوصيات كل ما سبق من مؤتمرات يرى ان كلمة السيد الدكتور الامين العام يمكن ان تكون مقبولة مــع شيء من التحفظ ، حتى ليكاد يبدو ان حق ملكيــة اصدار القــرارات والتوصيات ليس حقا مطلقا ، ربما لأن بعض الحساسيات لا يزال يلعب دورا ••

ويظهر أننا سوف ننتظر طويلا حتى نفاجأ بأن المؤتمر يملك اصدار القرارات والتوصيات ، ويملك ضغوطا على ولاة الامور لتنفيذها أو على الاقل تنفيذ شيء منها ••

فالمؤتمر أحوج ما يكون الى رأي اسلامي عام ، وهذه هي المهمة الاساسية التي ترتبط بوجوده ، وسوف تكون مهمة يسيرة حين يتوافر له وسائل اعلامه القوية ، وسوف يكون توافر وسائل الاعلام القويــة ممكنا اذا وجد المال ووجد قبل المال الاخلاص ، وهذه هي المشكلة •• !



والحديث عن المؤتمر الاسلامي في مكة أو رابطة العالم الاسلامي . وهو نفس الحديث عن المؤتمر الاسلامي لمجمع البحوث الاسلامية ، أو بمعنى أدق على وجه التقريب ، الا أن الانصاف يدعونا الى الاعتراف بأن رابطة العالم الاسلامي تبذل نشاطا واسعا على مسار العام ، ربما لأن لها امكانيات سياسية ومادية ، كما ان هذه الرابطة اسرع في حركاتها تجاه الاحداث التي تمس الاقليات المسلمة في أي مكان ، وان كانت نهاية هذه التحركات لكل هيئة ، الاحتجاج او الاستنكار او الاستصراخ ••• وكفى الله المؤمنين القتال •• ثم يكون مآل هذه الجهود الكلامية أن تلفظ أنفاسها وهي في طريقها الى الموجهة اليهم دون ان يحس بها أحد ••

ان في العالم الاسلامي اليوم مئات الهيئات والجماعات والجمعيات والروابط تعمل باسم الاسلام ، ولكن اذا أردنا ان نقوم بعملية حسابية لثمرات نشاطاتها كانت النتيجة محزنة بالنسبة للدور الذي تؤديه ايضا للاقليات المسلمة التي تواجه وحدها حروب الابادة او حياة الهوان على الأقل ••

نحن لا نزال نحتفظ بشيء من العقل ، لذلك لا نطلب من هذه الهيئات جميعها المحال ، والمحال هو ان يجمعها اتحاد واحد أو حتى ان يكون لها برنامج عمل موحد ، أو ان تبذل جهودا جبارة ليكون لها ضغط سياسي تجاه الاحداث التي تمس الاسلام والمسلمين ••

لكن ما نرجوه ونلح عليه هو أن تتصدى هذه الهيئات الاسلامية التي هي كغثاء السيل ، ان تتصدى للغزو الفكري الاجنبي ، فيكون لديها اولا علم بما يكتب وما ينشر باللغات الاجنبية أو اللغة العربية ، ويكون تصديها للفكر الاجنبي الذي يغزو عقول شبابنا المسلم ، ليثير فيها الشبهات حول الاسلام ، تصديا جادا عمليا ، فالمطالبة مثلا بمصادرة الاراء ، أو التنديد بها او الرد عليها من فوق المنابر ، أو على صفحات صحف اسلامية لا تكاد

تحس بنفسها فضلا عن ان يحس بها احد ، كل هذه وما اليها ليس حلا عمليا ولا أنصاف حلول ، بل الحل العملي ان يوجد للعالم الاسلامي مؤسسة صحفية كبرى على المستوى العالمي ، ودار كبرى للنشر ايضا على المستوى الدولي ، تسهم في هذه وتلك الهيئات الاسلامية ووزارات الاوقاف في الدول الاسلامية ، وملوك البترول في العالم العربي والاسلامي ..

ان دولة كالكويت مثلا ، تصدر مجلة « العربي » فيطبع منها ربع مليون على الاقل ، وكذلك تصدر مجلة « الوعي الاسلامي » لكن ما يطبع منها يتواضع الى حد كبير بالنسبة لشقيقتها « العربي » ليس هذا وحسب ، بل ان الاولى تصدر تباعا وفي نظام رتيب ، ومكافآت كتابها من السخاء بمكان ، والاعلان عنها في صحف البلاد الاسلامية ينفق عليه الكثير ، وعدد صفحاتها اكثر من ان يحصى ، وعلى العكس بالنسبة للاخرى ، فقد اصبحت تصدر قضاء وقدرا حتى اصبح القارىء المسلم يائسا من ان ينتظرها ، والاعلان عنها متواضع الى حد ما ، وعدد صفحاتها متواضع أيضا ..

وليس من الانصاف ان نتهم الدولة جزافا بمحاباة الاولى واهمال الاخرى ، أو نقيم التفرقة على أساس ان الاولى تصدر عن وزارة الاعلام، والاخرى تصدر عن وزارة الاوقاف ، ولا نظن ان ميزانية وزارة الارشاد تفوق ميزانية وزارة الاعلام ، كذلك لا نظن ان في المفكرين الاسلاميين في العالم الاسلامي عجزا عن ان يمولوا مجلة اسلامية شهرية بالدرجة التي يمول بها المفكرون العرب مجلة عربية .. ولا اقول اسبوعية ..

اذن يكفي أن يقال : ان المعنى في بطن الشاعر ونلتزم الصمت ؟

أم ان المسألة تحتاج الى نظر .. ولو في تساؤلات محدودة ..

أيمكن ان نقول ان حماس وزارة الاعلام لمجلة العربي غير موجود في وزارة الاوقاف بالنسبة لمجلة الوعي الاسلامي ؟

أيحتمل ان تكون النظرة الى مجلة الوعي الاسلامي ــ حتى في البلد الاسلامي ــ على أنها مجلة طائفية أو عنصرية ، والعكس بالنسبة لمجلة العربي ؟

اننا أولا فخورون بمجلة « العربي » لأنها لون من الثقافة الرفيعه الجادة ، ولأن عنايتها بالفكر الاسلامي تفوق كثيرا من المجلات التي تنطق باسم الاسلام ، ولكن السبب في هذه المقارنة ، لانه يعز علينا ان لا تصبح مجلة اسلامية في مكانها الى جوار مجلة عربية ، تصدرها دولة واحدة ، واذا كانت العروبة في حاجة الى مجلة ناجحة كالعربي ، فان العروبة والاسلام اليوم معا أكثر حاجة الى مجلة اسلامية واسعة النفوذ والانتشار ..

لقد علمت ان السبب في وصول مجلة الوعي الاسلامي الى البلاد العربية والاسلامية في غير موعدها المحدد ، مع انها تطبع بانتظام ، هو ان وزارة الاوقاف تتعامل في التوزيع مع شركة بيروتية ، معنى ذلك ان توزيعها تحت رحمة هذه الشركة ، لكن لماذا لا تتعامل الوزارة مع شركات التوزيع في العالم العربي مباشرة كما تتعامل وزارة الاعلام بالنسبة لمجلة العربي ..

ان مجلة « الوعي الاسلامي » اصبح لها مكانة في نفس القارىء المسلم ، وهذا ما جعلنا تتمنى لها ما وصلت اليه شقيقتها العربي ..

* *

والازهر الشريف ، هل هناك ادنى ريب في أن مكانته في العالم الاسلامي تحتل مشاعر المسلمين جميعا ؟

أمن المعقول اذن ان لا تكون له مجلة ناطقة باسمه لها مكانة الازهر في عالم الصحافة الاسلامية على الاقل ..

ليس معنى هذا ان الازهر ليس له مجلة ، كلا ، فان له مجلة شهرية تنطق باسمه ويكتب فيها خيرة العلماء ، ولكن أليس من المؤسف ان ميزانية هذه المجلة هي هي منذ نصف قرن ، وأن الامل في النهوض بها لتليق بمكانة الازهر ، والثقة الكبرى التي يمنحها اياها القارىء المسلم في كل بلد .. هذا الامل لا وجود له حتى في الاحلام ..

لقد عملت في مجلة الازهر منذ يوليو عام ١٩٦٤ بناء على رغبة وزير الاوقاف وشؤون الازهر يومئذ وكان السيد المهندس احمد عبده الشرباص ، وكان رئيس تحريرها المرحوم الاستاذ احمد حسن الزيات ..
قلت لسيادة الوزير المفضال ، في لقاء معه بمكتب مدير جامعة الازهر يومئذ الشيخ الباقوري :

« انها كخطوة اولى للنهوض بمجلة الازهر ، يجب ان تطبع في مطبعة من مطابع الدرجة الاولى ، لأن مطبعة الازهر التي تقوم بطبعها تخضع لظروف وطوارىء تجعل من العسير ان تصدر المجلة بانتظام ، كذلك يجب ان ترتفع مكافأة المقال الى مستوى لائق ، وكذلك يجب ان يكون مقياس النشر مادة المقال لا اسم كاتبه كائنا من كان ..

وكانت المذكرة معدة ، وصدر قرار السيد الوزير بطبع المجلة بعيدا عن مطبعة الازهر ، وبرفع مكافأة المقال الى المستوى اللائق ..

وسعينا جهدنا لطبع المجلة في مطبعة من مطابع القطاع العام ،ووجدنا ان مطبعة وزارة الاوقاف ــ وهي شبه معطلة ــ ومستعدة لطبع المجلة ،

واذا كان من حق مجلة « منبر الاسلام » ان تطبع خارج مطبعة وزارة الاوقاف على استعدادها ، والمجلة تابعة لوزارة الاوقاف ؛ أفلا يكون من حق مجلة الازهر ان تطبع خارج مطبعة الازهر التي ليس لديها أي استعداد يذكر . . ؟ [1] .

وضاعت كل جهودنا سدى ، واستوى قرار الوزير قابعا في زوايا النسيان حتى اليوم ولا نقول زوايا الاهمال واللامبالاة ، فقد ثبت أن في ادارة الأزهر اجهزة تخصصت في التعويق تحت ستار اسمه الروتين والميزانية .. يعمل كأحد مراكز القوة لا يسأل عما يفعل ..

والعجيب انه ما من وزير ولي شؤون الازهر فكر مجرد التفكير في نظرة عطف الى مجلة الازهر ، وكأنها ليست عملا من أعمال الازهر ، وليس من المعقول ان يطلب من وزارة الشؤون ان تحدد لمجلة الازهر اعانة ، او من وزارة الثقافة او من وزارة الداخلية .. .

واليوم على رأس وزارة الاوقاف وشؤون الازهر رجل كالدكتور عبد الحليم لا نشك في غيرته على الاسلام ، لكنا لا نعتقد ان مجلة الازهر مرت بذهنه حتى اليوم، وحتى لو مرت بذهنه فمن آين له متسع من الوقت لينظر نظرة عطف الى مجلة الازهر ؟ [2] .

ولست أدري : أمجلة الازهر أقل شأنا من افتتاح مسجد او زيارة ضريح ؟

ان اموال وزارة الاوقاف هي اموال الخيرين من أثرياء المسلمين ، وقفوها على اعمال البر والخير ، أفلا تعتبر مجلة لازهر عملا من اعمال البر والخير ؟

كنا نود ان يكون للازهر ــ الصوت الاسلامي القوي ــ مجلة اسبوعية فكرية وسياسية معا ، لتواجه التحديات المسلطة على الفكر

---

(1) وأخيرا طبعت المجلة في المطبعة الاميرية .

(2) وزير شئون الازهر اليوم فضيلة الشيخ عبد العزيز عيسى .

الاسلامي والشعوب المسلمة ولا سيما الاقليات منها ، ولكن يبدو أن مثل هذه الامنية مجرد خيال يداعب الاحلام ..

ان عدو الاسلام لا يتسلح بالاسلحة المادية وحسب ، بل يمالك ما هو أخطر من هذه الاسلحة المادية . الصحافة والاعلام ، وليس من المعقول أن يواجه الاسلام وشعوبه تحديات العدو وهما لا يملكان صحافة أو اعلاما بالمعنى المفهوم الواقعي للصحافة والاعلام .

ليس معنى هذا الكلام اننا ـ نحن المسلمين ـ لا نملك صحافة ، كلا .. فما اكثر المجلات الاسلامية التي لدينا ، ولكن ما أقل ما تنشره من موضوعات جادة تخدم الثقافة الاسلامية وتذود عن الفكر الاسلامي تطاولات الفكر الاجنبي غربية وشرقية على السواء .

ان البحث عن مجلات اسلامية حركية ، أي متابعة لما ينشر من فكر اجنبي يثير الشبهات حول الاسلام فكرا ونظاما ، هو بحث في غير طائل ، كان العقاد رحمه الله ينشر في مجلة الازهر سلسلة متواصلة من الابحاث تحت عنوان : « ما يقال عن الاسلام » يتابع فيها ـ بطريقة تفوق الخيال ـ كل ما ينشر عن الاسلام في صحف العالم ومؤسسات النشر ، ويكون مستحقا للتعقيب عليه ، أو تفنيد شبهاته ، ولحق العقاد بالرفيق الاعلى ليترك مكانه خاليا حتى اليوم ...

وليت مجلاتنا الاسلامية حسبها أن معظمها يعيش في عزلة عن الحياة المعاصرة ، لكنها لا تزال تصر على ان تكون مجلات موسمية ، تخصص اعدادا لرمضان ، وليلة القدر ، وليلة النصف من شعبان ، والاسراء والمعراج ، لتزج بقرائها في متاهات الجدل الممل ، وكأن التحركات المضادة للاسلام وشعوبه لا تعنيها في قليل أو كثير ..

هل من المعقول ان نظل الى اليوم ـ وبعد اربعة عشر قرنا ـ نعرض للمناقشات العنيفة ، والمعارك الحامية الوطيس ، مسألة الاسراء والمعراج ،

أكانا بالروح أم بالجسد ، ومسألة رأس الحسين ، أهو مدفون في القاهرة أم في غيرها • ومسألة دعاء ليلة النصف من شعبان أهو وارد أم غير وارد • ومسألة كرامات الاولياء أهي جائزة أم غير جائزة ، ومسألةالتوسل بالأضرحة أهو مشروع أم غير مشروع ، وما الى ذلك من المتاهات التي لا تنتهي أبدا ، والتي لا يتحمس لها الا المفلسون وأنصاف المفلسين ••

ان حرب ابادة شعواء تشن على الأكثرية المسلمة في الحبشة واريتريا ، وزنجبار وتشاد ، وعلى الاقلية المسلمة في الفلبين وقبرص وبلغاريا ••

وان حربا شعواء فكرية ايضا تشن على العقيدة الاسلامية والفكر الاسلامي ، عن طريق الصحافة ومؤسسات النشر المعادية أو عن طريق الارساليات التبشيرية المتوغلة في آسيا وافريقيا ••

ومع ذلك فلا يزال المسلمون يشغلون انفسهم بمسألة رؤية الرب ، أجائز وقوعها في الدنيا أم غير جائز ، ورؤية النبي أجائز وقوعها يقظة أم مناما ليس الا • •

أعجبتني كلمة كتبها العالم الاديب الاستاذ محمد فهمي عبداللطيف في « يوميات الاخبار » في الحادي والعشرين من مايو عام ١٩٧٢ ، تحت عنوان « فلاسفة الجبنة الرومي » مضمونها : ان الرحالة ابن جبير نزل في فلسطين على عهد الحروب الصليبية ، ورأى من عظمة القائد صلاح الدين الايوبي ما رأى ، وأعجب ببسالة الجيوش الاسلامية وتصميمها على النصر ولكن الرحالة حين وصل الى ثغر الاسكندرية أصيب بخيبة أمل اذ رأى علماء الاسكندرية في معركة كلامية حامية الوطيس ، وخلاف شديد أشبه بالخلاف بين علماء بيزنطة حول البيضة والفرخة ، ولكن الخلاف في هذه المرة كان حول الجبنة الرومي ، وهل هي حلال أم حرام ، فريق من العلماء يرى انها حرام لانها تأتي من بلاد الفرنجة والفريق الاخر يرى أنها حلال ، لان الدولة تأخذ عليها المكوس •• !! » •

* *

وقد يكون من حقنا ان نتساءل :

اذا كانت الشعوب المسلمة عاجزة عن أن تتصدى الآن للتحديات العسكرية التي تواجهها الاقليات المسلمة المضطهدة والمغلوبة على أمرها ، فهل نسلم أيضا بأن المؤسسات الاسلامية وفي مقدمتها الازهر ومجمع البحوث الاسلامية التابع له ، عاجزة عن ان تتصدى اليوم للتحديات الفكرية التي يواجهها الاسلام وعقيدته في معظم بلاد المسلمين ٠ ٠؟

هل هذه المؤسسات كلها عاجزة اليوم عن أن تقوم بما كان يقوم به مفكر الامس كالمرحوم العقاد ، الذي كان يتصدى وحده لعشرات الشبهات والمفتريات التي يثيرها المستشرقون الحاقدون ، والملحدون الناقمون ٠٠؟ فاذا لم يكن عجيبا مثلا ، أن يقوم بتدريس الاسلام في جامعات امريكا وأوروبا اما يهودي واما مستشرق واما قادياني ، ولا غير هؤلاء ، أفليس عجيبا أيضا ان ينتدب أجنبي غير مسلم لتدريس لون من الثقافة الاسلامية، في جامعات الدول الاسلامية ، حتى ولو كان هذا الاجنبي غير المسلم قسيسا ورئيسا لأحد الأديرة المسيحية ؟

لقد قرأت هذا الخبر في جريدة الاخبار الصادرة في ٢٥ ــ ١٢ ــ ١٩٦٢ م فكادت الدهشة تهد نفسي ، يقول الخبر :

« أصدر وزير التربية والتعليم بافغانستان قرارا بتعيين القسيس « سيرج دي بوركي » قسيس دير الدومينيكان بالعباسية « القاهرة » استاذا للتصوف الاسلامي بجامعة كابول » ٠

ولنفرض ان هذا القسيس الذي ــ كما تقول الاخبار ــ يحفظ القرآن منذ عشرين عاما ، ولديه مكتبة اسلامية ضخمة ، وأنه درس التصوف الاسلامي منذ خمس عشرة سنة ، ونضيف الى ذلك فرضا أنه موثوق في أمانته العلمية ، وأنه لا مانع من الاستعانة بالخبراء ولو كانوا

غير مسلمين •• لنفرض ان هذا كله من شأنه ان يرشح القس بوركي لهذا العمل ، لكن أفلا يمكن ان يثور تساؤل آخر :

هل عقمت الجامعات الاسلامية وفي مقدمتها جامعة الازهر ، من ان يكون من بين أساتذتها الذين تلقوا دراساتهم في جامعات اوروبا من يصلح لهذا المنصب ؟

* *

وهناك شيء آخر جدير بالاشارة :

ان لدينا ألوف المبعوثين من العلماء الى معظم بلاد الله ، والمفروض فيهم انهم دعاة للاسلام ، وهنا يثور اكثر من تساؤل :

اولا : أهؤلاء يعدون الاعداد اللائق بالدعاة ، من حيث اتقانهم للغات البلاد التي بعثوا اليها ، والمامهم بحياتها الفكرية ، بالاضافة الى قدراتهم في مجال الثقافة الاسلامية الواعية ؟

ثانيا : أمن الممكن أن تتوافر فيهم العقيدة التي تجعل منهم دعاة للاسلام ، وليسوا مجرد مدرسين في المعاهد أو وعاظا على المنابر ؟

ثالثا : لو قدر للاجابة ان تكون بـ « نعم » عن هذين التساؤلين ، فلماذا لم نلمس أثرا لهؤلاء المبعوثين ، المفروض فيهم ان يكونوا دعاة ؟ ان القارىء لكتاب « جون جنتر » ــ في داخل افريقيا ــ أو كتابه ــ في داخل آسيا ــ لا بد ان تملك الدهشة كل مشاعره ، فمبعوثو الارساليات التبشيرية مثلا الى مجاهل افريقيا ، يتحرك الواحد منهم كمؤسسة مستقلة كبرى ، ويبقى في هذه المجاهل بضعة عشر عاما في غير ملل ، وليست مهمته قاصرة على التبشير بالمسيحية ، وانما له مهمة أخرى ، هي محاولة استقطاب الاسلام في البقعة التي يعيش فيها ، ولا يعود من حيث أتى الا

بعد ان يكون قد ألف كتابا أو أكثر عن الاسلام ومساره في هذه البلاد ، ليكون مرجعا ذا خطورة في مكتبات المؤسسات التبشيرية الكبرى ...

لا جدال في أن هذا الفارق ان المبعوث من علمائنا هو موظف لدى دولته ، ولكن المبعوث الاوروبي او الامريكي هو مبعوث باسم المؤسسة التبشيرية التي اطمأنت الى اعداده وأسهمت فيه ليكون داعية يحمل عقيدة ، الدافع عنده هو العقيدة وليست الوظيفة .. وعندما يكون الدافع هي العقيدة ، فلا يبالي المبعوث في أي مكان نزل ولا في أية منطقة حل ، ولا تشغله المكاسب المادية بحال من الاحوال ، لكن حين يكون الدافع هي الوظيفة ، فالمبعوث يحرص على أن يختار من البلاد ما يحقق له رغباته بل آماله ومطامعه ، وقد لا تشغله رسالته لأنه غالبا لا رسالة له الا تحقيق آماله المادية .. وكفى ..

كتب الدكتور السيد رجب حراز ـ جامعة القاهرة ـ منذ اعوام على صفحات الاهرام ، تعريفا موجزا عن الاسكتلندي «دافيد ليفنجستون» ـ ١٨١٣ ـ ١٨٧٣ م ـ وصفه فيه بأنه رحالة وطبيب انجليزي طاف بجنوبي ووسط افريقيا لاستكشاف مجاهلها ، بشر الافريقيين بالمسيحية تمهيدا لسيطرة اوروبا السياسية على بلادهم .

ويقول عن اعداده : أنه درس في جامعة « جلاسجو » الطب واللغة اليونانية وعلم اللاهوت ، وكان قبل ذلك يستغل أوقات فراغه ـ حيث كان يشتغل في أحد مصانع القطن ـ لدراسة علوم النبات والحيوان والجولوجيا واللغة اللاتينية ، وبعد ان حصل على اجازة الطب قبلت عضويته في جمعية لندن التبشيرية ، التي قررت ايفاده الى جنوبي افريقيا حيث استطاع الى جانب مهمته الاستكشافية ـ أن يؤسس اول مركز للتبشير المسيحي في نشوانا لاند ..

ويرى الدكتور حراز ان هذا الرحالة المبشر قام بأعظم رحلة كشفية في افريقيا حين عبرها من انجولا في الغرب الى موزمبيق في الشرق ، أو من الساحل الغربي « الاطلنطي » الى الساحل الشرقي على المحيط الهندي ..

* *

● هل لدينا احساس بهذه التحديات ؟

ان الاجابة عن مثل هذا السؤال يثير كوامن الأسى في نفوسنا ، ولست أدري اذا كان من حسن حظي أم من سوء حظي أن وقع في يدي هذا التحقيق الصحفي ، وذلك السؤال المؤسف مطروح على ذهني ..

انه تحقيق قام به الاستاذ فتحي سالم في جريدة « اخبار اليوم » في ٢٥ ــ ١٢ ــ ٩٧١ م وعنوانه « ست وستون طريقة وثلاثة ملايين درويش، وكل شيخ وله طريقة » ويبدأ المحرر تحقيقه بقوله :

« في مصر ٦٦ طريقة صوفية و ٣ ملايين درويش يشكلون عالما قريبا يعيش بيننا ، ومشايخ الطرق ألوان وأنواع : وكيل وزارة الخارجية ــ نائب رئيس مجلس ادارة شركة ادوية ــ لواء بالمعاش ــ اساتذة في الجامعة ــ مدير عام سابق ــ مديرو شركات ــ وكيل نيابة ــ محامون ــ محاسبون ــ مهندسون ــ جواهرجي ــ عضو في مجلس الشعب ــ طالب في جامعة الازهر ــ تلميذ في المدارس ، وعدد كبير من المدرسين وعلماء الازهر والتجار والشيوخ المتفرغين والمزارعين » .

ولكل واحد من هؤلاء جيش من الاتباع والمريدين الذين ــ لاعتقادهم في انه خير خلف لخير سلف ، وأنه صاحب منزلة كبيرة عند الله ــ يتبركون به ، ويمتثلون لارادته ، ويأتمرون بأمره ، ويتنافسون في طاعته

والتعصب لمبادئه ، وسعيد الحظ منهم هو الذي ينال شرف القربى منه او الرضى عنه ، أو على الاقل التمتع برؤياه وتقبيل يديه في موكب مولد أو حلقة ذكر .. !

ثم يذكر المحرر انللطرق الصوفية موسما للاحتفالات ، يبدأ بمولد النبي ، ويستمر ستة أشهر .. وخلال هذه الفترة يحتفلون بموالد ثلاثة آلاف ولي وشيخ ، ثم ان هذه الطرق تشترك كل عام في مهرجانين : الاول مهرجان رأس السنة الهجرية ، والاخر مهرجان رؤية هلال رمضان ، وهما مناسبتان تتنافس فيهما الطرق في ابراز أحسن ما عندها من ازياء وأناشيد وأكبر عدد من الاتباع ..

ويضيف المحرر : ان الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي المتوفي منذ ٧٣٥ عاما قد انقسمت الى ثمان عشرة طريقة ، وان الطريقة الاحمدية التي أسسها السيد احمد البدوي الذي توفي منذ ٧١٥ عاما قد انقسمت هي الاخرى الى خمس عشرة طريقة ، أما الطريقة الخلواتية التي لا تتبع في الاصل شيخا معينا ، فقد انقسمت الى تسع عشرة طريقة ، ومن المثير الذي ذكره المحرر ان شيخ الطريقة الحامدية — وهو مدير عام شركة الاسواق المصرية — يتلقى يوميا اكثر من مائة خطاب من أتباعه يعترفون فيها بخطاياهم ، ويبوحون بأسرارهم ، ويطلبون رأيه في مشاكلهم » ..

والحق يقال : ان المحرر قد قام بتحقيق صحفي عن امبراطورية الطرق الصوفية ، وبغض النظر عن عدم المامه الالمام الدقيق بنشأة التصوف ، وأيضا عن المغالطات التي سجلها نقلا عن مشايخ الطرق ، الا انه كان تحقيقا مسليا ومؤسفا معا ..

ونحن نمسك القلم عن الخوض في هذه الطرق ، لا لانها اليوم تتمتع

بحصانة وحسب ، بل لاننا حريصون ايضا على ان لا نشغل أنفسنا والقارىء بها ، وان كان للطرق الصوفية امبراطوريتها في مصر ، فلها امبراطوريات اخرى في بعض الدول المسلمة وفي مقدمتها السودان والمغرب ، وغربي افريقيا وشرقيها •• لكن السؤال الذي يلح علينا ، هو : اين مكان هذه الامبراطوريات من التحديات التي تواجهها عقيدة الاسلام والاقليات المسلمة المضطهدة ؟

ربما كان في مثل هذا السؤال كثير من المجاملة ، اذ من الطبيعي ان يكون : هل لدى هذه الامبراطوريات أي احساس بالتحديات التي أشرنا اليها •• ؟

وحسبنا ان نجيب بقولنا : ولله في خلقه شؤون •• !



والسؤال الذي يعيد نفسه الان :

ما هو مدى احساسنا نحن الشعوب المسلمة بهذه التحديات ؟

ان اقصى مدى يبرز فيه احساسنا ازاء مجزرة بشرية في اقلية مسلمة، أو ازاء ضياع دولة مسلمة بأكملها لتلتهمها الصهيونية أو الصليبية أو الشيوعية ، أو ازاء الاسلام نفسه لعزله عن الحياة نهائيا ، أو دفعه الى الانزواء مؤقتا •• ان اقصى مدى يبرز فيه احساسنا ازاء ذلك او اكثر منه ، هو صرخات مجلجلة على المنابر لا تتجاوز جدران المساجد ، أو برقيات احتجاج تصدرها الهيئات الاسلامية مجاملة لاتباعها دون ان تحرك ساكنا ، أو مقالات انفعالية في مجلات اسلامية لا يكاد يحس بها احد ، كل هذه تتم في ساعات أو في ايام •• لتظل التحديات بعدها ناعمة البال موفورة الصحة والعافية ، تمارس دورها في هدوء ، فقد أيقنت أن انفعالات

المسلمين دولا كانت ، أم هيئات أم افرادا ليست الا زوابع هزيلة في فناجين •• أو همسات ذابلة في مهب الريح •• !

لماذا ؟

لأن هذه التحديات تدرك تماما ان انفعالات المسلمين هي في الغالب للاستهلاك الدولي اذا صدرت الانفعالات من دولة مسلمة ، وللاستهلاك المحلي اذا صدرت من هيئات ، وللاستهلاك الذاتي اذا صدرت من افراد وقل أن تصدر من افراد ، بل انه في معظم الاحايين لا تظهر هذه الانفعالات الا اذا اريد لها من السلطات ان تظهر ، فالهيئات ووسائل الاعلام تستطيع بسهولة ان تحس بمشيئة السلطات ، ان كانت ايجابية تحرك كل شيء ، وان كانت العكس ــ أي سلبية ــ سكن كل شيء ••

والشعب المسلم في الحقيقة لا وجود له ، وأقصد ان الاسلام ليس له جمهور عام أو رأي عام ، فمثلا الرياضة لها جمهور عام أو رأي عام ، ولا سيما الكرة ــ كرة القدم ــ جمهور له ثقله ، ورأي عام له وعيه ، والحماس لهذه اللعبة يبلغ قمته وبلا وعي في ايام المباراة ، ويوم انصدرت الاوامر بوقف المباريات اثر النكسة ، عاش جمهور الكرة في شبه مأتم ، وتفتقت أذهان الرأي العام للكرة عن فلسفات عرجاء تدعو الى النظر في اعادة المباريات باعتبارنا شعبا رياضيا قد رفض الهزيمة ، ونجحت الفلسفات العرجاء ••

وربما كان من المقبول ان يكون للعبة رياضية جمهورها أو رأيها العام ، فالامم الحية وغير الحية لا غنى لها عن الرياضة ، لكن هل من المقبول ان يكون للاغاني العاطفية جمهور أو رأي عام حتى ولو كانت البلاد تعيش نكسة مريرة ؟

ففي خطاب للرئيس الراحل في ٢٣ يوليو عام ١٩٦٧ — أي بعد النكسة بأقل من شهر ونصف ، أشار سيادته الى أن رسائل عربية وصلت اليه من المواطنين تأمل ان تذاع الاغاني العاطفية التي توقفت في الاذاعة والتليفزيون ، وسأل السيد الرئيس الاستاذ عبد المنعم القيسوني الذي عاش سنوات الحرب العالمية الثانية في لندن ، فأفتى بأن الاغاني لم تتوقف هناك ، وكان ان ان التقطت الاغاني العاطفية أنفاسها من جديد ..

أذكر ان احد مطربي العواطف — وهو مطرب محظوظ — حين دخل أحد المستشفيات بلندن للعلاج ، وذلك منذ سنوات ، ذكرت احدى الصحف اليومية : ان حالة الطوارىء اعلنت في مستشفى لندن ، بالنسبة للتليفونات ، وذلك لكثرة المكالمات التي تتدفق على المستشفى للسؤال عن صحة المطرب المحظوظ ، كما ذكرت أن اكثر من خمسة آلاف برقية وصلت الى المستشفى من الشباب العربي في كل مكان متمنية الصحة والعافية للمطرب الذي اصبح معبود الجماهير — جماهير المراهقين والمراهقات .. بالطبع ..

وقد يضطر الانسان الى التساؤل :

ألم تحدث أحداث جسام اهتزت لها الارض والسماء ، حيث وجهت ضربات عنيفة الى الاسلام كعقيدة ونظام ، والى الشعوب المسلمة كشعوب من حقها ان يكون لها كيان ووجود ؟

كم برقية احتجاج أرسلت الى هيئة الامم من أفراد مسلمين يوم ان أحرقت الصهيونية بيت المقدس ؟ أو عندما بدأت المذابح في مسلمي الفلبين ؟ أو عندما ذبح خمسة عشر الفا من مسلمين زنجبار ؟ أو عندما احرق الكهنة البوذيون في رانجون عاصمة بورما ثلاثة مساجد للمسلمين هناك ؟ بل كم برقية استنكار ارسلت الى الانظمة الحاكمة في بعض الدول

الاسلامية حين اعلنت هذه الانظمة ــ في غير حياء ــ ان دولها علمانية •• أي لا ارتباط لها بالاسلام في قليل أو كثير وفي مقدمة هذه الدول : بنجلاديش والصومال واليمن الجنوبية ؟

سنتواضع قليلا لنتساءل :

ان بعض الشباب المسلم يظل في شوارع القاهرة ساهرا حتى منتصف الليل حيث توزع الطبعة الاولى من جريدة الجمهورية الصباحية ، ليقرأ الوصف التفصيلي ورأي النقاد لاحدى مباريات كرة القدم ، مع أنه شاهد المباراة في التليفزيون •• فهل شبابنا المسلم ــ حتى المتدين منه ــ بمثل هذا الاهتمام ازاء اخطر الاحداث التي تواجه الاسلام والمسلمين ؟

يجب ان نعترف في تواضع ايضا ، ان مؤسساتنا الاسلامية الرسمية وغير الرسمية فشلت فشلا ذريعا في أن تؤثر في الرأي العام الاسلامي فضلا عن ان تؤثر في شبابنا المثقف المتجه بكل امكانياته الى الاسلام فكرا ونظاما ، وبخاصة طلاب الجامعات وطالباتها ، ولا يجدون من يمد لهم يده الا قلة من المحاضرين ، ويؤسفني ان اقرر هنا ان هذه النهضة الدينية في طلاب وطالبات الجامعات لا تجد تشجيعا ماديا حتى ولا أدبيا سواء من الاتحاد العام للطلاب أم من الاتحادات الفرعية للكليات ، بينما تجد الجماعات الاخرى بالجامعات كل مساندة •

في صيف عام ١٩٧٢ اتجه الى الاسكندرية اكثر من مائتي طالب يمثلون كل الجامعات لاقامة معسكر اسلامي هناك لبضعة ايام ، وكنت احد المحاضرين في هذا المعسكر ، وكم حزنت حين علمت ان هؤلاء الشباب قد عانوا الأمرين في الحصول على مكان للاقامة بعد ان تحلل كل الذين وعدوهم من وعودهم ، حتى لقد باتوا ليلة على الارصفة ، وكم أحسست بالمرارة وقد قيل لي : أن المسؤولين عن المعسكر قصدوا شيخ المعهد الديني بالاسكندرية ليسمح للمعسكر الاسلامي بالاقامة بمبنى المعهد ، لكن

الشيخ رفض بحجة أن المعسكر ليس تابعا للازهر ، ولم يجد الشيخ من يقول له : المفروض في الازهر يا صاحب الفضيلة انه كعبة ثانية للمسلمين من شتى اقطار العالم ، ألم يكفك ان هؤلاء الشباب مسلمون جاءوا لغرض اسلامي ؟؟

وقد أثرت المسألة لفضيلة الدكتور عبد الحليم ـ وهو يومئذ وزير للاوقاف وشؤون الازهر ـ ونحن في بيت المجاهد الاسلامي اللواء الركن محمود شيت خطاب ، بمصر الجديدة ، وكنت واثقا من أن اثارة مسألة كهذه ، لن تتحول كلماتها في النهاية الاولى الا الى ذرات في الهواء .

وفي أوائل صيف عام ١٩٧٣ ، قررت الجماعة الدينية بكلية البنات الاسلامية التابعة للازهر اقامة معسكر ديني يضم اكثر من مائتي فتاة مسلمة من طالبات الكلية ، وكنت الذي افتتح هذا المعسكر وألقي آخر محاضرة فيه ، وكم انزعجت وأنا أستمع الى بعض الفتيات يذكرن لي انهن لقين عديداً من الصعاب حتى تمكن في النهاية ـ بعد جهود مضنية ـ من الحصول على اذن باقامة المعسكر لبضعة ايام ، ولم يكن عجيبا انتنفق المشتركات في المعسكر من جيوبهن على انفسهن ،ودون اية مساعدة من الاتحاد ولا غير الاتحاد ، وانما العجيب ان الجماعة الدينية في كلية البنات الاسلامية التابعة للازهر لا تجد من يقف الى جانبها من اساتذة الكلية الذين يدرسون في قسم الشريعة او قسم اللغة العربية .

* *

ان آخر الاحصائيات عن المسلمين في العالم ، انهم يبلغون اليوم اكثر من ستمائة وخمسين مليونا ... أليس من العار أن لا يكون لهذا العدد الهائل جريدة واحدة عالمية تعنى بشؤون الاسلام والمسلمين وقضاياهما ؟

هل هناك أدنى ريب في أن العالم الاسلامي أثرياء مسلمين أتخمهم الثراء ، أمراء كانوا أم من عامة المسلمين ؟

ان البعض له في المصارف الاجنبية بأوروبا ملايين الجنيهات ، وان للبعض الاخر الوف الاسهم في المؤسسات والشركات العالمية والمحلية ، فهل هناك من هؤلاء الاثرياء من هو مستعد لتمويل مشروع جريدة اسلامية عالمية ولا نقول : وكالة انباء اسلامية عالمية ...؟

بل نتواضع ونتساءل : هل من هؤلاء الاثرياء من هو مستعد لتمويل مشروع جريدة اسلامية عالمية ، ليس لوجه الله ، وانما كعمل تجاري مربح يكسب منه كما يكسب من اسهمه في الشركات والمؤسسات الاجنبية ؟

أليس هؤلاء الاثرياء مسلمين عقيدة أم انهم مسلمون بحكم شهادات مواليدهم .. وكفى ..

لقد قرأت اخيرا في جريدة الاهرام الصادرة في الثامن من شهر يناير ١٩٧٣ نبأ مؤداه :

ان اتباع الطائفة الاسماعيلية سيقيمون مركزا دينيا وثقافيا في منطقة حديقة « ريجنت » في لندن ، يتكلف خمسة ملايين جنيه استرليني .. !

وكلنا يعلم ان الاسماعيلية مذهب ينسب الى الاسلام زورا ، احتضنه ـ ولا يزال ـ الاستعمار الغربي الصليبي ، كما احتضن ـ ولا يزال ـ يحتضن النحل الهدامة في الاسلام كالقاديانية والبهائية وما اليهما .. لذلك اختارت الطائفة الاسماعيلية « لندن » بالذات .

ان المؤسسات الاسلامية في العالم الاسلامي ـ وما أكثر عددها ـ تغط في سبات عميق .. أليس في استطاعتها ـ ما دامت عاجزة ـ أن تتحمس ـ على الاقل ـ لمشروع جريدة اسلامية عالمية ، فتدعو اثرياء المسلمين في

العالم الاسلامي الى الاكتتاب في أسهم المشروع حتى يرى بصيصا من النور والأمل •• لكن مؤسساتنا الاسلامية ، حسبها أنها تحمل اسم الاسلام ، أو حسبها انها محسوبة على الاسلام •• ولو زورا •

ان مشروع « الوفاء والامل » الذي دعت اليه السيدة أم كلثوم ، قد بلغت حصيلة الاكتتاب فيه ربع مليون جنيه في اسابيع معدودة ، وانه لمشروع انساني نبيل ، فهل أحست بذلك مؤسساتنا الاسلامية ذات الشعارات البراقة و « اليفط » الضخمة ؟

ليس من المنطق ان ننتظر من الازهر اصدار جريدة يومية عالمية ومجلته الشهرية تصدر قضاء وقدراً ••

وليس من المنطق أيضا ، ان نأمل ذلك في المؤتمر الاسلامي القائم في جدة ، ولا مجلة ــ حتى سنوية ــ الى الان ••

وليس من المنطق ثالثا ان نأمل ذلك في رابطة العالم الاسلامي القائمة في مكة المكرمة ، ومجلتها الشهرية تصدر حسب التساهيل ••

ولله الأمر من قبل ومن بعد •• !

*   *

ان واجب الوفاء يفرض علينا ان نذكر بخير الرجل المسلم ، الاستاذ أحمد حمزة وزير التموين الاسبق بجمهورية مصر العربية ، هذا الرجل وحده ومن ماله الخاص اصدر منذ اكثر من ربع قرن ــ ولا يزال ــ مجلة لواء الاسلام ، وبالرغم مما اصاب الرجل العظيم في ثروته ، الا انه بايمانه صمد لكل العواصف ، ولا تزال المجلة تصدر بانتظام تؤدي رسالتها في خدمة الفكر الاسلامي وقضايا الاسلام وشعوبه ••

ان الرجل المسلم العظيم رفض ـ ولا يزال يرفض باصرار ـ اية معونة مالية من جهة رسمية أو غير رسمية ، ليضمن ان يظل عمله ابتغاء مرضاة الله وحده ، وقد سمعت ذلك بنفسي من وزير سابق للاوقاف وشؤون الازهر وهو السيد النائب المهندس أحمد الشرباصي الرجل المسلم الذي يعرف للناس أقدارهم ...

ان الاستاذ احمد حمزة لا يزال يرفض ان يتنازل الكتاب الخالدون في مجلته عن أجورهم ، بالرغم من ان جميعهم من ذوي اليسار والحمد لله ، وبالرغم من الظروف المالية التي يعيشها قانعا صابرا والحمد لله ايضا ..

وللانسان ان يتساءل في مرارة :

اذا كان الاستاذ احمد حمزة يرفض باباء ان يتلقى لمجلته اية اعانة من جهة رسمية أم غير رسمية ، فهلا فكر في تشجيع هذه المجلة الخالصة لوجه الله تعالى عن طريق الاشتراك مثلا .. أولئك الاثرياء في العالم الاسلامي..

قرأت في صحيفة الاخبار القاهرية بتاريخ ١٢ ـ ٢ ـ ١٩٧٤ ، خبرا ان لم يكن مذهلا فلا اقل منه انه خبر مثير ، عنوان الخبر « يتبرع بـ ١٠ آلاف جنيه لسباق النيل الدولي .. ويرفض ذكر اسمه » يقول الخبر :

« أودع صلاح الشاهد رئيس الاتحادين : المصري والدولي للسباحة الطويلة امس عشرة الاف جنيه لحساب الاتحاد المصري ، تخصص للانفاق منها على سباق النيل الدولي الذي تقرر اقامته يوم ١٩ ابريل لمسافة ٣٧ كيلو مترا حول الجزيرتين بالقاهرة .. هذا المبلغ تبرع به عربي كريم رفض ان يعلن عن اسمه .. وعد بأن يكون هذا التبرع سنويا .. ! » .

أليس خبرا مثيرا ؟ وهل مثل هذا الخبر المثير في حاجة الى تعقيب ؟

أحيانا يضطر القلم الى التوقف خشوعا اذا كان الخبر مثيرا ...

لكن لنا ان نتساءل : اذا كان تشجيع الرياضة عملا طيبا ، ولهذه الرياضة هواة مفتونون بها الى درجة ان احدهم تبرع بعشرة آلاف جنيه ، وسوف يمضي التبرع كل سنة ، أفليس في أثرياء المسلمين هواة للصحافة الاسلامية ، لكي تؤدي رسالتها ، وبخاصة ان الدولة ـ اية دولة ـ ضامنة للرياضة ، والعكس بالنسبة للصحافة الاسلامية ؟

* *

لماذا يخافون الإسلام

تساؤل : طالما همست به الى نفسي وأنا لا انتظر الاجابة عنه ، لا لأني في غنى عن الاجابة ، ولا لأن الاجابة معضلة تحتاج الى اجهــاد ذهني ، أو ارهاق فكري ، وانما لأن الاجابة عنه تثير في النفس كوامن الأسى ، ولدى النفس من الأسى ما يكفيها ، حتى صارت مشبعة لا تقبل مزيداً منه !..

لو أن قانونا ــ كقانون : من اين لك هذا ؟ ــ عرض على شعب دولة من الدول للاستفتاء عليه ، فهل ينتظر مثلا ان يؤيد المشروع اولئك الذين نهبوا واختلسوا واستغلوا بلا رقابة وبلا حساب .. ؟

ولو ان قانونا صدر بقطع يد السارق ، فهل ينتظر ان يرحب به النشالون أو قطاع الطرق ، أو عصابات السطو على منازل الغير ؟

أود ان اقول :

هل يرحب بالاسلام نظام حياة ، أي انسان كائنا من كان ، اذا تعارض مع مصالحه أيا كانت ؟

هل يرحب بالاسلام ذلك الحاكم الذي يصر على أن يحكم شعبا بأسره حكما مطلقا ، وله سلطات لا حدود لها ولا ضوابط ، لانها فوق الدستــور وفوق القانون ، حتى وان لم يخوله الدستور ولا القانون هذه السلطــات المطلقة ؟

وهل يرحب بالاسلام ذلك الانسان الذي يصر على أن يعيش لنفسه.. اباحيا في شتى سلوك حياته ، بلا ضوابط له وبلا حدود أيضا ؟

وهل يرحب بالاسلام ذلك الانسان الذي يضيق بأية قيود ، يود او يقول ما يشاء ، ويكتب ما يشاء ، ويفعل ما يشاء •• ؟

هذه نماذج ثلاثة من الناس تتعارض مصالحهم مع الاسلام كنظام حياة ، وأخطر هذه النماذج هو النموذج الاول ، الحاكم الذي يحس بالاسلام عقبة في طريقه ، ما دام مصرا أن يحكم الشعب حكما مطلقا ، بسلطات مطلقة ، حتى ولو نص الدستور على أن يكون الحكم ديمقراطيا ، وأن للمواطن حقوقا مصونة بنص الدستور والقانون ، يستطيع مثل هذا الحكم ان يحول الدولة الى معتقل واسع يستوعب كل الشعب ، وينص الدستور والقانون ايضا ، لأن في نصوصهما متسعا لذلك ، أو لأن فيهما ما يتسع لتفسيرات تحقق هوى الحاكم •••

والحاكم من هذا الطراز يرفض في تواضع ان يكون « ظل الله في أرضه » لأنه يجب ان يكون فوق ذلك ، ومعظم الدول الاسلامية ابتلى — ولا يزال — بمثل هذا الطراز من أنصاف الآلهة ، الدولة بكل مقوماتها مسخرة له لتقديسه وتنزيهه عن كل خطأ وخطل وهوى ، اذا رضي عن اتجاه أو انسان سبحت الدولة له بكل اجهزتها ، واذا غضب عليه غضبت الدولة عليه ايضا بكل اجهزتها بما فيه الشعب نفسه •••

اذن فليس مما يقره عقل او منطق ان ينتظر من مثل هذا الطراز أن يرحب بالاسلام كنظام حياة ، لأن الاسلام يرفض ان لا يكون الحاكم الا بشرا ، مواطنا عاديا ليست له اية امتيازات في حياته ، ولا مخصصات بعد موته ، كما يرفض باصرار — أقصد الاسلام — ان يكون الشعب المسلم جزءا من ممتلكات الحاكم ، يتصرف فيه كما يشاء ويهوى ؛ لأن الاسلام لا يقر الحاكم الا خادما لرعيته ، وليست الرعية خدما له ••

لسنا بصدد الحديث عن المبادىء الانسانية العظيمة التي أقرها الاسلام

في مجال العلاقة بين الحاكم والمحكومة ، وهي مبادىء مجرد اثارتها تحطم الاعصاب ، وتقض المضاجع ، فيجب أن نعترف بأن الحياة عقمت ولا تزال ، وستظل عقيما ان تأتي بحاكم كأبي بكر الذي قال عندما ولي أمر المسلمين :

« أيها الناس : اني قد وليت عليكم ولست بخيركم •• فان رأيتموني على حق فأعينوني •• وان رأيتموني على شر فصدوني •• أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم •• القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له •• أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ••• !

أو تأتي الحياة بحاكم كعمر الذي قال له واحد من عامة الرعية : اتق الله يا عمر ، فأنكر البعض عليه هذه الجرأة ، كيف يقول لخليفة المسلمين : اتق الله •• لكن عمر قال للذي أنكر على الرجل ذلك : دعه يقلها ، فلا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نسمعها ••

قد يقال : ان مثل هذه النماذج قد وجدت مرة واحدة في تاريخ الاسلام ولم ولن تتكرر ، نماذج من أمثال أبي بكر وعمر بن عبد العزيز ، لأن الحكم في تاريخ الاسلام بعد ذلك تحول الى ملك عضوض •• اذن فنحن نطلب المحال اذا انتظرنا ان تجود الحياة بمثل هذه النماذج •• لأن انتظارنا سوف يكون طويلا •• وبلا نهاية • •

وبعض الحق مع من يقولون هذا •• لكن القضية قضية الخوف من الاسلام كنظام حياة : خوف بعض الحاكمين والمنحرفين من بعض المحكومين ، فالبعض من الحاكمين يقف عقبة كأداء في سبيل التفكير ••• مجرد التفكير في أن يمنح الاسلام كنظام حياة حقه •• بل جزءا يسيرا من حقه في الحياة ، اما المنحرفون من بعض المحكومين ، فلا اعتبار لهم الا اذا كان هوى الحاكم معهم ، وهؤلاء هم اصحاب مصلحة غير مشروعة

يهددها الاسلام اذا أقر كنظام حياة ، قو يكونون من حاشية النظـام الحاكم ولهم امتيازاتهم المادية والادبية بغير حق ، وقد يكونون ممن يدينون بدين غير الاسلام فبدافع من الحقد على الاسلام يرفضون شرعة الاسلام ،مع أن شريعته السمحة أصون لحياتهم من اي نظام آخر ، وقد يكونون ممن يدينون بالولاء لدولة الحادية مادية ، فهم مخدوعون يتوهمون ان احــلام شهرزاد ستتحقق لهم في ظلها ، وقد يكونون من المنحلين يريدون حياتهــم اباحية بوهيمية لا مكان فيها لضوابط الاخلاق ولا للتقاليد العريقــة الا أقرها المجتمع واصبحت جزءا من مقومات حياته ••

وأقول : هؤلاء جميعا لا اعتبار لهم ، فالمهم اتجاه النظام الحاكم ، فاذا اتجه الى اقرار الاسلام نظام حياة ، لا يقام لاعتبارهــم وزن ، واذا رفض الاسلام فلن يكون لاعتبارهم وزن أيضا ، الا في مجال الثرثرة الجوفــاء لاشباع أهوائهم ، واذا عم الطوفان الحياة ، فلا اعتبار لطنين الذبــاب أو نقيق الضفادع ••

اذن فالمهم هو النظام الحاكم ، أو بمعنى أدق « شخصية الحاكــم » نفسه ، اذا قدر له أن يكون حاكما بأمره ، فان مصلحته الذاتية تتعــارض مع الاسلام كنظام حياة ، لذلك يرفضه سافرا أو متواريا وهو مطمئن ، فهو لم يصل الى ان يصبح حاكما بأمره الا بعد ان ألغــى للشعب وجــوده ، وأصبحت كل قواه مسخرة له تلقائيا ••

حوار حدث منذ اكثر من عشرين عاما ، بين زعيم سياسي حكم شعبا مسلما بالحديد والنار في غفلة من الزمن ، واستطاع ان يدمر كل شيء ، وبين داعية من دعاة الفكرة الاسلامية التي تطالب بالاسلام نظام حياة ، وقــد اصبح الاثنان في ذمة التاريخ •• ذهب الاول في جعجعة طاحنة ، وذهــب الاخر في صمت مطبق :

سأل الزعيم الداعية الاسلامي في انفعال :

ماذا تريدون ؟

وأجاب الداعية الاسلامي في هدوء :

لا نريد الا الاسلام نظاما للحياة ، فنحن دولة مسلمة ، دينها الاسلام بنص الدستور ، وشعبها مسلم بمقتضى الواقع ، وتاريخها هو امتداد لتاريخ الاسلام منذ ان بدأ • •

ــ ماذا نعمل في الاجانب ؟

ــ اعتقد ان عصر الامتيازات قد ولي منذ أمد ولن يعود ، ونحن دولة مستقلة ، وما داموا خاضعين الان للدستور والقانون الوضعيين ، فمن باب أولي ، يجب ان يخضعوا لشريعة الاسلام وهي اكثر سماحة •

ــ وماذا نفعل في الاقليات غير المسلمة ؟

ــ لا جدال في الاسلام يعطف تماما على اتباع الاديان السماوية ، وما اكثر شواهد التاريخ ، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا دون ادنى مساس بعقائدهم ، ونظرة سريعة الى الاقليات المسلمة في اوروبا المتحضرة ، حيث لا اعتراف بالاسلام هناك ، وتخضع في احوالها الشخصية لقوانين الدول المدنية ، تجعلنا نكبر قيمة الاسلام الذي لا يقر أي تعصب ديني ، بل ان في القرآن قواعد انسانية تقرر العدل حتى مع الذين لا يدينون بدين فضلا عن اتباع الاديان السماوية التي يحترمها الاسلام • وحسبنا آن نقرأ قوله تعالى : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) •

ــ أليس محتملا ــ اذا نحن أعلنا أننا دولة اسلامية تحكم بكتاب الله ــ ان تجد الدول الاجنبية مبررات للتدخل بحجة حماية الاقليات ؟

ــ ان الدول الاجنبية ولا سيما الاستعمارية ، طالما تدخلت في شؤون الدول العربية والاسلامية بمبررات ليس من بينها الاسلام ، ومع ذلك فلن يكون امامنا الا الجهاد دفاعا عن استقلالنا ، وسوف يكون جهادا مقدسا ،

ونحن شعب مكافح ، مناضل بطبيعته ، بالاضافة الى ان احتمال تدخل اجنبي في شؤون دولة مستقلة احتمال بعيد ، فنحن في عصر يحاول الاستعمار في كل مكان ان يصفي اعماله في مستعمراته ويحمل عصاه ويرحل الى غير رجعة ...

ــ وماذا سيكون الموقف تجاه الحاكم مثلا ؟

ــ الحاكم في نظر الاسلام ليس الا راعيا مسؤولا عن رعيته ، ومن حق الرعية ان تكفل لها حياة العزة والرخاء ، ولها حقها في الحرية والكرامة، وما دام الراعي امينا يقدر مسؤوليته ، ويلتزم في كل سلوكه بالمبادىء التي أقرها الاسلام في غير عنت ، فله من الرعية ــ لا حق الطاعة وحسب ــ بل حق التأييد والمؤازرة ايضا .. والا ...

ــ ماذا تعني بكلمة .. « الا » هذه ؟

ــ أعني ان يكون من حق الرعية أن تنزع يد الطاعة له ، وتولي من يصلح سواه ..

ــ اذن ستثيرون فتنة اهلية وخيمة العواقب ..

ــ وأية فتنة أوخم عاقبة من ان يحكم حاكما حكما مطلقا ، ويفرض على الشعب ان يكون ادنى حياة من حياة السوائم .. ؟

ــ أليس من الاوفق للدين ان يكون بمعزل عن السياسة ؟

ــ اذا كنتم تقصدون بالدين « الاسلام » فلا ، لأن طبيعة الاسلام الذي ارتضاه الله لعباده ، ان يكون دينا ودولة ومصحفا وسيفا ، انه نظام حياة متكامل ، وليس المسلمون كأهل الكتاب ، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ..

ــ اذا كان الامر كذلك ، فلم لم يحمل هذه الدعوة رجال الدين مثلا ؟

ــ تقصد « علماء الدين » ؟ فليس في الاسلام رجال دين .. أي ليس

فيه كهنوت ، وقد جرت ألسنة العامة عندنا على ان تطلق « رجال الدين » على مشايخ الطرق الصوفية ، وهؤلاء بالطبع لا مكان لهم الآن في هذه المناقشة ، أما كون علماء الدين مقصرين ، فليس تقصيرهم مما يقوم دليلا على صحة الدعوة التي ندعو اليها ، ولا تنس ان علماء الدين في كل بلد اسلامي صاروا موظفين لدى الدولة ، كل همهم أن يحافظوا على مناصبهم .. وكفى ، والاسلام دعوة من حق كل مسلم ان يحملها الى الناس كافة ، ما دامت ثقافته او قدراته تؤهله لذلك « والثقافة الاسلامية ملك للجميع » .

ـ أتريدونها خلافة اسلامية اذن ؟ ان تاريخ الخلافة الاسلامية مشحون بما يسيء الى الاسلام ، لذلك حين ألغاها الزعيم « أتاتورك » فانما خدم الاسلام ، بل في الواقع أنقذ سمعة الاسلام ...

ـ من قال : اننا نريدها « خلافة اسلامية » ؟ انه لا يهمنا شكل الحكم ومظهره ، وانما يهمنا جوهر الحكم ، وجوهر الحكم ان يكون الاسلام نظام حياة لنا ، هذا كخطوة اولى ...

ـ أهناك اذن خطوات اخرى ؟

ـ يفهم بنا أن نصحح مفهوما خاطئا ، عن الخلافة الاسلامية التي أثرتموها في حديثكم ، فالخلافة الاسلامية أدت دوراً كبيرا يسجل لتاريخ الاسلام والمسلمين كل فخر ، وذلك عندما كان الحكم سليما نظيفا ، والشعوب المسلمة شعوبا حية قوية ، والخلافة العثمانية التي تقصدها بالطبع كان لها دور طليعي الى حد ما ، وعندما دب الفساد في أجهزة الحكم لضعف الشعوب المسلمة واستسلامها للهوان والضياع ، هوت الخلافة العثمانية الى الحضيض ، بعد ان وجدت اليهودية العالمية فرصتها لتقويض عرش الخلافة ، لا خدمة للاستعمار الصليبي الذي اعانها ، بل خدمة لمآربها الذاتية التي خططت لها لا منذ ان انعقد مؤتمرها الاول في سويسرا عام ١٨٩٧ م بل قبل ذلك بكثير . وكل ما كانت تهدف اليه الصهيونية العالمية

هو ان تصبح الشعوب الاسلامية ــ لا العربية وحسب ــ شعوبا ضعيفة واقعة تحت سياط حكومات فاسدة ، لتجد فرصتها وتنقض علــى ارض فلسطين العربية الاسلامية ، لتقيم عليها أول وطن قومي لها ، وكان لها ذلك منذ سنوات معدودة ..

أما « أتاتورك » الاسطورة الكاذبة ، فلم يكن الا عميلا مسخــرا ولعبة مفضلة لدى الصهيونية العالمية والصليبية المتحفزة ، وقد حقق لهما حلما لم يكن يراود حتى خيالهما معا ، ثم ماذا كانت النتيجة في النهاية ؟ كان ان أصبحت تركيا المسلمة دولة تدور فيفلك الاستعمار الصليبي وذنبا من أذنابه ..

ــ لكنكم لم تجيبوا عن تساؤلي : أهناك خطوات اخرى ؟

ــ ان لدولتنا مركزا مرموقا وتاريخا مشرقا ، فاذا تم لها ان تصبــح دولة مسلمة شكلا وموضوعا ، كان عليها أن تسعى جادة الى ضم شمل الشعوب العربية ، باعتبار المنطقة العربية من الاسلام ومرتع شبابه ، لتكون هذه الوحدة العربية منطلقا الى وحدة اسلامية شاملة ، ليس شرطا انتكون هذه الوحدة الشاملة وحدة سياسية متكاملة منذ البداية ، وانما يكفي ان تكون اولا وحدة في الأحاسيس والمشاعر ، حتى تتهيأ الشعوب المسلمــة لوحدة سياسية تجمع شملها وتذود عن مصالحها .. واذا كان للوحــدة العربية مقوماتها من اللغة والبيئة والمصالح المشتركة ، فان للوحدة الاسلامية مقوما أساسيا هو العقيدة ثم الآمال المشتركة ايضا .

ــ ألا تحسون معي بأنكم خياليون اكثر مما يجب ؟

ــ لا تنسوا انني رجل من رجال القانون ، ورجال القانون أبعــد ما يكونون عن الخيال ..

ــ اذن ماذا سيقول العالم المتحضر عنا اذا نحن استجبنا لكم ، فقمنا

على دور « السينما » والمسارح فأغلقناها ، وعلى المصارف وبيوت المـال فعطلناها ، وعلى الاذاعة فألغيناها ، و ••• لن يقول العالم عنا الا اننا قررنا ان نعود ببلادنا الى عصر الابل والخيل ••• !

ــ رويدك يا سيدي ، ان الاسلام لا يقف عقبـة في طريق الفـن الأصيل ، ولكنه عقبة ــ ويجب أن يظل عقبـة أمام الفن الرخيص ، كلما نريده ان ينتج المنتجون افلاما نظيفة هادفـة ، وان يخـرج المخرجون مسرحيات جادة لا تهبط بنا الى الحضيض ، ولا مانع من الترفيه الـذي لا يهبط بالمستوى الاخلاقي الى مستوى اخلاق العوالم • وهل من المعقول ان يطالب عاقل بالغاء الاذاعة والصحافة مثلا ، وهما وسيلتان مهمتان من وسائل الاعلام في كل دولة ؟ لكن من حق اي عاقل بأن يطالب الاذاعـة والصحافة أن تسمو على الاسفاف الذي أتخمتنا به •••

ثم لنفرض ان العالم بأسره يسير في المصارف وبيوت المال علـى أساس من الربا ، فماذا يضيرنا ان نوجد لأنفسنا نظاما ماليا يسقط الربا من الحساب ، فاذا عجز الاسلام عن ايجاد مثـل هذا النظام ــ ولا أظن ذلك ــ فلتسر الدولة كما تحب •••

أما عصر الابل والخيل الذي أشرت اليه ، فلم يكن عصرا متخلفا في زمانه ، والامبراطورية الفارسية كان لها شأنها ، وليس يعيبها ان عصرهـا كان عصر الافيال مثلا ، ومع ذلك فعصر الابل والخيل وتعني به سيادتكم فجر الاسلام ، فقد استطاع ان يفتح مشارق الارض ومغاربها بعد ما أزال ــ أو كاد ــ من الوجود اكبر امبراطوريتين عرفهما التاريخ ، وهما فارس والروم ، وعصر الابل والخيل منه انبثق نور المعرفة الذي أضاء اوروبا في عصرها الوسيط المظلم ••

ــ أعتقد انه يجب ان نكتفي بهذا القدر من الحوار •• على الاقل الان ••

ـ بل أعتقد انه لم يبق من الحوار شيء ، فقد وصلنا الى نهاية طريق مسدود •• !

* *

حوار حدث ليس فيه من المبالغة شيء ، بل فيه من الايجاز الذي لا يتسع المقام هنا لبسطه ، ليس هذا وحسب ، بل لأن في الحوار كلاما يثير كثيرا من الضحك • والحقيقة الكامنة التي نريد ابرازها هنا ، هو ان العقبة الكأداء في طريق أي تفكير في أن يصبح الاسلام نظام حياة ، هي الزعامات التي جاءت على غفلة من الزمن ، هذه الزعامات لم تكن وليدة الظروف كما يتوهم البعض ، بل انها أعدت على أعين الاستعمار لتؤدي مهمته خير أداء ، وربط بقاءها في مراكزها بمدى اخلاصها للمهمة ، وتفانيها في تحقيقها •

والحقيقة المرة هي ان الزعامات التي صنعت على أعين الاستعمار لا ترفض الاسلام نظام حياة لأنه سيعود بالبلاد الى عصر الخيل والابل كما تفتري ، وانما لأن الاسلام سيهدد مصالحها في ان تبقى حاكمة بأمرها حكما مطلقا ، يقوم على السيف والسوط والسجن بالنسبة للشعوب التي تحكمها ، كما يقوم على الذهب والفضة بالنسبة للاقلام التي تخشاها من خارج بلادها • •

لا أظن ان هذه الزعامات ترحب بالاسلام الذي يرفض الطبقية المجحفة ، والنزعة الارهابية المسلطة ، والذي يجعل من حق اي مواطن ان يصيح في وجه الحاكم : انت مخطىء ، أو يقول له : لا سمع ولا طاعة لأنك ميزت نفسك وحاشيتك على سائر المسلمين » •

رأى عمر رضي الله عنه ابلا ترعى مع ابل الصدقة ، فأعجبته ، فسأل الرعاة :

ـ لمن هذه الابل ؟

ـ انها لعبدالله بن عمر ••

ـ من هو عبدالله بن عمر ؟

ـ انه ابن أمير المؤمنين ؟

ـ ما شاء الله ! تقولـون هذا ابل ابن أمير المؤمنين •• فلنرعهـا أحسن الكلأ ، ولنسقها أعذب الماء •• علي بعبدالله ••

ـ بكم اشتريت هذه الابل يا عبدالله ؟

ـ بكذا وكذا ••

ـ فلتضم الى ابل الصدقة ولك ثمنها من بيت المال ••

ولم يستطع عبدالله بن عمر ان ينبس ببنت شفة •• وأطاع ••

يا حول الله ويا قوته !

ان ترك ابل ابن امير المؤمنين مع ابل الصدقة ترعى معها لا يكلـف الدولة شيئا ، فالكلأ والماء مشاع للجميع ، ولكن حساسية عمر في تحرك العدل •• والمساواة •• جعلته يحرص بل يصر على ان لا يترك منفذا لعين تغمز ولا للسان يتطاول ••

فاذا نحن رأينا كيف يعيش ابناء الحاكمين بأمرهم حياة الترف التي تتواضع أمامها حياة ابناء الاباطرة والكياسرة •

واذا نحن قرأنا ان تكاليف نفقات الزفاف لاحد ابناء ملك راحـل بلغت مليونا من الجنيهات حيث اقيم حفل الزفاف في فندق « هيلتون » ببلد اوروبي ، ودعيت ممثلة عالمية لتكون ضيفة الشرف في الحفل ••

واذا نحن قرأنا ايضا ان اميرا عربيا تزوج شقيقة لاحدى الممثـلات الجميلات ، فقدم لها « شبكة » خاتما بسبعة عشر الفا من الجنيهات ،وكتب لها كمؤخر للصداق ستين الفا من الجنيهات ، وفي الليلة الاولى ـ قبـل

ان يلمسها تركته على سريره بأفخم الفنادق في عاصمة عربية لتحضر له زجاجة « ويسكي » وعادت بعد لحظات لتجده قد فارق الحياة ..

.. واذا نحن قرأنا بعد ذلك ان عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ بلغه ان ابنا له يلبس خاتما ثمنه الف درهم ، فكتب اليه :

« بلغني انك تلبس في اصبعك خاتما ثمنه الف درهم ــ عشرة جنيهات يومها ــ فأنصحك ان تبيعه وتطعم بثمنه الف جائع ، ثم التمس خاتما من حديد واكتب عليه : « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » ... حسبنا ان نلتزم الصمت .

في كلية الاقتصاد ــ كنت في لقاء ــ في بداية الاسبوع الرابع من يناير ٩٧٤ ــ مع الجماعة الدينية ، وذلك بمناسبة احتفال الجماعة بذكرى الهجرة النبوية ــ على صاحبها أفضل الصلاة واكمل التسليم ، وأنا من الذين يرحبون بالرد على اسئلة الشباب أيا كان لونها ولون صاحبها أو موجهها ، وكان ان وقع بيدي سؤال لا اظن موجهه الا ماركسي التفكير ، والسؤال والتساؤل يقول : أليست العدالة والمساواة في الاسلام نظريا ، ولا أثر للتطبيق في مسار التاريخ الاسلامي ؟ ولم أدهش لمثل هذا السؤال أو التساؤل ، فاما ان يكون موجه السؤال لم يقدر له ان يعرف شيئا عن الاسلام ولا عن تاريخ الاسلام ، واما ان يكون ممن يرد كالببغاوات ما يتقول به الماركسيون الذين يتهمون الاسلام بأنه دين اقطاعي ، وأود أن أشير هنا ، الى ان العدل الاجتماعي في النظرية الماركسية وكذلك المساواة ليستا الا حبرا على ورق ، وهي ليست الا تفكيرا قائما على الحقد الطبقي .. وأي عدل .. وأية مساواة .. اذا اصبح الشعب أدوات مسخرة لا تملك من امرها شيئا ، لأن الدولة هي التي تملك كل شيء وفي مقدمة ذلك الشعب ..

وحتى اذا نجحت الماركسية او من لف لفها فادعت انها تحقق العدالة

في لقمة العيش ، فهل هذه العدالة كل شيء بالنسبة للانسان ؟ هذا اولا ، وثانيا : هل تستطيع الماركسية أن تدعي ان للحرية السياسية وحريةالرأي مكانا ؟؟ أقول : مجرد التعبير عن الرأي فضلا عن حرية النقد •• لقد كان فيما مضى •• في عصور الاقطاع ، ما يطلق عليهم : « رقيــق الارض » والتاريخ يعيد نفسه اليوم ، لأن الشعب في اية دولة ماركسية جدير بـأن يطلق عليه « رقيق الدولة » ••• والعجيب ان الدول الماركسية تطلق على نفسها شعارات منها : « دولة كذا •• الديمقراطية » ويبـدو ان مفهوم الديمقراطية لديها ، ليس « حكم الشعب لنفسه » وانما حكـم انظمـة مستبدة للشعوب تعيد الى الاذهان عهود الاباطرة والاكاسرة •••

وأعجب من هذا ، ان الماركسيين مثلا يبيحون لأنفسهم حقا مشروعا لهم وحدهم في نقد أي نظام لا يدين بالولاء ، بل في القاء التهم جزافـا على كل كاتب تحدثه نفسه ان يدعو لدينه ومعتقداته ، اما اذا فكر في ان ينقد أنظمتهم ، فهو في نظرهـم : ليس رجعيـا وحسب ، بل هو عميـل للرأسمالية والاقطاع وللمخابرات المركزية الامريكية •••

فاذا لم تتسع الديمقراطية لحرية الرأي والنقد ، فأحـرى بها انهـا ديمقراطية مزعومة لا تساوي شروى نقير •• أذكر ان احد « اللوردات » في لندن نشر نقدا لاذعا وجهه الى ملكة بريطانيا منذ سنوات بمناسبـة كلمة ألقتها الملكة في افتتاح مجلس العموم ، وكان مما قاله عنها : ان ثقافتها لا تزيد على ثقافة مدرسية في رياض الاطفال ، وان صوتها منكر لا تستريح اليه الآذان •

ان الدنيا لم تقم وتقعد في بريطانيا او حتى في العاصمة لندن ، لأن أحد اللوردات هاجم الملكة التي لها قداستها في نفوس الشعبالانجليزي•• صحيح ان الاذاعة هناك ردت على اللورد في أدب جم ، لكـن مندوب

« التليفزيون » رجاه ان يتكرم بالرد على الذين ردوا على نقده ، واكثر من ذلك ان احدى الصحف البريطانية الكبيرة ، وأحسبها « المانشستر جارديان » أجرت استفتاء بين الشعب البريطاني في هذه المسألة وكان أن أيد اللورد زهاء اربعين في المائة ..

فهل سمعنا في اي نظام يساري ان تجرأ واحد فأبدى رأيا معارضا لاتجاه النظام ؟ ان الارهاب يعقد الالسنة ، حتى اصبح مجرد التفكير في معارضة النظام امرا مستحيلا ، بل من رابع المستحيلات كما يقولون ..

ليس هذا وحسب ، بل ان احدا في ظل النظام اليساري ، لا تواتيه الجرأة حتى في الرؤى ، ليبدي رأيا يمكن أن يشتم منه رائحة التعاطف نحو نظام يعارضه اليسار أو لا يرضى عنه ، فالديمقراطية المزعومة في اليسار هو ان يعلن الفرد ويسر ايضا ولاء اعمى للنظام ، وان يظل حياته — اذا تجاوزنا واعتبرنا حياته حياة — يردد كالببغاء شعارات براقة فضفاضة كالسراب اذا جئته لم تجده شيئا .. فاذا شاء حظك ان لا تكون يساريا ، فأنت اذن — صاحب فكر أم حامل قلم — اما رجعي واما «امبريالي»، وكلتا التهمتين تصمك بالخيانة ، والخيانة في مفهوم اليسار هو أن لا تكون يساريا ، وكلمة « الامبريالية » ربما كان لها مفهوم ليس فيه كثير من الالتواء ، أما كلمة «الرجعية» وهي صياغة مستحدثة أيضا كالامبريالية — تفتقت عنهما معا عبقرية اليسار ، فلها اكثر من مفهوم لدى اليسار وغيره ، وهي في ذهن اليسار تعني الرجوع الى الدين والتمسك به ، اما على لسانه، فتعني مفاهيم اخرى تناسب المقام — ولكل مقام مقال — كما يقولون ..

كنت في لقاء مع الجماعة الدينية بكلية التجارة ، في جامعة القاهرة في ٢٨ — ١ — ١٩٧٤ ، وكان ان وجه الي سؤال يساري ، كان الحديث عن « الحرية في الاسلام » اما السؤال ، فهو « ألا تتعارض التكاليف الشرعية في الاسلام مع الحرية ؟

سؤال ساذج من شاب ربما كان يساريا ملقنا ، او مسلما سمع هذا التساؤل على لسان يساري ملقن ، والحق ان اشتغالنا بالاجابة عن مثل هذا السؤال يعتبر مضيعة للوقت ، فالتكاليف الشرعية التي يقصدها السؤال : هي الصلاة والزكاة والصيام والحج ، اما الصلاة والصيام والحج ، فهي تكاليف تتصل بالفرد المسلم مباشرة ، ان أداها كان خيرا ، وان لم يؤدها فجزاؤه عند الله في الاخرة ، وجميعها يهدف الى تربية الفرد المسلم تربية ذاتية ليكون اهلا للانتماء للعقيدة التي ارتبط بها ، وليكون لبنة سليمة في بناء مجتمع قوي ، وليس في تشريع الاسلام اكراه للمسلم على الاستجابة لهذه التكاليف ، وليست ايضا هناك عقوبات دنيوية مقررة لمن يتخلف عنها ، واذا كان الفقهاء يرون تعزيز المجاهد بالافكار في نهار رمضان ، فلتمد به مشاعر المجتمع المسلم الذي ينتمي اليه ..

وأما الزكاة فهي تكليف لا يتصل بذات الفرد وحده ، بل بالمجتمع أيضا ، لأن الزكاة حق المال ، والمال حق المجتمع ، والاكراه عليها لا يتعارض مع الحرية الشخصية للفرد ، والا كانت سائر القوانين الوضعية والدساتير ايضا تلك التي تحكم الشعوب متعارضة مع الحرية الشخصية للفرد ، وهذا ما لا يقول به عاقل في الوجود ..

ولست ادري اي مكان للحرية الشخصية في الانظمة اليسارية ، فالفرد في هذه الانظمة لا يملك من امره شيئا ، وخروجه عن النظام الذي يتضمن مئات النصوص يجعله خائنا مستوجبا لأبشع العقوبات .

* *

ولنعد من حيث بدأنا ...

فنحن لا نزال بصدد ايجاد تفسير لهذا التساؤل :

لماذا يخافون الاسلام ؟

انه من الطبيعي ان يخشى اليسار الالحادي المادي الاسلام ــ نظام حياة ــ لأنه ــ اي اليسار ــ يجد في الاسلام الصحيــح عقبــة كأداء في طريقه ، واذا كان كل ما يهدف الفكر الماركسي اليه ــ في ظل شعاراتــه البراقة ــ هو تحقيق العدل الاجتماعي ، فلا نظنه يجرؤ على انكار دور الاسلام الصحيح في اقامة مجتمع يتوافر لديه العدل الاجتماعي المثالي ، والفرق بين الاسلام والماركسية ، ان الاسلام يقيم العدل الاجتماعي على اساس من العقيدة الدينية التي هي جزء من كيان الفرد والمجتمع علــى السواء ، ووسيلته تربية الضمير الذي يستمد وجوده من العقيدة الدينية بلا ضغائن وبلا احقاد على اساس من الضغط والاكراه ، والشعارات البراقة ، واثارة الاحقاد والضغائن واراقة الدماء احيانا ، والدولة الممثلــة في النظام الحاكم في الماركسية هي كل شيء ولا وجود للشعوب الا باعتباره آلات مسخرة ، ، بينما الشعب في الاسلام هو كل شيء ، والحكومــة مسخرة لخدمته ...

وأعتقد ان حديث رسول الله ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ الذي لا يتطرق اليه أدنى شك في صحته ، وهو : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .. فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته .. » . في هذا الحديث المتفق عليه ، تعددت المسؤوليات ، الا انه بدأ بمسؤولية الراعي الممثــل في حاكم الامة ، لاهميتها ، فهذه المسؤولية لا تجعل منه مستبدا برأيه ، ولا حاكما بأمره ، ولا نصف اله مكانه فوق القانون وفوق الدستور . وانما تجعل منه خادما لرعيته ، ولعل الكلمات الاولى التي وردت علــى لسان أول حاكم بعد الرسول ، وهو أبو بكر ، في أول خطاب له وجهه الى المسلمين يؤكد هذا المعنى :

« أيها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم .. » .

أقول مرة اخرى :

انه من الطبيعي ان يخشى الفكر الماركسي الاسلام كنظام حياة ، ويسعى جهده ــ لا لعزله عن الحياة ــ وحسب ، بل لالغائه من الوجود جملة وتفصيلا ، واذا كان الاتجاه الماركسي الجديد ولا سيما ــ بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد تسلله الى منطقة الشرق الاقصى والادنى اللتين يمثل الاسلام فيما اغلبية ساحقة ــ قد رأى المهادنة ــ في خبث ــ مع الاسلام ، فليس معنى هذا انه قد تنكر لأصله ، وهو العداء الكامن للاسلام في ضميره ، ومن السذاجة ان ننسى ان الفكر الماركسي انما هو فكر يهودي قبل كل شيء ، او بمعنى أدق ــ فكر صهيوني خبيث في مضمونه ــ وان جاء أصطلاح « الصهيونية » متأخرا ..

والسر في هذا التحول الى مهادنة الاسلام ، انما يرجع الى ان الصدام المباشر مع الاسلام قد يعوق مسار الماركسية التي ستواجه شعوبا لا تزال متشبثة بعقيدتها ، وما حدث من اصطدام مباشر في العراق عام ١٩٥٨ ، وفي اندونيسيا اواخر عام ١٩٦٥ ، كان ــ ولا شك ــ درسا للماركسية ، لذلك أثرت الماركسية ان تتسلل الى المناطق الاسلامية بنفوذها عن طريق الخدمات ومعاهدات الصداقة ليكون لها نبت من الشباب المسلم نفسه ، يكون بمثابة عملاء لها ، يمكنه ان يقوم بدور فعال ان قريبا وان بعيدا ..

ولما كانت لفظة « الشيوعية » من الالفاظ المنفرة التي تنفر منها الاسماع ، وعلى الاخص اسماع المسلمين ، فقد تحول هذا اللفظ المنفر الى لفظ اخر ، هو الاشتراكية ، ليجد من المسلمين قبولا ، وليجد من علماء الدين انفسهم ، ومن المفكرين الاسلاميين من يقول : ان الاسلام دين الاشتراكية ، بل ان عالما من علماء الازهر ، كان استاذا في كلية الشريعة ، قال في « التليفزيون » ذات مرة : « ان الاسلام لم يجيء الا ليمهد للاشتراكية . وما دام النظام الحاكم في أي بلد مسلم رفع لافتة ضخمة

اسماها بسذاجة « الاشتراكية » فلا مانع لدى علمـاء الدين والكتـاب الاسلاميين ان يحولوا الاسلام ليكون خادما لهذا الشعار .

وكان من المضحك ان مؤلفا أصدر مجموعة من الكتب ، بدأها بكتاب اطلق عليه « اشتراكية محمد » ثم « اشتراكية ابي بكر » ثم « اشتراكية عثمان » ثم « اشتراكية علي » ولست ادري اذا كانت سلسلة كتبه قد وصلت أم لم تصل بعد الى « اشتراكيـة ... قنصـوه الغـوري » و « اشتراكية .. علي بك الكبير » .

ويبدو ان الاتجاه الماركسي في تحوله الجديد .. المهادنة مع الاسلام ــ حريص على العنجهية في صلف مصطنع ، فمع انه صاحب المصلحـة في هذه المهادنة ، الا انه يحرص على ان يبدو متفضلا متنازلا عن بعـض كبريائه ، فأنا اذكر ان كاتبا يساري القلم ، تافها الى أبعد حدود التفاهة ، فلا طعم لفكره ، ولا لما يكتب ، ولا داعي للاشارة الى ذكر اسمه ، لا لانه من التفاهة بمكان ، وحسب ، بل لانه الان يعيش في الظل ، وأيضا لاننا لا نعرفه الا كاتبا محترفا مهينا رخيص التفكير ...

هذا الكاتب توهم نفسه ذات يوم امبراطورا فاتحا ، اصبحت نواصي الامور كلها بيده ، وقد دانت له الارض ومن عليها بالولاء والطاعـة ، وتمكن من ان يضع الوطن في اقفاص من فولاذ ، وبدافع من الغرور ، تساءل الامبراطور المتسلل عما اذا كان في الامكان ان يعيش الوطن المقهـور مسالما في ظل سيادة هذا الامبراطور ..

هكذا تساءل الكاتب في جريدة تسلل اليها ، او اريد ان يتسلل اليها حثالة من محترفي اليسار ، تساءل :

« هل يمكن للاسلام ان يعيش في ظل الشيوعية » .

أجل ، هكذا تساءل الكاتب ، وبالطبع كان كريما غاية الكرم مع الاسلام الذي اصبح غريبا في دياره ، فأعلن في تواضع جم يمتزج بالغرور أيضا ، ان هذا ممكن ، ممكن ان يعيش الاسلام في ظل الشيوعية ، لكن كيف يعيش ، المهم ان يعيش .. وكفى .. فالشعب المغلوب على أمره يعيش ايضا في ظل السيطرة الاستعمارية ، ولا يهم : كيف يعيش ؟ المهم أنه يعيش وكفى ..

ليس هذا وحسب ..

فان كاتبنا الكبير والكبير جدا ، أراد ان يوهم نفسه لا ان يوهم غيره ، لان مثله لا يستطيع الا ان يوهم نفسه ، فدعا في مقال اخر الى حوار مفتوح بين الفكر الماركسي والفكر الاسلامي ، وبالطبع سيكون الكاتب ومن على شاكلته ممثلين للفكر اليساري ، اما الطرف الاخر ، فلا يهم من يمثله ، وما المانع من ان يمثله ايضا بعض من هواة الالتصاق بالفكر الاسلامي ، أمثال ذلك الاستاذ بكلية الشريعة الذي قال في «التليفزيون» ان الاسلام لم يجيء الا ليمهد للاشتراكية ، أو حتى لفيف من اصحاب الفكر الصليبي الذين فتحت لهم الاهرام ذراعيها مع اشقائهم من اصحاب اليسار ...

كنا نقرأ مثل هذا الغثاء أو الغثيان ، ونحن وراء الاسوار ، نضحك بملء افواهنا ، وشر البلاء ما يضحك .. كما يقولون ..



وهؤلاء الذين أفزعهم النصر في اليوم العاشر من رمضان .. !

ما اكثر ما يصطدم الانسان بالحقيقة المرة ، البالغة مرارتها الحد الاقصى ، وهذه الحقيقة المرة ، تتلخص ، ان بعض من وصلوا الى مراكز

أدبية او اجتماعية مرموقة ، لا يحس من حوله بأي شيء ، لانه ركز كل احاسيسه على ذاته ، فاذا كتب شيئا او قال شيئا ، ينسى انه ليس في مجتمع المجاذيب ولا اقول : المعتوهين ، ولا يكاد يذكر ان في مجتمعه عقلاء يمكنهم ــ وهذا حقهم ــ ان يسخروا مما يكتب أو مما يقول ..

فعلى الرغم من انه أعلن على الملأ ، ان الدولة في عهدها الجديد تقوم على العلم والايمان ، لان العلم والايمان توأمان يجب ان لا ينفصلا ، لا في وقت السلم ولا في وقت الحرب ، وان كان اتحادهما وتعاونهما في وقت الحرب ، يصبح من الحتميات التي لا تقبل مجرد التفكير في المناقشة ، الا أن هذا البعض الذي أعنيه يتجاهل هذه الحقيقة ، ويعز عليه أن يكون لها شأن حتى في وقت العسرة ، ويبدو ان هذا البعض يحس بمركب النقص في تفكيره لذلك يحرص على ان يخرج على الناس برأي شاذ يعتمد على السفسطة ، وهو واثق من انه رأي مثير ، وهو اكثر وثوقا من ان الفرصة سوف تتاح له وحده للدفاع عن رأيه ، ولن تتاح لغيره للرد عليه الا بالقدر الضئيل ..

وقبل ان نعرض لصلب الموضوع ، يحسن بنا ان نشير هنا اشارة عابرة الى مسألة ليست فرعية ، لانها هي المقوم الاساسي في القضية ، اننا نقرر اولا : انه لا يوجد مسلم عاقل يرى ان سلاحنا في معاركنا ضد العدو يجب ان يكون قاصرا على الايمان والايمان وحده ، لان مثل هذا المسلم ــ اذا وجد ــ يعتبر جاهلا لمقررات القرآن التي لا جدال فيها ، فالقرآن يقرر :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ..) .

وقد ترك القرآن لفظة القوة مبهمة ومطلقة في آن واحد ، لان نوع

القوة قابل للتطور في مستقبل الحياة ، وحتى لا يتوهم متوهم ان المقصود بالقوة هو الايمان ، وليس القوة المادية ، فقد خص بالابراز نوعا من القوة المادية ، كان في وقتها عصب الحرب ، فقال ، ومن رباط الخيل ... »

وأيضا ..

لا يوجد مسلم عاقل يقول : بأن النصر في المعارك يجب أن ينسب الى الايمان وحده ، او كما يقال : « الى الغيبيات » دون اعتبار للقوة المادية أو بمعنى أدق ، للتقدم العلمي في الاسلحة الحديثة ، لان مثل هذا المسلم ــ ان وجد ــ يكون جاهلا للاسلام جهلا مطلقا ، فيصبح لا مبرر لان يقول القرآن : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أو يقول : « انفروا خفافا وثقالا .. وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » ولكان أحرى بالقرآن أن يوجه المسلمين في جهاد أعدائهم ، الى أن يقيموا حلقات ذكر في ساحة المعركة ، أو أن يكمنوا في المساجد ، يقرأون القرآن وصحيح البخاري ، تاركين الاعداء يحيطون بديارهم من كل جانب .. ولكان من نافلة القول ، أن يشير القرآن في أكثر من آية الى مكانة الشهداء في سبيل الله ، أولئك الذين بذلوا دماءهم في ساحات المعارك ..

وأنت حين تقرأ قوله تعالى :

(وان يريدوا أن يخدعوك .. فان حسبك الله ، هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) .

ثم قوله تعالى :

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ..) .

فهل يخامرك أدنى شك في أن للقوة اعتبارها في احراز النصر ، القوة المادية والقوة المعنوية ؟

اذن ، فلماذا هذا الضجيج الذي يثيره واحد من أساتذة الجامعات عندنا ؟ وعلى صفحات جريدة الاهرام التي أصبحت تمثل امبراطورية

مستقلة على الدولة، على رأسها امبراطور متوج بغير تاج على رأسه (*)، فقد كتب الدكتور فؤاد زكريا استاذ الفلسفة بآداب عين شمس في ١٨/١١/١٩٧٣ مقالا على صفحات الاهرام تحت عنوان : « معركتنا والتفكير اللاعقلاني » فيه كثير من التحدي لمشاعر الشعب ، ونحن لا يهمنا ــ بالطبع ــ الى أي فكر ينتمي الدكتور فؤاد زكريا ، سواء أكان مستوردا يدين كل كيانه بالولاء له ، أم فكرا ذاتيا بحكم مهنته كأستاذ للفلسفة في احدى جامعاتنا ، وانما يهمنا ما جاء به قلمه ، وما حواه جود قلمه من مغالطات وتحديات، مغالطات باعتباره استاذا للفلسفة، وتحديات لانه يستند الى قوة امبراطورية الاهرام وحماية امبراطورها الاستاذ محمد حسنين هيكل ، الذي ضم الى امبراطوريته أقلاما شرقية وغربية أو يسارية وصليبية تدرك أن لها رسالة قلمية تطفح أقلامها حقدا على الفكر الاسلامي وتراثه دون ما شيء من حياء أو مبالاة ، لان من ورائها حماية يحسب لها الف حساب .

ولتقرب المسألة الى الاذهان :

ففي نشوة النصر التي بدت في معركة العاشر من رمضان ، ازدهرت فكرة الايمان الصادق بالله عز وجل على ألسنة الرأي العام المؤمن بربه ، باعتبار أن هذا الايمان الذي تجلى في قلوب جنودنا وأرواحهم ، كان عاملا بارزا من عوامل النصر العظيم في المعركة ..

والمعروف أن النصر العظيم كان مفاجأة كبرى غير متوقعة أذهلت الرأي العام هنا كما أذهلت الرأي العام العالمي ، حتى بدا النصر كما لو كان احدى المعجزات الخارقة للعادة ، وكان من الطبيعي ازاء هذا أن ترتفع

(*) واخيرا سقطت امبراطورية هيكل ، حيث صدر قرار جمهوري في أول فبراير ١٩٧٤ بنقله من الاهرام ليكون مستشارا صحفيا للسيد رئيس الجمهورية .

الروح المعنوية في ظل الايمان بالله الذي يصنع وحده المعجزات الخارقة ، وأن تبالغ ألسنة بعض العوام في التعبير عن هذه المعجزة الخارقة في زحمة النشوة الكبرى بالنصر ، وكان لهذه الألسنة عذرها ، وهي ترى مؤلفي الاغاني الشعبية ــ وهم مثقفون بالطبع ــ يسهمون بكلمات تجلى فيها الايمان بالله عز وجل، وكانت هذه الظاهرة صدمة للعقلانيين الذين يدينون بالولاء للفكر اليساري الالحادي ، أو يدينون بالولاء لذواتهم باعتبارهم عقلانيين ، يجب أن تكون لهم دولة داخل الدولة ارضاء لغرورهم ، ومثل هذه الظاهرة ــ ظاهرة الايمان بالله عز وجل ، تقض عليهم مضاجعهم ، لانها تفسد مخططاتهم ، وتحول جهودهم العقلية الى هباء ، أو ذرات من الرماد .. لذلك قرروا أن يطلوا برؤوسهم من القماقم ، لعلهم يستطيعون أن يعكروا صفو هذه الظاهرة الطيبة ، أو يقللوا من أهميتها ــ على الأقل ..

يقول الدكتور فؤاد زكريا في مطلع مقاله :

« أستطيع أن أفهم ــ وان لم أكن أستطيع أن أغتفر ــ انتشار ألوان من التفكير اللاعقلي بيننا بعد يونيو ١٩٦٧ .. أستطيع أن أفهم ذلك ، لان قسوة الهزيمة غير المتوقعة ، والاحساس بالهوان والمذلة والعجز ، والشعور بأن كل شيء يسير في طريق مسدود ــ كل هذه كانت عوامل ساعدت على انتشار موجات من التفكير اللاعقلي ، وجعلت الاذهان أكثر استعدادا لقبول تفسيرات غيبية للظواهر ، وهيأت العقول لنوع من الاستسلام جعلها تفقد ملكاتها النقدية ، وتركن الى التصديق الساذج لكل بدعة ، وكل خرافة تجد فيها أي نوع من التعويض ...

والذي يعيبه ــ أعني الدكتور ــ على الرأي العام ، في مرحلة هزيمة ١٩٦٧ ، أنه اعتبر الابتعاد عن التقوى ــ أو بمعنى أصح عن الله ــ عاملا

من عوامل الهزيمة وهذا مقياس خاطىء في نظره ، لان العدو الذي انتصر علينا ، كان طوال تاريخه أشد منا ابتعـادا عن التقـوى ـ كما يقـول الدكتور ، فلماذا اذن يكتب النصر لعدو كهذا ، اذا كان مقياس النصر أو الهزيمة هو التقوى .. مفهومة بهذا المعنى الساذج ؟

والعجيب أن أستاذ الفلسفة يرى من أسباب الهزيمة ـ بل من أظهر أسبابها ، مؤامرات الصهيونية المتعاونة مع الامبريالية ، وكالاخطاء التـي ارتكبناها نحن أنفسنا قبل حرب عام ١٩٦٧ ، وكأن هذه المؤامرات توقفت تماما قبيل معركة النصر في أكتوبر عام ١٩٧٣ ، ويرفض اعتبار الابتعاد عن الله ـ أو كما يقول ـ عن التقوى ، عاملا من عوامل هذه الهزيمـة ، ولا حتى داخلا ضمن الاخطاء التي ارتكبناها قبل عام ١٩٦٧ .

والرد على هذه المغالطة لا يكلفنا جهدا ذهنيا ، فنحن نؤمن بالله ، ونستمد من الايمان به أقوى طاقة روحية في معاركنا ، وعدونا تجرد مـن الايمان بالله نهائيا ، فاذا استوينا واياه في المعاصي ، كانت الهزيمة نصيبنا نحن المؤمنين ..

ويتجاهل الدكتور ظروفنا قبيل معركة يونيو عام ١٩٦٧ ، وبخاصـة بعد اعلان حالة الطوارىء ، فقد أعلنا على الملأ في شتى أرجاء العالم أننا نملك أكبر قوة ضاربـة في الشرق الاوسط ، وعندما سئلنـا في المؤتمـر الصحفي العالمي اثر اعلان حالة الطوارىء في مايو ١٩٦٧ عما اذا كنا قـد قدرنا احتمال تدخل أمريكا ؟ أجبنا : أجل ، قدرنا لكل شيء احتماله ...

اذن فماذا كان يراد من الرأي العام هنا أن يعلل أسباب هزيمةمنكرة صارخة في أقل من ساعات معدودة ؟ الا أن تكون العلة الاساسية لديـه هي أننا نسينا الله في غمرة الغرور الذي نفخ أوداجنـا ، في غمرة الزهو بقواتنا التي لا تقهر ...

والتاريخ يعيد نفسه والرأي العام المسلم في كل مكان يدرك ذلك ،

ففي غزوة حنين ــ ولا أظن الدكتور يعرف شيئا عنها او عن تاريخ المعارك الاسلامية ، في هذه الغزوة لحقت الهزيمة بالمسلمين، لانهم اغتروا بكثرتهم، وقالوا قبيل المعركة : « لا تغلب اليوم من قلة » وصدق الله العظيم حيث يقــول :

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة •• ويوم حنين اذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا •• وضاقت عليكم الارض بما رحبت •• ثم وليتــم مدبرين) •

فالاعجاب بالكثرة كان سببا للهزيمة ، لان المعجبين فقد جانبا مهمـا من السلاح ، هو جانب الايمان باللــه الذي يمنحهم الطاقة الكبرى مــن الصمود في المعركة •

وفي دهاء حاول الدكتور في مقاله أن يثير زاوية حساسة يجتذب بها بعض التعاطف على رأيه الفريد من نوعه ، فقــال :

« على أنني لا أعتقــد أن أضرار التفكــير اللاعقلي تقتصر على مــا يؤدي اليه مــن اقلال من شأن الجهــود التي بذلت في مرحلــة الاعداد للمعركة ، والبطولات التي ظهرت أثناءها ••• »

سبحان الله •••!

هل اعتبار الايمان بالله عاملا من عوامل النصر يقلل من شأن الجهود التي بذلت في مرحلة الاعداد للمعركة ، والبطولات التي ظهرت أثناءها ؟

ان كتاب الله لا ينطق الا بالحق ، وهو القائل :

(هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)

ويقــول :

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

فالمقصود « بنصر الله » هو القوة المعنوية ، والمقصود « بالمؤمنين »

هو القوة المادية • فهل بعد ذلك يقال مثل قول الدكتور•• أستاذ الفلسفة؟ ما نود أن نقوله :

اننا دخلنا معركة عام ١٩٦٧ ، والاغاني تردد : داخلين بقوة السلاح•• والاستاذ أحمد سعيد المذيع يصيح : يا أبنــاء رع •• يا أبنــاء أمون •• وكانت الهزيمة المخجلة ••

أما في عام ١٩٧٣ ، فقد دخلنا المعركة ، والاغاني تردد : الله أكبر •• وكان هتاف الجنود في المعركة •• الله أكبر •• وكان النصر المشرف ••

والتاريخ الصحيح حين يسجل هذه المعركــة الظاهــرة ، لن يضيف النصر الى عقلانية الدكتور أستاذ الفلسفة ، وانما يضيفــه الى جنودنــا المؤمنين البواسل ، الذين حملوا السلاح بأيديهــم ، وحملــوا الايمان في صدورهم •••

ويختم الدكتور أستاذ الفلسفة مقاله ، ناصحا وموجها في غــرور ، فيدعونا الى أن نتخذ من العقل مرشدا لنا في صراعنا العسكري والحضاري مع اسرائيل ، فاحترام العالم للعقل يتزايد يوما بعد يوم ، والمسافة التــي تفصله عن التفسيرات اللاعقلية تتسع باطراد ••

ولست أدري : من أين للدكتور أستاذ الفلسفة ، أن ايماننا يدعونا الى الغاء عقولنا ؟ أو أن ايماننا يدعونــا الى رفض العلــم الحــديث ان أستاذ الفلسفة له عذره ، لانه يجهل الفكر الاسلامي وتاريخ الحضــارة الاسلامية ، فالاسلام بشهادة كبار المفكرين الاجانب ــ من غير المسلمين ، هو الذي أسس المعرفة الى أوربا بأسرها يوم أن كانت غارقــة في ظــلام التأخر ، وما ذنبنا نحن اذا كان الدكتور وأستاذ الفلسفة في جامعة تنتمي

الى بلد اسلامي يقوم نظامه على العلم والايمان معا ، يجهل مكانة الاسلام ودوره الحضاري ، بينما تعترف بهذا الدور جامعات أوربا ••

* * *

انها نصيحة متواضعة أقدمها للدكتور أستاذ الفلسفة ، والعبقري الملهم ، أن يقرأ هو وأمثاله : الصفحات الاولى من كتاب « العقيدة والقيادة » ومن كتاب « الاسلام والنصر » ومؤلفهما شخصية ليست مغمورة ، فهو من المفكرين الكبار ، تزخر مكتباتنا العربية بعشرات من مؤلفاته الجادة ذات القيمة الفكرية ، وهو قائد من كبار القادة العسكريين العرب ، وعضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وفي المجمع العلمي بدمشق وبغداد ، وفي مجمع البحوث الاسلامية بالازهر •• انه اللواء الركن محمد شيت خطاب وزير الحربية الاسبق في العراق ••

الكتاب الاول يقع في زهاء ستمائة صفحة ، والآخر يقع في أكثر من مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير ، ونحن لا نشق على الدكتور أستاذ الفلسفة ، ونكتفي منه ـ ان تواضع وقبل ـ أن يقرأ الصفحات الاولى من كلا الكتابين ••

ونحن هنا نكتفي بأن نورد موجزا صغيرا لما كتبه المؤلف تحت عنوان : « مع المشير مونتجومري » القائد البريطاني المشهور ، ولا أظن الدكتور يجهله ، يقول المؤلف :

« تعمدت ايراد صفة العقيدة التي هي من أهم صفات القائد المنتصر كما وردت في أهم المصادر العسكرية الحديثة ، لاسباب ثلاثة :

● الاول : اقناع من لا يقنع الا بما يقوله الاجانب •••

● الثاني : تصحيح ما علق بأذهان العسكريين العرب والمسلمين وغير العسكريين أيضا ، بأن العرب والمسلمين القدماء يهتمون بالعقيدة وحدهم ، وأن العسكريين المحدثين في الغرب والشرق لا يهتمون بالعقيدة والمثل العليا •••

● الثالث : اعادة العسكريين الذين يحبون بكل جوارحهم — ان يستعيدوا حقوق العرب في الارض المقدسة ، الى الحق والصواب •••

هذا وقد نقل الينا المؤلف عبارات من كتاب « السبيل الى القيادة » للقائد البريطاني وبطل « العلمين » والكتاب صدر في لندن عام ١٩٦٢ ، ويعتبر كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب من آخر الكتب العسكرية المعتمدة التي صدرت أخيرا ومن أهمها ايضا ، والعبارات التي اختارها المؤلف من كتاب القائد البريطاني تتصل بصفة العقيدة في القائد العسكري :

« هل من علاقة للدين بالقيادة ؟

« لا يستهوي القائد الكثيرين من الناس ، ان لم يتحل بالفضائل الدينية » •

ومجمل الفضائل التي يراها « مونتجومري » هي :

١ — الهدى : وهي عادة ارجاع جميع الامور الى الارشاد الالهي ، والى هذه الفضيلة ، تستند الحكمة ، والانصاف ، وحسن التصرف ••

٢ — العدالة : وهي عادة اعطاء كل فرد حقه ، حق الله والانسان نفسه ، والى هذه الفضيلة تستند الواجبات الدينية والطاعة والشكران ، وكذلك النزاهة والاستقامة ، وحسن النية نحو الآخرين ••

٣ ــ الانضباط : وهي السيطرة على النفس ، لغرض تطوير الطبيعة البشرية الى أرفع المستويات •• والى هذه الفضيلة يستند الطهر والتواضع والصبر ••

٤ ــ الجلادة : وهي الروح التي تقاوم وتتحمل ، وتتغلب على محن الحياة واغراءاتها •

والى هذه الفضيلة تستند الشجاعة الادبية والمثابرة ، وضبط النفس ••

ويتساءل : هل الحياة الخاصة للقائد احدى أسباب نفوذه ونجاحه ؟ •

ويجيب : في رأيي الخاص في هذه القضية بعينها ، بل جميع القضايا الاخرى ان العامل الاكبر ، هو اخلاص المرء ونفوذه ، وكونه قدوة ، وبخاصة فيما يتعلق بالفضائل الدينية •• » •

ويقول : لقد اقتضت القيادة العسكرية دوما مهارة فنية ، وقوة وخصالا روحية ، وكلا هذين ضروري للقائد ••

ان القائد العام اذا أراد النجاح •• وجب أن يكون ذا مقدرة لا متناهية لبذل الجهد والتهيؤ المتقن ، ويجب أن يكون ذا يقين باطني يسمو أحيانا فوق العقل ••

ان المسيح قد قدم الى أتباعه مجموعة من المبادىء ، ومثالا من نفسه لا ينسى ، وهذا ما يجب أن يفعله القادة الوطنيون في يومنا هذا ، وهو ما ينقصهم على ما يبدو ، وعلى القادة الوطنيين في العالم الحر ، أن ينظروا الى التناقض بين السلطة والعقيدة الدينية بمنظار أحسن » •

ويمتدح مونتجومري الملك « ألفرد » العظيم أحد ملوك بريطانيا الذي تسلم الملك عام ٨٧٢ م الذي قاد المعركة ضد الدنماركيين الذين لم

يكونوا وقتئذ قد اعتنقوا المسيحيــة ، وكان السبب الاول لهجماتهم على بريطانيا القضاء على المسيحية فيها ، وقد أثنى مونتجومري على « ألفرد » لانه ــ كما يقول : أظهر جميع الفضائل المسيحية التي بنيت عليها حياته ، وأنقذ انجلترا بحكمته ومهارته العسكرية، وأعطى المسيحية أملا جديدا .. ما كان أعظمه رجلا ، كان على العموم مسيحيا صادقا يمارس كل الفضائل المسيحية » .

وما عرضه اللواء الركن محمود شيت خطاب في ايجاز من كتاب القائد البريطاني « مونتجومري » لا يحتاج الى تعقيب ...

وبعــد ...

فنحن لا يعنينا من أمر الدكتور أستاذ الفلسفة بآداب عين شمس ، الى أي الافكار ينتمي ، ولا الى أي الجهــات يدين بالــولاء ، كذلك ، لسنا من سدنة المصادرة على آراء الناس ، فحرية الرأي في ظــل الاسلام ليس حقا مكتسبا للفرد ، بل هو حق طبيعي له ــ وانما الذي يعنينــا ــ وهذا وجه المسألة ، هو أن جريدة الاهرام ــ أو امبراطورية الاهرام ــ وعلى رأسها الامبراطور غير المتوج الاستاذ محمد حسنين هيكل ، تبيــح لاقلامها ــ ارضاء للصليبية والماركسيــة معا ــ أن تغمز الاسلام فكــرا ونظاما ، وتصادم مشاعر الاغلبية الساحقة في هذا البلد وفي غيره من البــلاد العربية ، وذلك في غرور وعنجهية يحميها نفوذ الامبراطور غير المتــوج ، بينما تضيق الجريدة ذرعا بالاقلام الاسلامية حين تتصدى للدفــاع عن الاسلام ، فقد تلقت الجريدة عشرات الردود على مقــال الدكتــور فؤاد زكريا ، ولكنها لم تتكرم الا بنشر سطور معدودة من المقالات العديدة ، وهذه السطور اقطفتها من مقالات : الدكتور عبد الصبور شاهين الاستاذ بكليــة دار العلــوم جامعة القاهرة ، والدكتورة نازلي اسماعيل استاذة

الفلسفة بآداب عين شمس وزميل للدكتور فؤاد زكريا ، والدكتور أحمد الحوفي الاستاذ بدار العلوم ، ثم فضيلة الشيخ ابراهيم الزوكة مدير المساجد بوزارة الاوقاف ، وكان أن أشارت الاهرام الى أنها ستختتم المناقشة بتعقيب لكاتب المقال •••

لكن جريدة الاهرام التي تتكلف النزاهة والعدالة أحيانا ، والتي تكرمت بنشر سطور معدودة من الردود في ١٩٧٣/١١/٢٢ ، معلنة قفل باب المناقشة بتعقيب لكاتب المقال ، عادت فسمحت له بالكتابة من جديد في ١٩٧٣/١١/٢٨ في نفس الموضوع ، ولكن بعنوان آخر : « الى متى نغترب عن حاضرنا ؟ » جاء في سطوره الاولى :

« ولقد تحدثت في مقال سبق بعنوان « معركتنا والتفكير اللاعقلي » عن أحد المظاهر الغريبة العهد للاغتراب في حياتنا ••• » والواقع أن الدكتور له قدرة كبيرة على المغالطة ، فهو يذكرنا برأي الامام علي بن أبي طالب في اتجاه الخوارج ، والذي أوجزه في كلمات أربع : « حق أريد به باطل » فالدكتور أستاذ الفلسفة يعتبر الانتماء الى الماضي اغترابا عن الحاضر •• فهل هناك عاقل واحد يقر هذا المنطق العجيب ؟ هل سمعنا أن كاتبا في دولة متحضرة أو حتى متخلفة كتب يطالب أمته بالانفصال عن الماضي حتى لا نقترب عن الحاضر ؟

فنحن المسلمين اذا أردنا في شدتنا ان نعود الى ماضي الاسلام نستشف من المعاني الكبار ما يعيننا على التغلب على شدتنا تصايحت الاقلام المشبوهة : هذه رجعية » اما اذا اردنا أن نعود الى ماضي البلاد في ظل الفراعنة الذين شيدوا الاهرامات بالسخرة ، فنحن اذن عصريون متحضرون ولا نكون برجوعنا الى الماضي مغتربين عن حاضرنا ••

ولسنا مستعدين هنا لان نسرد المغالطات التي استوعبها مقال الدكتور فؤاد زكريا ، لان الاقلام اليسارية عودتنا على ان نعترف بان لها وحدها

منطقا لا يستسيغه غير حملتها ، فالولاء ـ ولاء المسلمين ـ لعقيدتهم ليس الا رجعية هزيلة ، والولاء ـ ولاء اليسار ـ لفكر ماركس اليهودي ، عصرية وتقدمية ، وارادة المسلمين الاسلام نظام حياة تخلف وعودة الى عصر الابل ، وارادة اليسار انجيل ماركس نظام حياة تقدم ودفعة الى الامـــام ..

حدثت معركة يونيو ١٩٦٧ ـ ونحن خلف الاسوار تنفيذا لارادة مراكز القوى التي زالت بعد اليوم الخامس عشر من مايو عام ١٩٧١ ، وكان معنا عدد من حثالة اليسار لا يتجاوز العشرين ، وقد أبدى الكثير منا الاستعداد للتطوع في المعركة بعد ان تبرعنا بالقدر المستطاع من اموالنا ودمائنا ، ولم يستجب بالطبع لرجائنا ، وظلت أجسادنا خلال ايام المعركة القلائل خلف الاسوار ، أما ارواحنا وقلوبنا ، فقد كانت هناك خـــارج الاسوار في سيناء وعلى ضفاف القناة ..

ولم يكن عجيبا من القلة اليساريين ان لا يبدو تطوعهم للاشتراك في المعركة ، بل العجب أنهم كانوا يرددون في غير حياء :

« ان معركتنا العقائدية ليست فوق أرض سيناء او فوق أرض فلسطين العربية ، وانما هناك فوق أرض فيتنام ..!

وشر البلية ما يضحك كما يقال ..

* * *

واذا كان من حقنا ان نلتمس عذرا لاهل اليسار في أن يكتبوا ما شاء لهم أن يكتبوا ، غمزا في الفكر الاسلامي ، او نيلا من العقيـــدة الاسلامية ، او امتهانـــا لتراثنا الاسلامـــي ، وأن نلتمس عـــذرا أيضا للعقلانيين أو من على شاكلتهم أن يقولوا وأن يتقولوا في الاسلام فكـــرا ونظاما ومنهجا وعليه ما شاء لهم أن يقولوا وأن يتقولـــوا ، فمن حقنـــا

أيضا أن نلتمس عذرا لعالم من علماء الدين ومن علماء الازهر الشريف ، كان في يوم من الايام وزيرا للاوقاف ، ثم مديرا لجامعة الازهر ، وهو الآن عميد لمعهد الدراسات الاسلامية •• أن يكتب ما شاء له أن يكتب ••

فالذي يحز في نفوسنا أن عالما فاضلا كأستاذنا الشيخ الباقوري ، له من سلوكه الطيب ، وأسلوبه المهذب مكانة أثيرة في نفوس أصدقائه ومعارفه ، يحرص فيما يقول وفيما يكتب على المجاملة ، فقد كتب في جريدة الجمعة بجريدة الأخبار في ٢١/١٢/١٩٧٣ ــ أي بعد مقال الدكتور زكريا بزهاء خمسة أسابيع ــ كلمة مسهبة تحت عنوان : « حرب رمضان •• كيف تناولتها أجهزة الاعلام البريطانية ، ولماذا التركيز على صورة ضابط مصري يصلي » والحق يقال : ان كلمة أستاذنا الشيخ الباقوري كانت في بدايتها كلمة طيبة على مستوى رفيع من الاسلوب الجيد والمعاني الكبيرة، فقد كان في لندن ابان معركة رمضان للعلاج ــ فكتب عن مشاهدة للواقع الذي لمسه بنفسه ، فأشار الى اهتمام « تليفزيون » لندن ــ بقنواته الثلاث ــ بابراز صورة لضابط مصري يؤدي صلاته في ثيابه العسكرية على رمال سيناء وهو على غاية ما يكون المسلم بين يدي ربه من ضراعة وخشوع ، واهتمام « تليفزيون » لندن أيضا بابراز هتافات الجنود المصريين البواسل : الله أكبر •• الله أكبر ••• ويرى فضيلته أن الذين رتبوا الامر على هذه الصورة من المسئولين الاعلاميين في بريطانيا انما قصدوا الى تذكير بني قومهم بالحروب الصليبية التي شنتها أوربا على الشرق •

ويذكر فضيلته في معرض كلمته أن بريطانيا صديقا له ، سأله ذات يوم عما اذا كانت الحرب الدائرة في سيناء والجولان حربا مقدسة؟ وأجابه: ان القداسة ذات معنيين :

أحدهما : يعود الى الدين ، كما كانت الحال من قبل في الحروب الصليبية التي كان يتلاقى فيها القادة والجنود الشرقيون باسم الاسلام ضد القادة والجنود الغربيين باسم الصليب ..

والثاني : يعود الى اقامة العدل باسترجاع الحقوق المسلوبة ، واسترداد الأرض المغصوبة ، والحرب في سبيل ذلك لا يمكن الا أن تكون مقدسة »...

يبدو أن أستاذنا الشيخ الباقوري مغرم بالتقسيم والتنويع فيما يود ابرازه من أفكار أو ايضاحه من معان ، كما يبدو وأن فضيلته قد نسي مطلع مقالته ، فاحساس وسائل الاعلام البريطاني بأن المعركة معركة صليبية ، احساس يصدقه ويؤكده تاريخ أوربا الصليبية بالامس ، وحاضر أمريكا الصليبية اليوم ، ولئن كانت أوربا في حروبها الماضية التي شنتها على ديار الاسلام في الشرقين الاوسط والاقصى ، قد حملت الصليب وسارت خلفه سافرة ، فان أمريكا في الآونة الاخيرة تعلن نفس الحرب حاملة صليبها خلف الصهيونية ولكن بمعناه لا بقماشه وسارينه الخشبية..

ولا أظن فضيلة أستاذنا الشيخ الباقوري الا أذكى من أن يرى انتهاء الحروب الصليبية اليوم أو حتى بالأمس القريب ، فالحرب الصليبية لم تنته بعد ، ولن تنتهي غدا ، أردنا نحن المسلمين ذلك أم لن نرد ، كما كنت أظن أن أستاذنا الشيخ الباقوري يدرك معنا أن هناك فرقا بين آراء المسئولين السياسيين وبين تفكير الرأي العام في أوربا ، فالمسئولون السياسيون أقرب الى المجاملة بألسنتهم اليوم للظروف السياسية الراهنة ، وان كانت قلوبهم مع الرأي العام الذي يتمتع بكامل حرياته ، والذي لا يعرف المجاملة حتى بألسنته ..

وواضح أن فضيلة أستاذنا الباقوري ، يحاول في ذكاء أن يخفف من

حدة ابراز الوجود العقيدي في المعركة الاخيرة .. ثم نراه يحاول في النهاية تأكيد هذا الاتجاه ، فراح يقول :

ولم يكن هذا القول محتاجا الى ما يؤيد الصدق فيه ، لأن القداسة في حرب رمضان ، كانت مستمدة من المعاني الوطنية ، فقد اشترك مع المسلمين فيها مسيحيون فضلاء ، شجعان ، في حين أن من هؤلاء الاخوة من كان مضرب المثل في الشجاعة والاقدام ، بل منهم من كان يصوم رمضان مع زملائه المسلمين على سبيل المجاملة لهم والحفاظ على مشاعرهم ، وذلك كله دليل واضح على أن حربنا تلك في رمضان، كانت دون جدال أو ريب، حربا وطنية مشروعة للدفاع عن الحرمات والمقدسات والكرامات » ...

ولا يسع الانسان هنا الا أن يقول ، ما كان يقوله اثر الانتهاء من الخطب ، رسول الله والمسلمون من بعده : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ..

* * *

وكلمة للحق وحده ...

لقد عرضنا لمقال الدكتور فؤاد زكريا بالنقد ، وأهملنا الرد على غيره، فالسيدة الكاتبة الكبيرة أمينة السعيد رئيسة تحرير مجلة حواء ، وهي أيضا امبراطورة غير متوجة في مجلتها التي تملكها ، وترفض في غرور أن يناقش لها رأي أفضت به ، والويل لمن يجرؤ بالتعقيب على ما تكتب أو على ما تقول ، ففي مساء ١٩٧٣/١١/١٢ جلست أمام « التليفزيون » تقول في جرأة :

« اننا لم نحارب اليهود لأنهم احتلوا بيت المقدس ، ولكن لكي نبني حضارة » .

ومثل هذا القول ، لا يحتـاج منا الى تعقيب ولا الى تعليق ، فقد عودتنا الكاتبة الكبيرة الجريئة التي سخر قلمها للنيل من الاسلام وفكره وتراثه وتقاليده ، أن تتصايح ، لأن صيحاتها ــ ولو بلغت عنان السماء ، فلن تتحول لحظتها الا الى ذرات من الهباء ...

اذن فنحن نعرض لما يكتب مثل الدكتور فؤاد زكريا ، باعتبار مكانته الادبية ، والعلمية ، فهو أستاذ جامعي يمكن أن يؤثر بما يقول وبما يكتب في طلابه من الشباب المسلم الذي ليست لديه الحصانة من الفكر الاسلامي، ما يقي به عقيدته ، ويبدو أننا في غمرة الرد على الدكتور ، فاتنا أمران كان يجب علينا الاشارة اليهما انصافا للحق :

● الامر الاول : ان العاطفة الدينية في نشوة النصر الذي كان أشبه ما يكون بالمعجزة ، جرفت بعض العوام والسذاج نحو تخيلات شاعت على الألسنة لا تمت الى الحقيقة بصلة ، انها تخيلات قريبة الشبه بالأساطير ، وبذلك سنحت الفرصة للدكتور فؤاد زكريا أن يكتب ما كتب ، وربما لو أن وسائل الاعلام الدينية قامت بشيء يسير من الجهد ، وصححت المفاهيم الساذجة التي راجت على ألسنة السذج والبسطاء ، اوحدت ذلك ربما كنا وفرنا على الدكتور فؤاد زكريا وغيره ، السخرية منا على صفحات الأهرام وغيرها ...

فاذا كان القرآن الكريم يقول : « وأيدكم بجنود لم تروها » في بعض المعارك الاسلامية الاولى المعاصرة لحياة الرسول، فيصبح من البديهي أن نرفض قول القائل ــ كائنا من كان ــ بأنه خلال المعركة شوهدت ، أشباح أو أرواح من سوى المقاتلين حاملي السلاح ..

كذلك ما كان لنا بشخصية الرسول ، فنحكي قصة رؤيته ــ صلوات

الله وسلامه عليه ـ يعبر قناة السويس الى سيناء ، وقد ظل المسلمون الاولون ـ بعد لحوق الرسول بالرفيق الاعلى ـ يخوضون المعارك مع أعداء الدعوة الاسلامية ، لكنهم كانوا أعقل من أن يسمحوا لمثل هذه « الهلوسة » أن تتسلل الى ألسنتهم ، أو توجه جهودهم ، فقد ترك لهم رسول الله كتاب الله وسنته للاقتداء بهما في الحرب والسلم معا ، ولم يترك لهم الرؤى والاحلام وما اليهما ...

ومعذرة لاستاذنا الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ، فنحن نصدقه فيما روى من قصة الرؤيا ، ولكن من حقنا أن نقف موقف التريث من الرائي نفسه ، ازاء رؤياه ، لأن الرؤيا تتعلق بأكرم شخصية على المسلمين قاطبة ...

● الأمر الثاني : ان العاطفة الدينية أيضا ، أحيانا تثير فينا انفعالات بلا هوادة ، ازاء مقال فيه عدوان علينا ، أو سخرية منا ، فتقوم قائمة ألسنتنا على المنابر ، وقائمة أقلامنا على صفحات مجلاتنا الاسلامية المتواضعة المحدودة الانتشار فتصبح النتيجة وليست في صالحنا ، ولقد كان الذين تولوا الرد على الدكتور فؤاد زكريا على صفحات الاهرام موفقين على الرغم من أن الاهرام لم تنشر لهم بالطبع كل ما كتبوا ، فقد كانوا بحق موضوعيين في اتزان ، ولا سيما كلمتا الدكتور عبد الصبور شاهين ، والدكتورة نازلي اسماعيل حسين ، أستاذ الفلسفة بآداب عين شمس .. يجب أن لا ننس أن بعض الاقلام الحاقدة على الاسلام فكرا ونظاما وتراثا وشعوبا ، لا تهدف من كتاباتها الا الى الاثارة ، لتسنح فرصة جديدة لها ، تتهمنا فيها بالصخب والغوغائية ...

ان موجة التحديات للفكر الاسلامي في ديار الاسلام نفسها لن تتوقف ، وموقفنا من هذه التحديات موقف يتسم بالسذاجة أحيانا كثيرة ، وينقصنا دائما أن نفكر تفكيرا موضوعيا في مواجهتها ...

اذا صدر كتاب مثلا ، وفيه تحد سافر أو ملتو للفكر الاسلامي ، فسوف يكون من السذاجة بمكان أن نطالب بمصادرة الكتاب ، لأن المصادرة لا تحل المشكلة ، أولا : لأن الرأي يجب أن يواجه بالرأي ، وثانيا ، لأنه لو قدر لكتاب منحرف أن يصادر هنا ، فسوف يكون من اليسير على المؤلف أن يطبعه في مكان آخر ، ثم يتسلل الينا في صمت وأحيانا في ضجة ..

والامثلة كثيرة ، فمثلا منذ سنوات كتب الاستاذ نجيب محفوظ ، وعلى صفحات جريدة الاهرام قصة على حلقات عنوانها « أولاد حارتنا » وعندما أراد طبعها في كتاب ، حولت الرقابة على المطبوعات الكتاب الى عالم من علماء الازهر ، أظنه فضيلة الشيخ محمد الغزالي مدير الدعوة بوزارة الاوقاف ، فأبدى اعتراضه بشدة ، وأخذ بهذا الاعتراض ، فهل حال ذلك دون طبع الكتاب في بيروت وتسلله الينا هنا في مصر ؟

ولندع وجه السذاجة في المسألة الآن ، حيث أبيح نشر القصة التي تضمنت التحدي لعقيدتنا في أوسع نطاق ، ثم لم يسمح بنشرها بعد ذلك في أضيق نطاق ولو بذل جهد يسير أو كبير لنشر تقرير الشيخ الغزالي عن القصة على صفحات نفس الجريدة ؛ لكان ذلك أجدى ..

ومثلا ، تدخل أستاذنا الدكتور محمد البهي بنفوذه وهو وزير الاوقاف وشئون الازهر أو على ما أعتقد وهو مدير للبحوث الاسلامية بالازهر ، فحال دون طبع كتاب للمرحوم الشيخ محمود الشرقاوي عنوانه « سلامة موسى .. المفكر والانسان » ولكن ماذا كان بعد ذلك ؟ ما أسرع ما طبع الكتاب في بيروت ، وما أيسر ما تسلل الينا ، وقد قرأت الكتاب وأنا خلف الاسوار ، وسنحت الفرصة لي اثر خروجي الى الحياة أن أكتب نقدا له على صفحات مجلة « الوعي الاسلامي » .

وهاك مثلا ثالثا صارخـا :

انه كتاب « التاريخ السياسي للدولة العربية » لمؤلف : الدكتور عبد المنعم ماجد ، أستاذ التاريخ بكلية آداب عين شمس ، هذا الكتاب يدرس لطلبة الكلية منذ عام ١٩٦٧ ولا يزال ، ولخطورة الكتاب واحساس مؤلفه بذلك ، طبع في بيروت وعاد الى القاهرة في سلام ليأخذ مكانه بين الدراسات الجامعية ، وعلى مدى سنوات متواصلة ...

والعجيب أن مثل هذا الكتاب المحشو بالتحديات الصارخة لتاريخ الاسلام ، لم يحس به أحد الا في آخر عام ١٩٧٢ ، حيث قدم الاستاذ علي عبد العظيم عنه تقريرا الى مجمع البحوث الاسلامية بالازهـر في ١٢/٢٠ ١٩٧٢ م ..

ولسنا هنا بصدد التصدي لمناقشة هذا الكتاب المنحرف ، وقد عرضنا له من قبل ، ولكنا بصدد هامشية يجب أن تعرض لها ، فالذي حدث بعـد أن رفعت صورة من المذكرة عن الكتاب الى المسئولين بالجامعة ، وبلغت أيضا الى الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية ، أرسل سيادته مذكرة الى مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ، يستجوبه في عصبية : ما السلطة التي يملكها مجمع البحوث حتى يطالب بمصادرة كتاب جامعي ، وما هو الحق المخول له في مثل هذا الاجراء ؟

والحق مع الاخ المسلم الدكتور عبد العزيز كامل .. فهو من حقه أن يناقش مثل مجمع البحوث الاسلامية بالازهر وبل يستجوبه ، لأنه في مركز من القوة والسلطة يسمح له بذلك وأكثر من ذلك ، ولا ننس أن حق الزمالة عليه نحو زميل له جعله ينفعل ويبالغ في انفعاله ، وان كنا قد نسينا أن حق الاسلام عليه أن ينفعل في تواضع من أجـل الاعتداء عليه ، نقول : حـق

الاسلام عليه كمسلم مجرد مسلم ، لا كنائب لرئيس الوزراء للشئون الدينية ، ووزير للاوقاف ، التي من أبرز أقسامها قسم « الدعوة الاسلامية » ...

اذن ... فما هو الحل ازاء هذه التحديات التي يواجهها الفكر الاسلامي من أقلام اسلامية مكابرة أحيانا ومن أقلام مشبوهة أحيانا أخرى ؟

ان الحل الامثل والواقعي معا ، أن توجد الصحافة الاسلامية القوية الذائعة الانتشار ، لمواجهة هذه التحديات ، فليس من المعقول أن نواجه مقالا متحديا ينشر على صفحات جريدة يومية يقرأها في مصر والبلاد العربية مئات الالوف ، بمقال أو أكثر في مجلة شهرية لا تصدر بانتظام ، ولا يقرأها الا مئات من الناس ... أو على منبر من المنابر بخطبة حماسية لا يستمع اليها سوى عشرات من الناس أيضا ... حسبنا الآن جريدة يومية واحدة، ومجلة أسبوعية واحدة ، ومجلة علمية شهرية واحدة ، هل يتصور انسان أن مصر البلد الذي طالما ولا يزال مركز الاشعاع الفكري الاسلامي ، وفيها الازهر وجامعته ومجمع بحوثه ، ليس فيها حتى اليوم مجلة اسلامية أسبوعية واحدة ...

قد يقال لنا : ان البلاد تمر بأزمة خانقة في الورق ، ولكن لماذا لم تحل هذه الازمة الخانقة دون صدور العديد من المجلات الاسبوعية : آخر ساعة .. المصور .. حواء .. روز اليوسف .. صباح الخير .. الاذاعة.. وغيرها ؟..

بل لماذا لم تحل أزمة الورق الخانقة دون صدور بضع مجلات جديدة: السينما .. الجديد .. الثقافة .. المسرح .. وغيرها ؟..

ان الحل الامثل والواقعي هو أن تكون لنا دار صحفية اسلامية كبرى •• يجب ان لا تتبع هيئة أو مؤسسة من الهيئات أو المؤسسات الاسلامية التي فشلت ــ ولديها الاموال الطائلة ــ أن يكون لأي منها مجلة شهرية ناجحة ــ فضلا عن مجلة أسبوعية ناجحة •••

يجب أن تقوم الدار الصحفية على شركة مساهمة ، تمولها قروش المسلمين المكدودين ••• وتبرعات المسلمين ذوي اليسار ••

ان سيدة واحدة كالسيدة أم كلثوم ، صاحبة فكرة •• دار الوفاء والامل •• استطاعت في أسابيع معدودة أن تجمع لمشروعها من الاموال ربع مليون من الجنيهات ، فهل يعجز العالم الاسلامي بأثريائه أن يحقق ما حققته أو حتى نصف ما حققته سيدة واحدة ؟ لقد قرأت في أوائل شهر فبراير الماضي في جريدة الاخبار خبرا صغيرا ، لكنه على جانب من الاهمية هذا هو الخبر يقول :

« أعاد عصام الخولي مدير نيابة قصر النيل ، هدايا قيمتها ٢٥٠٠ جنيه ، للمواطن السعودي « سعيد بادعيش » بعد أن سرقت منه منذ يومين ، وتم القبض على اللص •• وكان المواطن السعودي قد أحضر هذه الهدايا للفنان عبد الحليم حافظ » •

أقول : ان مثل هذا المواطن السعودي الجواد كثيرون في الوطن الاسلامي ، وأظنهم لن يبخل أحدهم بأن يسهم في اقامة دار صحفيةاسلامية ببضع مئات من الجنيهات لا ببضعة ألوف ••

وأعلم أن هناك قضية تنظر في هذه الايام أمام القضاء المصري ، وهي قضية على جانب الاهمية في أكثر من زاوية ، فقد رفع أحد الشعراء المصريين هذه القضية ضد المطرب عبد الحليم حافظ وأحد الملحنين بشأن أغنية :

قيل ان بعض أبياتها مسروق من قصيدة للشاعر المصري الاستاذ محمد التهامي ، بينما نسبت الاغنية كلها في تأليفها الى أمير عربي مرموق وشاعر مغمور ، وقد قال لي أحد الشعراء والنقاد الكبار : ان الامير العربي قد دفع الى المطرب عبد الحليم حافظ خمسة آلاف جنيه ـ اي وربي ـ اسهاما منه في تلحين الاغنية ، وحسبه من الفخر أن يؤديها مطرب كعبد الحليم حافظ ...

فهل من المعقول أن يضن مثل هذا الامير الشهم على مؤسسة صحفية اسلامية حتى بعشر ما جاد به من أجل أغنية ؟

لم أهدف من الاشارة الى مثل هذه الامثلة المريرة الا لأؤكد ان مجرد التفكير الجاد في ابراز هذا المشروع الى حيز الوجود ، سيجد من التشجيع ما يحققه ، ويحقق أمل الملايين من المسلمين في شتى بقاع العالم ...

* * *

الى متى نظل ـ نحن الكتاب الاسلاميين ـ نتسول لدى الصحافة اليومية ، ونستجدي حتى محرري الصفحات الدينية منها ، لينشروا لنا ردا موجزا على الافكار التي تتحدى الاسلام ، مكتوبة كانت أم مذاعة ؟

كنت ألقي محاضرة للجماعة الدينية في كلية زراعة القاهرة في ٧/٢/١٩٧٤ ، فوجه الي سؤال وأنا أتحدث عن بعض التحديات التي يواجهها الاسلام فكرا ونظاما وتشريعا وتراثا ، كان السؤال يقول :

« ماذا فعلتم أنتم أيها الدعاة الاسلاميون ازاء هذه التحديات التي تثير كوامن الأسى والفزع .. أوهل تظنون سيادتكم أنه يكفي لمواجهة هذه التحديات أن ينشر مقال في مجلة دينية شهرية لا يكاد يحس بها أحد ،

أو تقال خطبة حماسية ظهر يوم الجمعة لكي يسمعها بضع مئات من الناس، وقبل أن يغادروا المسجد تتبخر الكلمات الحماسية ولا تترك في النفوس أي أثر ، ولا يكاد يصل صداها الى أصحاب الآراء المنحرفة المتطاولة على الاسلام ؟

وكأني بالشاب السائل يتهمنا بالتقصير أو العجز ، والا فلماذا لا تتولى الرد على التحديات على صفحات الجرائد اليومية ؟

وينسى الشاب قول الله تعالى : لا يكلف الله نفسا الا وسعها •• وما نفعله هو الجهد الذي نملكه ، نحن نملك ألسنتنا ، وفي كل مجال نقول الحق ولا نخشى فيه لومة لائم ، وأقلامنا ملك لنا ، ولا تستطيع قوة في الارض أن تسخرها الا للحق والحق وحده ، ولكن أقلامنا هذه — ونرجو أن تكون خالصة لله وحده — في حاجة الى أرض تخط عليها كلماتنا، وهذه الارض هي الصحافة والاذاعة والتليفزيون ، وهذه ليست ملكا الا لمحرريها والمشرفين عليها ، وهي قائمة على تبادل المنافع بين أباطرتها وملوكها ، وليس لأمثالنا نفوذ مادي أو أدبي أو اجتماعي حتى يمكننا أن ننشر ردا على رأي منحرف في الجرائد اليومية ••

ومع ذلك •• مع ايماننا بأننا نملك الكتابة ولا نملك النشر •• فلا تكاد تفوتنا فرصة حتى نكتب ونبعث ، ولا نمل الكتابة ولا الاسترسال ، الا أن نفوسنا ومبادئنا أكبر من أن تتوسل أو نستجدي أباطرة الصحافة وبقية وسائل الاعلام •••

وقد يتساءل متسائل : وماذا بشأن المؤلفات ؟ أليس في المؤلفات فرصة لمواجهة هذه التحديات ؟

ولنا أن نجيب ببساطة عن هذا التساؤل بتساؤل آخر : وأين الورق؟

ان من اليسير علينا أن تتغلب على مشكلة النفقات ولو عن طريق القرض الحسن ، وان من اليسير علينا أن نصمد ازاء ما يصيبنا من جراء كلمة الحق التي قد تغضب البعض ••• ولكن من الصعب علينا أن نطبع من الكتاب عشرة آلاف، أو ننفق على الاعلان عنه مئات الجنيهات ، حتى يؤدي الكتاب رسالته •• ومن الصعب علينا أن يكون لنا تأثير على من يملكون الكتابة عن الكتب الجديدة في الصحف ، أو يملكون الكلام عنها في الاذاعة والتليفزيون ••• لأننا لسنا من أصحاب النفوذ أو المراكز المرموقة التي يمكن أن تدفع الثمن ••

لقد أصدرت سبع مجموعات من سلسلة الثقافة الاسلامية وعدد كتبها أربعة وخمسون كتابا ، ومؤلفوها من خيرة الكتاب والمفكرين الاسلاميين، لكن جريدة يومية واحدة لم تكتب عن كتاب واحد لها ، ومن العجيب أن العدد السابع من السلسلة كان لفضيلة الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود ، وذلك في مارس عام ١٩٥٩ ، وكان فضيلته أستاذا في كلية أصول الدين ، وقد أهديت هذا الكتاب وعنوانه « أوربا والاسلام » الى عديد من المحررين ، فلم يكتب عنه واحد منهم كلمة واحدة ، وفي العام الماضي أعيد طبع الكتاب في دار الشعب بالقاهرة ، وبعد أن أصبح أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود وزيرا للاوقاف وشئون الازهر ، ولا أظن أن دار الشعب قد أهدت من هذا الكتاب أي عدد لأي من محرري الصحف ، مع هذا فقد تسابق الجميع الى الكتابة عن الكتاب •••

عندما يصدر كتاب لواحد من المشتغلين بالصحافة ، فجميع المحررين يتبارون في الاشادة بالكتاب ان حقا وان باطلا ، لكن عندما يصدر كتاب للغزالي أو السمان أو سيد سابق ، فلا تكاد الصحافة اليومية أو الاسبوعية تحس به الا في حدود الاعلان عنه بثمن ••

وهكذا شأن الاذاعة اذا استثنينا اذاعة صوت العرب ففيها برنامج يومي عنوانه « قرأت لك » يؤدي واجبا متواضعا نحو الكتب الجديدة ، دون أن يبخل بهذا الواجب على الكتب الاسلامية ، واذا استثنينا اذاعة « القرآن الكريم » ففيها برنامج أسبوعي عنوانه « من المكتبة القرآنية » وكلا البرنامجين يؤثر العرض الهادىء والمناقشة الوديعة على النقد الحر الذي يجب أن يكون ..

كتب الاستاذ رشدي صالح على صفحات الاخبار تحت عنوان «رحلة كل عام لآلاف الكتب الجديدة » فأشار في كلمته الى أنه سهر ساعات يفكر في مجموعة من الكتب الجديدة التي صدرت في الظل ، ونزلت في الاسواق في بحار من الصمت ، انها ألف وخمسمائة كتاب صدرت في الاشهر الستة الاخيرة .. أكثرها لم يجد سطرا في اعلان ، ولم ينتزع كلمة في صحيفة ، وأقل القليل منها وجد صدى عند حملة الاقلام والنقاد .. ثم تساءل الكاتب : هل تمضي مئات الكتب في صمت وتصدر في الظل لأن النقاد النابهين لا يجدون فيها جديدا يحرك النفس ويثير التفكير ؟..

وشكرا للاستاذ رشدي صالح على غيرته هذه ، واذا كان لا بد أن نضيف شيئا ، هو أن القلة الضئيلة من الكتب الجديدة التي وجدت صدى عند حملة الاقلام والنقاد ، هي من مؤلفات المحظوظين والاصدقاء ، من الذين يتوافر معهم تبادل المنافع والارزاق ، كذلك ، فان الاستاذ رشدي يحرر في يوم الجمعة من كل أسبوع في الاخبار صفحة النقد الإدبي ، ولكن أكثر ما تعنى به هذه الصفحة الادبية التي يشرف على تحريرها ، هي أفلام السينما وبرامج التليفزيون والمسرحيات وأخبار الفنانين من الممثلين والممثلات والمطربين والمطربات والمثالين والمثالات ، والملحنين والملحنات ، ولم يفكر الكاتب الكبير في أن يجد في صفحته مساحة متواضعة تتسع لأخبار قصيرة عن بضعة كتب جديدة ...

وأود أن أسأل الكاتب الكبير : أيهما أحق بالنشر ؟

كلمة موجزة أرسلتها الى سيادته ، وحتى كتابة هذه السطور لم تنشر ، وهي تتضمن نقدا هادئا لأحد برامج « صوت العرب » كان المذيع يتحدث في برنامج صباحي عنوانه « في الحياة والحب والجمال » عن الهجرة النبوية ، فأخطأ عدةأخطاء تاريخية وجغرافية تتصل بالسيرة النبوية وحروب الردة ...

أم مثل هذا الخبر ؟ وعنوانه « حبيبتي شامينا : تمتد لآخر مارس » قال : .. تقرر أن يمتد عرض مسرحية الدكتور رشاد رشدي « حبيبتي شامينا » اخراج سمير العصفوري ، على المسرح القومي بالقاهرة حتى آخر شهر مارس القادم .. اقبا لالجماهير على المسرحية يتزايد بعد أن شفيت سميحة أيوب ، وعادت لتلعب بطولتها » ..

ان مما يؤسف له ان مزيدا من الانتاج الأدبي فيمجال الفكر الاسلامي تخرجه المطابع برغم أزمة الورق المستحكمة والخانقة ، وبرغم ارتفاع تكاليف الطباعة التي اصبحت تنافس ارتفاع اسعار الورق في السوق السوداء ، ولكن القليل من هذا الانتاج هو الذي يلقي شيئا يسيرا من الاهتمام على صفحات صاحبة الجلالة ، وهذا القليل من تأليف اناس لهم شيء من النفوذ المعاصر ...

صدر للدكتور محمد البهي وزير الاوقاف وشؤون الازهر الاسبق بضعة كتب على جانب مهم في الدراسات الاسلامية الواعية الجادة ، بعضها في بيروت وبعضها في القاهرة . كذلك صدر للدكتور سليمان الطماوي عميد حقوق عين شمس في القاهرة « عمر بن الخطاب وأصول السياسة والادارة الحديثة » و « السلطات الثلاث في الدساتير العربيةوفي

الفكر السياسي الاسلامي » و « التطور السياسي للمجتمع العربي » وكل هذه المؤلفات موجود ةالان في السوق المصرية ، وبالرغم من اهميتها ، فلم نقرأ سطرا واحدا على صفحات صاحبة الجلالة ..

وخلاصة القول : ان لدينا نقادا كثيرين يحتلون مراكز مرموقة في ديوان صاحبة الجلالة ، ولكن لدينا ايضا أزمة ضمائر ، فالنقاد لا يهتمون بالمؤلف الا اذا كان من الاسماء اللامعة التي تعيش وسط الاضواء ، أو الا اذا توافر فيه امكان تبادل المنافع ... ولله في خلقه شؤون ..

وأزمة الضمائر تزدهر كلما كان أصحابها بلا خلق ، ولعل من الجدير هنا ان نشير الى ان ازمة الضمائر ليست وقفا على النقاد وحدهم ، بل أحيانا يكون للمؤلفين نصيب أوفر منها ، واذا كان هذا مقبولا من بعض الشعراء او بعض كتاب المسرحية والقصة ، فلا جدال في انه غير مقبول من كاتب اراد لنفسه ان يون كاتبا اسلاميا ، واصبح مرموقا ، فاذا اصدر كتابا جديدا سمح لنفسه ان يكتب عن كتابه انه ترجم الى عدة لغات ، وان دار للنشر في الاسكيمو طلبت من المؤلف ان يأذن لها بطبعة منه ، وأن جامعة سومطرة — ان كان في سومطرة جامعة أو لم يكن — كتبت الى المؤلف تستأذنه في تقرير كتابه على الطلبة .. وهكذا ..

وغير مقبول من كاتبة فرضت على المجتمع ان يطلق عليها « الكاتبة الاسلامية » ويعلم الذين يعلمون بواطن الامور — انها لا تجيد كتابة سطور من كتبها العديدة او مسرحياتها الدينية ، الا انها تجيد ان تدفع الاجر لمن يكتبون لها ، هؤلاء الذين تدفعهم ظروف المعيشة الخانقة ان يؤجروا اقلامهم بل افكارهم ، وينسون في نفس الوقت انهم يبيعون ضمائرهم لا ان يؤجروها .. وكفى .

* *

اذا كان من المفروض أن يكون الكاتب منصفا مع نفسه ، فان من ألزم ان يكون الناقد منصفا مع نفسه ، اولا ، ومنصفا نحو الذين يتصدى لنقدهم وليس عجيبا ان يكون من نتاج الفكر اليساري اقلام مسعورة محمومة تتخلى عن ابسط مظاهر الشهامة والرجولة ولا تعترف بالخصومة الشريفة في مجال الرأي ، وليس هذا وحسب ، بل انها لا تخجل احيانا ان تهبط الى اقل من مستوى الخسة فتنتهز الفرص لتواصل هجوما مسعورا محموما على خصوم لها في محنة لا يملكون ازاءها مجرد التفكير في الدفاع عن أنفسهم ..

قديما قال واحد من أئمة الفقه الاسلامي : وأحسبه الامام مالكا أو الامام احمد بن حنبل : « الناس سواء .. ما لم تقع المحنة » ويقصد بهذا القول : ان المحنة تكشف عن معادن الناس .. واذكر ان الاستاذ خالد محمد خالد ، قال لي خلال نشره اول كتاب له : « من هنا نبدأ » وقد لقي من الضجة ما لقي : « هذا الكتاب اصوله موجودة لدي منذ زمن ، لكن أرجأت نشره ، لان بعض افكاره تعارض دعوة من الدعوات اصحابها في محنة ، ولن يتمكنوا من الرد على الكتاب .. وكان ذلك قبيل عام ١٩٤٩ ...

وليس من قبيل التزكية لنفس ، بل من قبيل التذكير ليس الا ، هو انني في كثير من مؤلفاتي الاولى دأبت على الهجوم على انظمة بعض الدول العربية ، لا بدافع من احتراف الهجوم او احتراف الظهور ، ولا بدافع من الوصول الى ذهب هذه الدول ، وانما بدافع من الأسى الممض الذي كان يعانيه شاب مسلم من انظمة في دول عربية مسلمة لا تقيم لشعوبها وزنا .. هذه الشعوب كانت يومئذ تعاني من الحرمان ما تعاني ، بينما القلة من الحكام والامراء تعاني أيضا من تخمة الترف ما تعاني ، وبسبب الحملة

الهجومية على نظام دولة عربية مسلمة ، استسلمت لحكم القضاء وصودرت لي الطبعة الثانية بأكملها من كتابي « المعاني الحية في الاسلام » وكانت زهاء ستة الاف نسخة ، وتغيرت الظروف بعد عام ١٩٥٨ الذي صودر فيه الكتاب ، واصبحنا مع هذه الدولة في خصومة شرهة ، واستغلت الاقلام هذه الفرصة ومعها كل وسائل الاعلام في الحملة المتطرفة على هذه الدولة، وأشير علي يومها أن أعيد طبع كتابي المصادر ، وسيسمح به ولا شك في ذلك ، لكنني رفضت .. بل وتوقفت عن الهجوم ، لا لأن الانظمة التي اعنيها قد تغيرت الى احسن ، ولكني خشيت على قلم كاتب مسلم نذره لله وحده ان يرمي بالمسايرة والمتابعة وانتهاز الفرص ... وشاء الله ان تتغير الانظمة الى افضل اعجبتني قصة قصيرة كتبها الدكتور نجيب كيلاني عنوانها « دموع الامير » مؤداها ان عهدا جديدا بدأ يتولى خليفة اموي جديد امر الخلافة الاسلامية بعد عبد الملك بن مروان ، حيث اصدر امرا بعزل بعض الولاة ، على ان ترد المظالم التي احدثها الولاة المعزولون قبل ان يغادروا ولاياتهم ، ويعودوا الى العاصمة ، فيوضع كل منهم على قتب فوق ظهر بعير موثوق اليدين والقدمين ووجهه الى الخلف ، اما رد المظالم فيجب ان يشتمل على القصاص من الامير نفسه ، بأن يوقف مربوطا الى خشبة في ساحة دار الولاية ، ويسمح للرعية ان يقتص كل واحد من الامير ، فمن كان سبه سبه ، ومن كان ضربه ضربه ، وانهال اهل المدينة المنورة على واليها « هشام » كل منهم حرص على ان يقتص لنفسه من الامير ، وجاء دور شريف من آل بيت النبوة ، قد ناله من أذى الامير اضعاف ما نال سواه ، وتوقع الناس ان ينتهز الشريف هذه الفرصة المتاحة ، والتي قد لا تتاح مرة أخرى ، فيقتص لنفسه من هذا الامير الطاغية ، وكانت دهشة الناس كبيرة ، حين رأوا الشريف يدنو من الامير المصلوب في هدوء ثم يهمس اليه في كلمات معدودة : « آلك حاجة ايها الامير ؟ » وكان انسالت

دموع الامير •• لقد قتله الشريف بمثل هذه المروءة والشهامة ، كان يتمنى لو ان الرجل ظل يلفحه بالسياط مقتصا لنفسه ، ولا ان يقتله بمثل شهامته ومروءته ، ورأى الشريف الدهشة بادية على وجوه مرافقيه ، فقال لهم : ان الرجل في محنة ، وليس من المروءة ولا الشهامة ان نقتص من رجل في محنة حتى ولو كان ظالما ••• » •

ان القلم لا يسعه الا ان يتوقف تقديرا لهذه المروءة والشهامة اللتين تنبعثان عن رجولة المؤمن •••

ولنذكر المحنة التي كنا فيها خلال ستة اعوام حسوم بدأت في اغسطس عام ١٩٦٥ ، وانتهت بعد زوال مراكز القوى في أغسطس عام ١٩٧١ ، ولندع جانبا اولئك الغوغاء الذين خرجوا في مظاهرات صاخبة في الشوارع بقيادة بعض اليساريين ــ وكان ذلك في بداية المحنة ــ يتهدرون بألفاظ منها : « قتل قتل يا ••• ذبح ذبح يا ••• » بتشديد التاء في قتل والباء في ذبح •• ولندع جانبا ايضا بعض الاقلام اليسارية العميلة ، التي انفجرت تهاجم بعنف متخلية عن كل ما يمت الى الشهامة بصلة ، ولا نقول : متخلية عن ابسط مظاهر العدل الذي يقتضيه ضمير حامل القلم ، او متخلية عن الحقد المسعور الذي يجب ان يتنزه عنه ذوو الضمائر الحية ، لاننا عندئذ نطلب المحال ••

ولكن هل من المعقول ان ينبري استاذ جامعي للتاريخ ــ حتى ولو كان يساري النزعة ، ليكتب مقالات ضافية في جريدة يومية احتضنت كناسة الاقلام اليسارية المرتزقة ، يطالب فيه بعدم الافراج عن المعتقلين السياسيين اليمينيين ــ على حد تعريفه ــ لان الافراج عنهم قد يعوق مسار الانتخابات الخاصة بالاتحاد الاشتراكي ؟

لا اظن اننا بحاجة الى التعليق او التعقيب ، فهذا الاستاذ الجامعي

واضرابه ، يتوهمون انهم اصحاب سلطة ، ومن حقهم ان يوجهوا السياسة ما طالب لهم ان يوجهوا ، ونحن لا نملك الا ان نؤكد لهم ان وهمهم هو أهون لدينا وأوهى من خيوط العنكبوت •

وليس عجيبا ايضا ان اليسار الذي يزعم الديموقراطية ، يرى من حقه ان ينتقد افكار الغير ولو كانت من صميم الدين ، ولا يرحب حتى بمجرد الرد عليه ، فضلا عن نقد افكاره اليسارية ، فاذا حدث في الحالة الثانية ، فان الاقلام اليسارية التي لا تكتب الا بمداد مصبوغ بالتبعية ، تصب جام غضبها على الكاتب الناقد ، وقد ابتكر اليسار اصطلاحا عجيبا اطلق عليه كلمة « الرجعية » وفي ظلها يصوبون الى الاسلام ما يشتهون من سهام الحقد الدفين •• لقد وقعت في يدي مصادفة مقالة كتبها يساري أظنه الآن وكيل وزارة بوزارة الثقافة ، وتاريخ المقالة يرجع الى سبتمبر عام ١٩٦٣ ، عنوانها : « التأميم •• والاتجار بالدين » في هذه المقالةيهاجم الكاتب جماعة « ندوة العلماء » بالهند ، وهي جماعة اسلامية لها وزنها في العالم الاسلامي وتقديرها ــ لا في الهند وحدها ، واذا كان مثل هــذا الكاتب قد سولت له نفسه ان يتجاهل هذه الجماعة ــ كما عبر قلمه عن ذلك ــ فان هذه الجماعة لا يشرفها ان يعرف قدرها هذا الكاتب وأضرابه اولئك الذين لم يصلوا بعد الى الاعتراف بأقدار انفسهم ، قال الكاتب الكبير :

« فجعت وأنا أقرأ هذه الصفحة من المجلة الاسلامية الكبرى التي تصدر في الهند عن جماعة أسمت نفسها « بندوة العلماء » •

ولم يكن يدور بخلدي ان العالم ما زال يضم هذه العقول المتعفنة التي تسيء الى كل شيء •• الى القراء الذين تخاطبهم •• والى لفظ العلم الذي تطلقه على نفسها ، والى الدين الاسلامي الذي تزعم انها تتحدث عنه وباسمه • •

ولم اكن اتصور انسانا عاقلا يعيش في هذا القرن ويحمل بين جنبات عقله هذه الاوشاب المغرقة في الجهل والشر وفي الضلال ..

المجلة اسمها « البعث الاسلامي » .. تصدر عن ندوة العلماء بالهند .. وتضم بعض المقالات اسماء كثيرة من دول آسيوية وافريقية مختلفة وبعض اصحاب المقالات من بلادنا .. قرأت في العدد الاخير منها سبتمبر عام ١٩٦٣ مقالا بعنوان « تناقض واستغلال » وضع كاتبه في مقدمته خبرا منقولا عن جريدتي الاهرام والجمهورية يقول : « معرض للرسم والتصوير والنحت وفرقة موسيقية وفريق للتمثيل بالازهر » وتحت هذا الخبر عبارة تفيد اننا نتمسك بالدين في اعمالنا ، ثم التعليق الذي بدأه الكاتب بقوله : ان هذا الذي اكتشفه « احدى المضحكات المبكيات» ويختتم الكاتب النحرير مقاله بهذه الفقرة :

« نادوا بالدين يوم بور سعيد .. ونادوا به في الجزائر فضحوا بمليون نسمة ، ثم هجروا هذا الدين وتنكروا له ، واطلقوا عنان الكتاب الاباحيين والوجوديين والانتهازيين أن يطعنوا فيه وينالوا منه بحرية تامة، ويسخروا منه بوقاحة نادرة . . انهم نادوا بالدين في جانب وحاربوه في جانب آخر ، وقتلوه في الازهر ، فهل ارادوا تأميم الدين ايضا .. » .

وكاتبنا الكبير لم يتكرم بنشر الخبر المشار اليه في جريدتي الاهرام والجمهورية ، ولم تقتضيه امانة القلم الذي يحمله ان ينشر مقال جريدة « البعث الاسلامي » كاملا ، لكي يحكم القراء له او عليه ، ونحن لا ننكر بالطبع ان الحدة في التعبير امر غير مقبول، والذي أثار الكاتب ــ وحسب ــ العبارة التي نالت من الكتاب الاباحيين والوجوديين والانتهازيين ، فأراد الدفاع عنهم او بمعنى اصح الدفاع عن قلمه ، ولو انه ناقش المقال بهدوء وصدر رحب بالنقد لكان من حقه علينا ان نقدره ، وحتى لو انه ناقش

المقال بعنف وقسوة وتجريح ، لكان من حقنا عليه ان نلتمس له بعض العذر •• لكن ان يتعمد الكاتب الكبير استعداء الازهر في مصروالسلطات في الهند على الجماعة الاسلامية الممثلة لملايين المسلمين من مواطني الهند ، فهذا مما تمجه النفوس التي تتمتع ولو بظلال من الشهامة والرجولة •

ليس هذا وحسب ــ فالكاتب الكبير ــ جعل من نفسه قيما على الهند ، وبقية الدول التي لا تدين بالولاء باليسار الذي ينتمي اليه احترافا وارتزاقا ، ومن باب اولى الدولة التي ينتمي الى ارضها بحكم شهادة ميلاده ، فنراه يقول : « ونحن هنا في بلادنا نرفض ان نسمح لامثال هؤلاء العلماء المدعين ان يعوقوا تطور الهند باسم الاسلام والمسلمين •• نرفض ان يقوم هؤلاء بالدور الخطير الذي قامت وتقوم به الرجعية الدينية في منطقتنا ••• » •

كلام لا يقوى هذا الكاتب اليوم على ان يتفوه به •• لكن المأساة تكمن في الغرور المضحك •••

أما استعداء الكاتب الكبير على الجماعة الاسلامية بالهند ، فأود ان اهمس اليه قائلا له :

ان الازهر الذي وقف مكتوف اليدين امام الاقلام المصرية التي أباحت لنفسها الهجوم على الاسلام • وذلك قبل اندحار مراكز القوة ، كان اولى به ان لا يفعل شيئا ازاء جماعة اسلامية بالهند حتى ولو كانت تطاولت ــ جدلا ــ على مقدسات الاسلام ، فما بالنا وهذه الجماعة لم تهدف بهجومها الا الى النيل من الاقلام اليسارية التي كانت تكيل السباب للاسلام دون ذرة من الحياء •• ؟

* *

معادلة ليست صعبة .. وليست عادلة

أجل : انها معادلة ليست صعبة •• وليست عادلة ايضا •

اننا نحترم حرية الرأي •• ونرحب بها ••

فلسنا من اشياع الذين يطالبون بمصادرة الرأي حتى ولو كان فيه عدوانا على الاسلام •• لان الاسلام الذي لم ينهزم كعقيدة حين حاولت قريش بكل طغيانها وجبروتها في مكة ان توقف مسيرته بالرغم من ان حملة العقيدة من أتباعه ، لم يكونوا الا فئة مستضعفة مغلوبة على امرها ، وحين حاولت اليهود بكل ما تملك من مخططات التآمر عليه ان تشل حركته في يثرب ، بالرغم من تعاون جبهة لها خطورتها معها ، واعني بها جبهة المنافقين •• هذا الاسلام لا يبالي اليوم ان تدهمه آراء حثالة من اليسار او شراذم من اليمين ••

ولكن لكي تكون المعادلة غير صعبة ، وغير جائرة ، يجب ان لا تترك الاراء المنحرفة المتطاولة تتحرك بحرية مطلقة ما شاء لها ان تتحرك ، ولا تسمح الفرصة للاسلام أن يدافع عن فكرته ••

ما أكثر الافكار المتطاولة على الاسلام ، والتي تغزوه من الخارج ومن الداخل على السواء ، لكن الاسلام يقف ازاءها عاجزا عن ان يدافع عن نفسه ، ليس معنى هذا ان عجزه كامن في ذاته ، فلديه والحمد لله السلاح القوي ، من عقيدته وفكره ، لكن المشكلة ليست ايضا في خلو الميدان من مسلمين يحملون هذا السلاح في وجه الاعداء ، وانما عدم اتاحة الفرصة المتكافئة لهم ••

اذن فالمشكلة تتركز اليوم في اتاحة الفرصة المتكافئة ..

فاذا تطاول على الاسلام متطاول على صفحات جريدة يومية كبرى توزع مئات الالوف ، ولا يرد على هذا التطاول الا على صفحات مجلات توزع الالوف ، او الا على منابر لا يستمع اليها الا المئات ، انعدم التكافؤ في الفرص ...

واذا خرج على الناس كتاب من بضع مئات من الصفحات ، محشو بالتطاول على الاسلام ، فرددنا عليه ، في مجلة من بضع عشرة صفحة بمقال أو اكثر .. انعدم ايضا تكافؤ الفرص ...

وهذا .. اذا لم يمر التطاول في صمت دون ان يتمكن احد من مجرد الرد ، حتى في مجلة متواضعة ، او على منبر يسعى اليه العشرات من الناس ...

والامثلة كثيرة ...

منذ سنوات ظهر كتاب لاحد المستشرقين عنوانه « الرسول » قام بترجمته المرحوم الاستاذ عبد الحميد جودة السحار والاستاذ محمد فرج، وكان مثيرا ان يطبع الكتاب الحافل بالمطاعن على الاسلام ونبي الاسلام، دون ان يتحرك احد للرد عليه .. واذا كنا مستعدين لان نرحب بآراء المستشرقين حتى اصحاب الاهواء منهم ، لكن من غير المنطق ان نرحب بطبع هذه الاراء بعد ترجمتها الى العربية ، دون تعليق يذكر من المترجمين.. والمترجمان في هذا الكتاب لم يفعلا شيئا اكثر من الترجمة .. ولقد كتبت منذ شهور عن هذا الكتاب على صفحات جريدة الاخبار ، ولكن اية قيمة لكلمة من بضعة عشر سطرا جادت بها علينا جريدة الجمعة ، التي تجود عليها هي الاخرى جريدة الاخبار بثلث صفحة كل يوم جمعة .

وكتاب مثل كتاب الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي « محمد رسول الحرية » الذي صدرت طبعته الاولى منذ عشرة اعوام ، وقد طبع منه حتى الان عدة طبعات ، والحديث هنا انما ينصب على الطبعة الاولى التي قرأتها وعلقت على ما فيها من جرأة على تاريخ النبوة في مجلة الازهر ، وكذلك في البرنامج الثاني بالاذاعة ، والكتاب يحاول في ذكاء ان يفصل نبوة محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ عن السماء ، اي ان النبوة مكتسبة بالنسبة له ، وما الوحي الا تصور تجسد في ذهن الرسول ، وما القرآن الا كلام قد نبع من صفاء نفسه ، وشفافية روحه ، ولقد أشرت فيما كتبت عن هذا الكتاب الذي لم يزد على انه ردد كلاما سبقه اليه بعض المفكرين الاجانب ، الحاقدين على الاسلام ــ أشرت الى اننا ضد مصادرة الآراء ، والذين يرغبون في مصادرة الآراء ،انما هم العجزة ، الذين ينشدون الراحة من مشقة الرد والمناقشة ...

ماذا حدث لهذا الكتاب ؟

ان الرقابة على المطبوعات أحست بصدق ما في هذا الكتاب من مفتريات على الاسلام ، فحولته الى فضيلة الشيخ محمد ابي زهرة ، فكتب عنه تقريرا مفصلا في بضع وعشرين صفحة ، والتقرير بالطبع تضمن نقدا عنيفا لآراء الكتاب ... كذلك حولت الرقابة نسخة الى الازهر على ما علمت ..

فماذا حدث بعد ذلك ؟

المؤلف كتب برقية الى السيد رئيس الجمهورية الراحل ، وصدرت الاوامر باطلاق سراح الكتاب .. ما مصير تقرير الشيخ ابي زهرة الذي لم أزل احتفظ بصورة منه ؟ تحول الى عدم ... ماذا فعلت لجنة الازهر ؟ لا شيء .. !

والاستاذ محمد حسنين هيكل الذي كان امبراطورا غير متوج ، قال بعد النكسة في مقال له : ان التغيير الذي احدثته التكنولوجيا يجعل اقدس الوثائق والكتب (يعني المنزلة بالطبع) بمنزلة اوراق البردي ، ليس لها مكان الا في المتاحف بين التحف والآثار ..

وفي مقال آخر ما معناه :

« ان الشعب المصري بصدد التحرر من الرواسب التي سببته لـه الغزوات الاجنبية ، ومنها الغزو العربي ويعني الاسلامي » ...

ما صدى هذا الكلام .. ؟ لا شيء .

لماذا ؟ لاننا فقدنا الكثير من غيرتنا على الاسلام ، واستمرأنا الكثير من البلادة تجاه ما يواجه من تحديات ...

وحتى لو قدر لنا ان ننتفض احيانا حتى نوهم انفسنا بأننا لم نزل احياء نرزق ، فان انتفاضاتنا سرعان ما تتحول الى لون من الاستهلاك..

* *

● وشيء آخر لا بد من الحديث عنه :

اذا كانت هذه ازمة الضمائر التي يعيشها نقادنا ، فيوجهـون كل اهتمامهم الى اي كتاب جديد في الاداب بشتى فروعه ، او التاريخ ، أو حتى في تربية الدواجن وزراعة البطاطس ، ويتجاهلون اي كتاب جديد ، ما دام اسلاميا ، وحتى ان كان له قدره الكبير في مجال الفكر ، ما لم يكن مؤلفه أو محققه ان كان تراثا ، من الصفوة المختارة ، وزيرا كان ام مديرا أم رئيس مجلس ادارة ، أم صاحب نفوذ ادبي او مادي ، أم يمت بصلـة الود او القرابة للسيد الناقد ..

مثل هذا الفارق الصارخ في السلوك نحو المؤلفين ، ينعكس على حياة المؤلفين ايضا ، بل واكثر بعد وفاتهم ..

هل سمعنا مثلا ان كاتبا اسلاميا استطاع الحصول على معـاش استثنائي ، شأنه شأن الممثلين والمطربين والمثالين والراقصات ؟

واذا كانت الصحافة الموقرة ـ او صاحبة الجلالة ـ حريصة كل الحرص على ان تذكرنا بالاحياء والاموات من ادباء العالم ومفكريه ، فهل تفضلت مرة واحدة فذكرتنا بواحد من اعلام الفكر الاسلامي ؟

نحن لا نطلب المستحيل لان الصحافة عندنا تنقل من الصحافة العالمية التي تهتم بالادباء والمفكرين في بلادها ، ولا تكلف الصحافة عندنا نفسها مشقة البحث عن علمائنا ومفكرينا الاسلاميين •••

هل ذكرت الصحافة يوما المرحوم محمد فريد وجدي الذي قضى ثلاثة ارباع قرن يدافع عن الاسلام في مواجهة الفلسفات المادية ؟

وهل ذكرت يوما المرحوم محمد فؤادا عبد الباقي الذي ظل نصف قرن من الزمان خادما للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ؟

هل يتصور انسان ان مثل هذا العالم الجليل الذي ظل يخدم السنة المحمدية حتى كف بصره ، مات قبل ان يتمكن من السفر الى اسبانيا للعلاج ، وعلى نفقته الخاصة ••• لقد زرته ـ رحمه الله ـ في بيته في أغسطس عام ١٩٦٥ ، وامتلأت نفسي مرارة وانا اراه كفيفا ، وتفاقمت مرارة نفسي حين ذكر لي انه منذ أمد بعيد طلب السفر الى اسبانيا للعلاج وعلى نفقته الخاصة ولم يستجب المسؤولون بعد لرغبته ••• ويبدو ان العملة الصعبة هي المشكلة ••

ولم يكن رحمه الله ـ في حاجة الى ان ازيد من آلام نفسه لاهمس اليه : ليتك كنت مغنيا كفلان الذي يعالج في اوروبا وامريكا ، ويسافر كل عام لعرض نفسه على كبار الاطباء ، ومعه طبيب مصري مرافق ••

واصبحت كلما قرأت في الصحف ان الممثل فلانا سافر الى اوروبا للعلاج ، او ان المطربة سافرت الى لندن للعلاج من الحساسية ، او ان احدى الراقصات سافرت الى الخارج للعلاج على حساب الدولة ••ذكرت المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي وقرأت على روحه الفاتحة •••

* *

الكلمة الأخيرة

الكلمة الاخيرة أردتها أن تكون غاية في الايجاز ••

انها خلاصة القول الذي نريد أن تقوله •••

فلا جدال في أن الاسلام عقيدة ونظاما ، وتراثا وشعوبا ، يواجه اليوم تحديات عنيفة ، يوجهها اليه اليمين الصليبي في ذكاء عن طريق الغزو الفكري الذي يتسلل الى الديار الاسلامية يحمله تلاميذ عرب ومسلمون أوفياء له ، كما يوجهها اليه أيضا اليسار الالحادي المادي ، عن طريق الغزو الفكري أيضا ، ذلك الذي أصبح يتسلل الى ديار المسلمين في سفور بعد أن كان يتسلل اليها في الظلام او من وراء حجاب ، وله أتباع وأشياع يلقنونه كالببغاوات ، وأصبحوا يرددونه أمام أبصارنا وعلى أسماعنا في شكل كلمة مكتوبة ، أو كلمة مذاعة او في شكل تمثيلية أو مسرحية •••

وكان من نتيجة هذا الغزو الفكري المزدوج الذي استمرأ تحدي الاسلام في دياره ، أن أصبحت الدعوات الهدامة لعقيدة الاسلام سافرة، يحملها أحيانا كتاب يحملون أسماء اسلامية بحكم شهادات الميلاد ، ومن ذلك : الدعوة الى فصل الدين عن الدولة ، بحجة واهية ، هو أن الدين لله والوطن للجميع ••• والدعوة الى فصل العقيدة الدينية عن نضالنا ضد العدو بحجج هي أدهى من خيوط العنكبوت ، لا يجرؤ على الاحتجاج بها الا كل مخمور لا يدري ماذا يقول ••

ولسائل أن يتساءل : ما السبيل اذن ؟

والسبيل واضحة اذا خلصت النيات ...

● لا بد من التفكير الجاد لايقاف الخلافات المذهبية بين المسلمين، فالعواصف اذا هبت فلن تبقى سنيين ولا شيعيين ، والنار اذا اشتعلت فلن تذر وهابيين ولا صوفيين ...

ويكون من الحماقة اذا نحن طالبنا بوحدة حتى معنوية لا سياسية ــ للعالم اسلامي ، وهو خرب في داخله بسبب التعصب المخلافات التي يمكن أن نسقطها من الحساب ، اليوم وغدا وبعد غد ...

● ولا بد من ايجاد رأي عالمي اسلامي ، واع يقظ مثقف ... واسع الافق ، يستغني الى الابد عن التشبث بالفرعيات والشكليات التي يمكن الاستغناء عنها اليوم وغدا وبعد غد ...

● ومن أجل ايجاد الرأي العالمي الاسلامي ، يجب أن تقوم أكثر من مؤسسة صحفية تقدم صحفا يومية وأسبوعية على مستوى الصحافة العالمية ... وأن تقوم أكثر من مؤسسة للنشر ، تجعل من الكتاب الاسلامي كتابا عالميا ، على مستوى الكتب العالمية التي تغزو ديارنا ونبارك نشاطها .

هذه هي الكلمة الاخيرة ... وهذه هي السبيل .

والله الموفق

المـراجـع

الكتـاب	المؤلف
● القرآن الكريم	
● السنة النبوية	
● كتب السيرة	
● الصحافة والمجلات	
● العقيدة والقيادة	الواء الركن محمود شيت خطاب
● اهداف اسرائيل التوسعية	للواء الركن محمود شيت خطاب
● الاسلام والنصر	للواء الركن محمود شيت خطاب
● الافعى اليهودية فيمعاقلالمسلمين	للاستاذ عبدالله التل
● جذور البلاء	للاستاذ عبدالله التل
● مع الرعيل الاول	للاستاذ محب الدين الخطيب
● عمر بن الخطاب	للدكتور سليمان الطماوي
● الطريق الى المدائن	للاستاذ احمد عادل كمال
● القادسيـة	للاستاذ احمد عادل كمال
● تجديد الفكر العربي	الدكتور زكي نجيب محمود
● الاسلام في مواجهة التحديات	للاستاذ عبد الكريم الخطيب
● فضل العرب على أوربا	الدكتورة سنجريد هونكن
● من وحي الاسلام والاحداث	الدكتور عبد المنعم النمر
● رجال الفكر والدعوة في الاسلام	للاستاذ ابو الحسن الندوي
● واقع المسلمين	للاستاذ أبي الاعلى المودودي
● الاسلام يتحدى	للاستاذ وحيد الدين خان
● الاسلام عقيدة وشريعة	للمرحوم الشيخ محمود شلتوت
● الاسلام وحاجة الانسانية اليه	للمرحوم الدكتور محمديوسفموسى
● المسئولية في الاسلام	للمرحوم الدكتور عبدالله دراز

فهرست